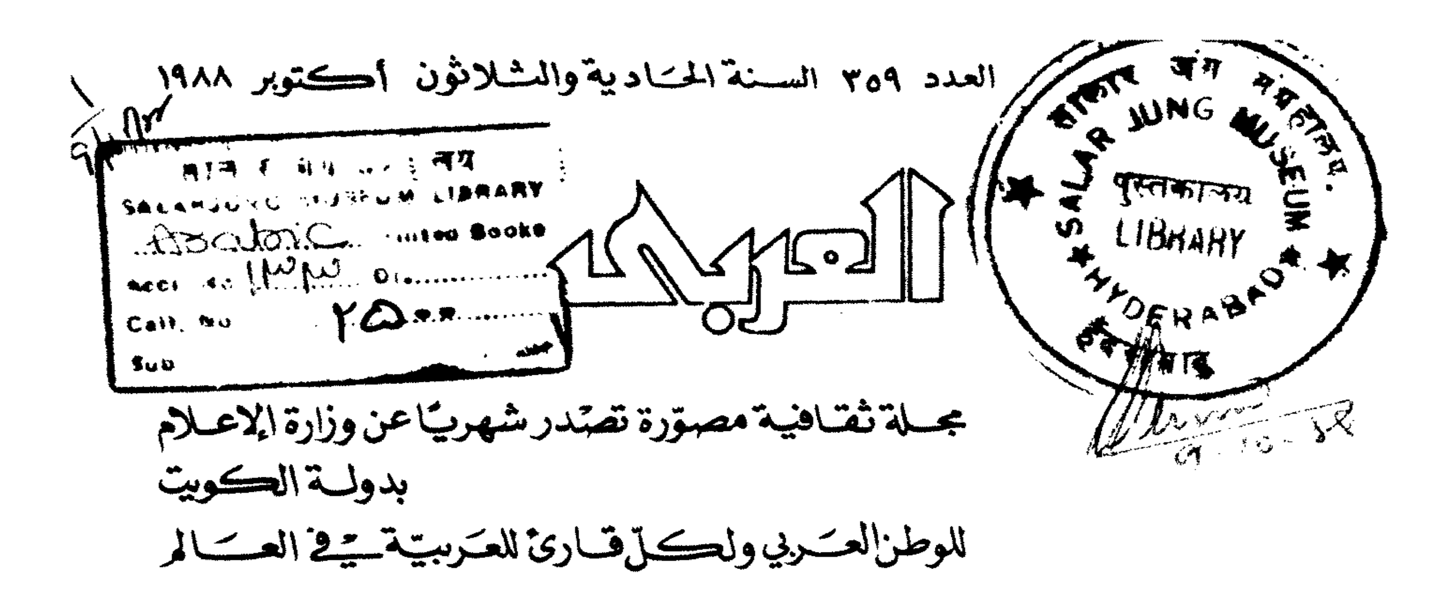
العدد ٣٥٩ السنة الحادية والثلاثون أكتوبر ١٩٨٨



مجلة ثقافية مصورة تصدر شهرياً عن وزارة الإعلام
بدولة الكويت
للوطن العربي ولكل قارئ للعربية في العالم

رئيس التحرير
د. محمد الرميحي

Issue No. 359 Oct. 1988, P. O. Box 748
Postal Code No. 13008
Kuwait. A Cultural Monthly - Arabic
Magazine in Colour Published by :
Ministry Of Information - State Of
Kuwait.

ص.ب : ٧٤٨ - الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ - ٢٤٦٨٢٤٢ - ٢٤٢٧١٤١
برقياً : "العربي" - الكويت - تلكس MITR.4404IKT
تلفون فاكسملي : ٢٤٢٤٣١٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

يتفق عليها مع الإدارة - قسم الاعلانات

ترسل الطلبات الى : قسم الاشتراكات - المكتب الفني
وزارة الاعلام - ص. ب : ١٩٣ - الكويت
على طالب الاشتراك تحويل القيمة بموجب حوالة مصرفية
أو شيك بالدينار الكويتي باسم وزارة الاعلام طبقاً لما يلي :
الوطن العربي ٤ د.ك. باقي دول العالم ٦ د.ك.

ثمن النسخة

الكويت ٢٥٠ فلساً	تونس ٤٠٠ مليم	سوريا ١٠ ليرات
العراق ٢٥٠ فلساً	الجزائر ٤ دنانير	الإمارات ٥ دراهم
الأردن ٢٠٠ فلس	السعودية ٥ ريالات	المغرب ٣ دراهم
البحرين ٣٠٠ فلس	اليمن الشمالي ٣ ريالات	ليبيا ٣٥٠ درهما
اليمن الجنوبي ٢٥٠ فلساً	قطر ٥ ريالات	أوروبا ٢ دولاران أو جنيه استرليني
مصر ٣٠ قرشاً	سلطنة عمان ربع ريال	فرنسا ١٥ فرنكاً
السودان ٢٠ قرشاً	لبنان ١٥ ليرة	أميركا دولاران


العربي
زنجبار
كان !

اليخوت الطويلة : الكلاسيكيّات تحمّل و ثبات .

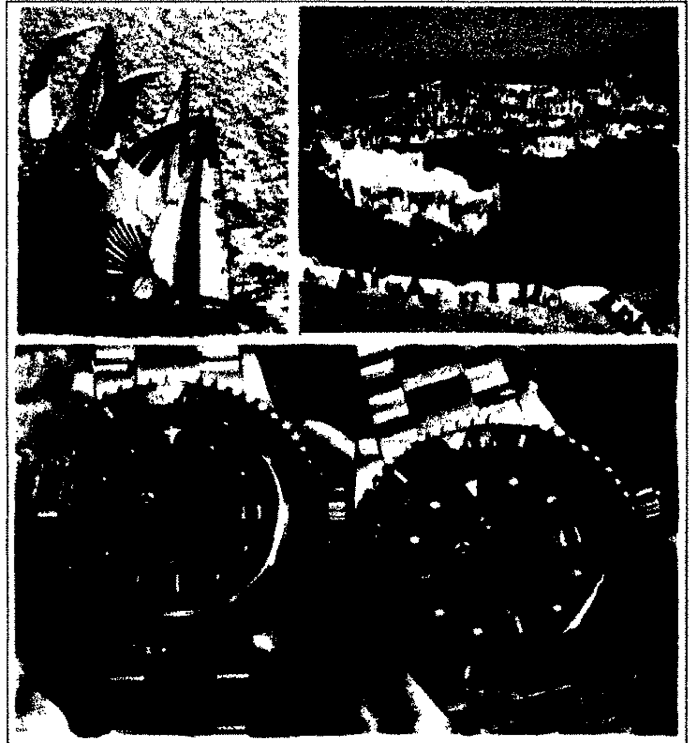
قيادة يخت " مكني " طويل حلم يراود جميع أصحاب اليخوت من الفئة الممتازة . فمهمة الربان تتطلب تنفيذ مناورات الملاحة بدقة لا تتعدى قيد شعرة - وما ذلك بعمل سهل ، فكل ما يتعلق باليخت الطويل له شأن كبير .

وقيادة يخت طويل بسرعة ٢٥ عقدة في الساعة لا تثير الاعجاب فحسب ، بل انها محفوفة بالمخاطر . فالجنوا وحدها تزن ٢٥٠٠ باوندا ، والحمل الذي تتعرض له المعدات ، كل بمفردها ، انما يبلغ حدًا هائلاً ، فلا غرابة ، أن تنهار تحت تأثير الاجهاد فيتأذى بعض أفراد طاقم اليخت .

سرعة البديهة مقترنة مع روح العمل الجماعي أمران حيويان لقيادة هذه اليخوت العملاقة عند السباق .

ومهما كان لسباق الزوارق الطويلة من إعتبار ، فإنه لا يفوق مكانة سباق اليخوت الطويلة " ايكاليا " لبطولة العالم عندما بلغ أوجه في المرحلة الثانية وانتهى بجائزة كأس رولكس التي منحت في " بورتو سيرفو " ، سردينيا .

تصميم كلاسيكي يعمل ضمن نطاق دقيق من القدرة والتحمّل ... وهي مميّزات يعطيها المشتركون في سباق اليخوت الطويلة حق قدرها ، وكذلك صانعو ساعة كلاسيكيّة دقيقة رولكس من جنيف .



ساعات رولكس صبماريز مكفولة ضدّ الماء حتى عمق ٣٠٠ متر . وهي من الذهب عيار ١٨ قيراطًا ، او من الفولاذ والذهب .



ROLEX

رولكس



محتويات العدد

قضايا عامة :

عروبة وإسلام :

استطلاعات مصورة :

طب وعلوم :

أدب وفنون :

حديث حزين مع رسام أعمى ص ٩٠



من شيان إلى سشوان مولود واحد يكفي !

ص ٦٨

منتدى العربي :

تربية وعلم نفس :

وجها لوجه :

توفيق يوسف عواد

.... ص ٩٧

فلسفة

تاريخ وتراث وأشخاص :

مكتبة العربي :

أبواب ثابتة :



صورة الغلاف

زنجبار . . بر الزنج . . عاصمة الممالك العربية في أفريقيا أقام العرب هناك حضارة زاهرة ولكنها لم تدم طويلا ، وما زالت بصماتهم هناك في كل نواحي الحياة .

(طالع الاستطلاع ص ١٣٢)

مجلة الأسرة والمجتمع

عزيزي القارئ

لقد أصبح أحد هموم العمل الصحفي الثقافي العربي هو « السرقات الأدبية » ، ولقد كانت هذه القضية قضية القضايا في الأعمال الأدبية والثقافية منذ فترة طويلة ، ولا تخلو منها مطبوعة ثقافية في عالم اليوم ، لكن بعضنا نحن العرب قد أضاف إليها فنونا جديدة . منها مثلا أن يرسل الكاتب عمله الثقافي إلى أكثر من لة دون أن يعلم أحدا بذلك ، وعندما يظهر مثل هذا العمل في أكثر من وسيلة نشر تتوالى عشرات الرسائل من القراء الأعزاء تنبه هذه المطبوعة أو تلك لما تم اقترافه ، ونحن كعاملين في هذا المجال لا يمكن لنا انسانيا أن نحصر كل ما يكتب بالعربية حتى نتجنب التكرار . ويبقى الأمر متروكا لضمير الكاتبة أو الكاتب صاحب العمل ، ويبدو أن البعض قد أصبح ينقصه هذا الضمير !

وآخر الطرق التي اكتشفناها في « العربي » تتمثل في أن ينقل أحد الكتاب موضوعا كتبه منذ سنوات لمجلة أخرى ، ثم يحور فيه بعض التحوير ويرسله إلينا ، وسواء اكتشفنا الأمر أو نبهنا إليه القراء الاعزاء فان الكاتب عند مواجهته بذلك يبادر الى انتحال أعذار وحجج أكثرها شيوعا ضعف الذاكرة وداء النسيان ! .

ما نريد أن نقوله تعليقا على مثل هذه التصرفات أنها تفتقر الى الوازع الشخصي الأخلاقي ، وتستهين بعقول الآخرين ، وأنها مهما تخفت فإنه سيتم كشفها إن عاجلا أو آجلا !

ولقد كانت لنا قاعدة ما زلنا نتبعها في معالجتنا لهذا الأمر وهي أن نشعر الكاتب الذي نتأكد من إتيانه مثل هذا التصرف ، بعدم رغبتنا في التعاون معه . ثم نرسل نسخة من المستندات التي توصلنا اليها إلى المجلات الزميلة كي تأخذ حذرها . وباعتقادنا أنه لا يوجد أي سبب يجعل إنسانا يحمل شرف الكلمة والقلم لأن يتحايل بهذه الطريقة إلا لضعف وخلل في ذاته .

فلو كتب للمجلة أو المطبوعة بأن مقاله أو مادته الابداعية قد نشرت من قبل في مجلة محدودة التوزيع ويريد أن يعيد نشرها في مجلة واسعة الانتشار لكان ذلك أكثر احتراما ، وأقرب إلى الفهم ، ويصبح الأمر بعد ذلك قابلا للاتفاق أو الاختلاف ، وللقبول أو الرفض ، ولكن أن يستغل الانسان ثقة الآخرين ويغفل الاشارة إلى سبق النشر أو تكرار الارسال إلى أكثر من جهة ، فان ذلك أقرب إلى خيانة الأمانة !

وفي تقديرنا أنه ليس هناك دواء ناجح لمثل هذا الأمر - على ما يبدو - إلا بنشر وقائع واسماء لردع كل من يأتي بمثل هذا العمل أمام الملأ ، وقد اتخذنا قراراً بذلك في مجلة « العربي » ، ونرجو أن تسايرنا فيه بقية المجلات العربية الأخرى .

وكل ما نرجوه هو أن ترتقي الكتابة العربية من حيث المضمون ، ومن حيث السلوك إلى أفضل وأرقى مستوى ، مدركين أن الشكل والأسلوب هما تعبير عن المضمون ، ولا يستقيم أبدا الظل والعود أعوج . « ألا هل بلغت اللهم فاشهد » . □

« المحرر »



بقلم الدكتور
محمد الرميحي

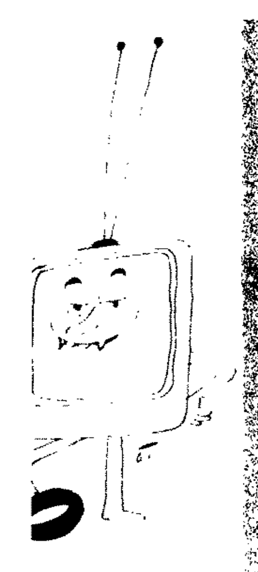
مستقبل المشاهدة وثورة الترفيه



أكثر من ندوة علمية حضرتها فى السنتين الاخيرتين كان موضوعها واحداً هو مستقبل (التلفزيون) وتأثيراته على الانسان في كوكبنا .

قد لا يستطيع بعضنا أن يتخيل الآثار الضخمة المترتبة على وجود هذا الجهاز الصغير الذى يقبع فى غاية البراءة فى أحد أركان المنزل ! إلا أن ماشاهدته وسمعته من بحوث تجعلني أقول إن هناك ثورة بالمعنى الحقيقى ، وعلى المستوى العالمى ، تقودها أجهزة الاتصال الجماهيري وعلى الأخص (التلفزيون) ، هذه الثورة تتداخل فى نسيج المجتمع ككل اقتصاديا وسياسياً وتقنياً ، وهى ليست خاصة بمجتمع دون آخر ، إنها عالمية يقود التأثير فيها قوى عالمية أيضاً .

الإشكالية الأولى التى تصدمنا من البداية ، أن تطور هذا الجهاز (التلفزيون) غير قابل للتوقعات المعقولة فى المدى المتوسط ، فقد قفز



قفزات متلاحقة من التطور تجعل أياً منا ـ مهما خصب خياله ـ يقف عاجزاً عن توقع ماسيحدث في المستقبل .

لقد أصبح تصور مستقبل الاتصال الجماهيرى فيه مخاطرة بذاته . « جريفس » أحد مخرجى السينما الصامتة قال فى العشرينيات من هذا القرن : (إننى أعتقد أنه بعد مائة عام من الآن سوف نشاهد عرضاً للأفلام السينمائية في الطائرات) كان يتحدث فى سنة ١٩٢٥ ، لذلك فإن توقعه كان يفترض أن يحدث فى سنة ٢٠٢٠ .

وفى سنة ١٩٣٥ عندما بدأت التجارب الاولى على (التلفزيون) صدر كتيب فى بريطانيا بعنوان (ماذا نفعل بالإذاعة البريطانية ؟) ، فى ذلك الكتيب توقع أن يستخدم التلفزيون في المنازل التى بها عدة حجرات ، ولن يستخدمه أكثر من ١٠٪ من السكان بشكل دائم .

وفى سنة ١٩٧٦ ـ قبل اثنتى عشرة سنة خلت ـ كتبت (مؤسسة التلفزيون المستقلة البريطانية) لإحدى لجان البرلمان البريطانى التى تدرس مستقبل التلفزيون فى بريطانيا . كتبت تقول : (ان الفيديو لن يهتم به إلا عدد قليل من الناس الذين يقدرون على الاختيار ويستطيعون دفع ثمن ذلك الاختيار) .

لقد كانت كل تلك التوقعات السابقة خاطئة تماماً .

لقد شاهد العالم عروضاً سينمائية في الطائرات قبل أن تمضى ستون عاماً على توقع جريفس المذكور .

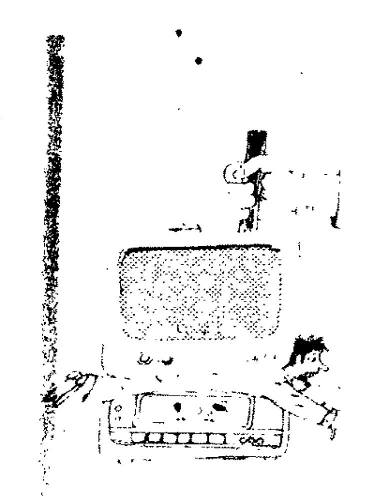
وبعد خمسين عاماً فقط (في سنة ١٩٨٥) كان عدد مشاهدى التلفزيون بليونين ونصف بليون من الناس فى مائة واثنين وستين بلداً في العالم ، وفى بريطانيا وحدها فإن ٩٨٪ من المنازل توجد بها أجهزة تلفزيون ، ونصفها على الأقل بها أكثر من جهاز .

تلك بعض الأمثلة على خطورة التوقعات فى مثل هذا المجال السريع التطور : الاتصال الجماهيرى ، أو الاعلام ، أو بالتحديد التلفزيون .

الصندوق العجيب :

لو عدنا من العام إلى الخاص فهل سألت نفسك كم ساعة تشاهد فيها برامج التلفزيون فى اليوم الواحد ؟

فى حقيقة الأمر ، مهما كان عملك أو مستواك الثقافى أو دخلك المادى فأنت فى بعض الوقت أسير هذا الجهاز الأخاذ .



قد يطول هذا الوقت أو يقصر ، قد تحب أو لاتحب هذا البرنامج أو ذاك ، ولكنك بالتأكيد فى وقت ما تجلس أمام هذا الجهاز .

فى البلدان التى توجد بها إحصائيات نعرف على وجه اليقين متوسط الساعات التى يقضيها المواطن أمام التلفزيون ، ففى اليابان يشاهد المواطن اليابانى التلفزيون مدة ثمانى ساعات فى المتوسط ، وفى الولايات المتحدة أربع ساعات ، وفى بريطانيا خمس ساعات .

فى إحدى الدراسات أن البريطانيين يقضون أمام هذا (الصندوق) وقتاً أطول مما يقضونه فى أى نشاط آخر عدا العمل والنوم !

وإذا استمر هذا التوجه فإن ساعات مشاهدة التلفزيون فى كثير من دول العالم سوف تزيد عن ساعات العمل . ويتحدث الآن بعض الكتاب ـ بجانب الحديث عن الإدمان على المخدرات أو الادمان على الكحول ـ عن ظاهرة اجتماعية جديدة هى « الادمان التلفزيونى » .

باختصار . . هذا الجهاز الصغير ـ القوى الأثر ـ بالمعنى المجازى ، يضع جدول أعمال الشعوب اليوم . . !

ومثل أى اجتماع تذهب إليه فأنت تناقش فقط الأعمال ، وبالتالى فإن من يضع جدول الاعمال يتحكم في مسيرة النقاش وفى نتائجه أيضا ، كذلك فإن التلفزيون هو الذى يضع جدول الأعمال للشعب .

كيف يكون هذا الجهاز مؤثراً بهذه القوة ؟ يقول البعض ـ عن حق أو عن غير حق ـ إن التلفزيون أرجع الانسان الى محيطه الطبيعى ، بعد أن أبعدته الكلمة المطبوعة (الجريدة والمجلة والكتاب) عن ذلك المحيط ، وجعلته يستخدم حاسة النظر فقط .

فى مشاهدة التلفزيون يستخدم الانسان جميع حواسه ، ويتصالح مع محيطه ، ويتحرر من القيود التى تفرضها عليه طبيعة الوسيلة المطبوعة . هكذا يقول البعض ، بينما يتخوف غيرهم من وجود هذا الجهاز فى دولته ، لخطورته .

أذكر أن أحد الهنود المتخصصين فى وسائل الإعلام رد على انتقاد البعض للدولة الهندية بأن أجهزة التلفزيون بها قليلة نسبياً فقال : « أنا سعيد بأن تكون نسبة مشاهدى التلفزيون فى الهند بهذا الحجم (وقتها ذكر رقم ٧٪ فقط) لأن الرسالة الاعلامية غير جاهزة » وهو يعنى أن محتوى مايبثه التلفزيون الهندى أو غيره فى العالم الثالث هو محتوى مستورد وغير منتج محلياً ، فالأفضل ـ من وجهة نظره ـ ألا يشاهد كثيرون من مواطنيه هذا المحتوى المستورد . . !

ثـــورة التقنيـــــة :

البسطاء والسذج فقط سوف يغامرون بإعطاء تصورات لمستقبل هذه الصناعة ، والمخاوف التي يبديها البعض ـ خاصة في العالم الثالث ـ أمام تطور هذا الجهاز ، يجب أن تزداد إذا عرفنا سرعة التطور في التقنية . . . Hard Ware وفي البرامج Soft Ware .

وأكثر من ذلك ـ لأول مرة في تاريخ الانسان ـ تقود التقنية حاجات البشر وتخلق حاجات جديدة ، بدلاً من أن يكون العكس . وكان السائد قبل انقضاء ثُلث هذا القرن ، أن الحاجات الانسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية هي التي تقود تطور التقنية .

في موضوع التلفزيون وما يشابهه من أجهزة ، نحن مواجهون بتطورات قد تغير حتى سلوك البشر .

على سبيل المثال فإن المعروف أن القنوات الهوائية الخاصة للبث التلفزيوني محدودة ، وهي موزعة عالمياً من خلال اتفاقيات دولية ، لذلك فإن هذه الصناعة تطور ما يسمى « بالتلفزيون السلكي » Cable T.V. ، هذه التقنية الحديثة وتطوراتها تستطيع أن تحمل الى منزلك أكثر من عشرين محطة ـ أي أن خيارك في المشاهدة يتسع بشكل كبير . واليوم هناك مئات المحطات للتلفزيون السلكي في كل من الولايات المتحدة واليابان وكندا وبلاد أخرى ، وهناك معركة سياسية دائرة في بريطانيا حول هذا الموضوع الآن . هل ندخل التلفزيون السلكى على نطاق واسع أم لا ؟ .

خطورة هذه التقنية الجديدة بجانب القنوات الكثيرة التي يمكن للمشاهد الحصول عليها ـ وتعددها غير المحدود ، أن المشاهد يستطيع أن يقوم بنشاط تبادلي كما يسمى ، فليس باستطاعته استقبال الرسالة التلفزيونية فقط ، بل إرسال رسالة إلى المحطة ، أي أن هناك إمكانية مشاركة المواطن وهو جالس مستريح على مقعد في صالون منزله .



نتائج هذه الإمكانية غير متخيلة وآثارها غير محدودة ، على المجتمع والعلاقات السياسية وحتى التجارة والمضاربة .

فيستطيع المشاهد مثلا أن يدلي برأيه في موضوع سياسي (هذه الطريقة مستخدمة الكترونياً الآن حتى في المحطات الهوائية لعدد محدود من الناس في الولايات المتحدة وبريطانيا وبعض دول الشمال) .

"الزنابير" تهدد الإنتاج الإعلامي المحلي في دول العالم الثالث !

ويستطيع المشاهد أن يطلب وجبة صغيرة من مطعم أو استئجار سيارة . . الخ من الأعمال ، وقد ظهر الآن مفهوم (التبضع التلفزيونى) نتيجة لتطور هذا النوع من التقنية .

أما التقنية الجديدة الأكثر أهمية ، فهي البث بواسطة الأقمار الصناعية . فمن كان يتصور أن ما جاء في مقال آرثر كلارك البريطانى الذى ظهر في مجلة عالم الراديو سنة ١٩٤٥ ـ بينما الصواريخ الألمانية V 2 تتساقط على لندن ـ يمكن أن يتحقق ؟ فقد قال كلارك في هذا المقال :

« لو أن هذه الصواريخ تطلق أقمارا صناعية على ارتفاع محدد فى الفضاء فإن مسار طيرانهم يمكن أن يبقى على نفس البعد في كل الوقت حول الكرة الأرضية . ومثل هذه الأقمار يمكن أن ترسل إشارات راديو » .

لقد كان ذلك المقال هو الفكرة الأولى للأقمار الصناعية التى أصبحت لاتستخدم اليوم لإرسال إشارات الراديو فقط ، بل المكالمات الهاتفية أيضاً ، وكذلك الإرسال التلفزيونى ، والذى يتجاوز ببساطة الحدود الاقليمية ، فلم يعد هناك بعد الأقمار الصناعية التلفزيونية عزلة حدودية أو ثقافية .

أصبحت الأقمار الصناعية اليوم كالزنابير ، تطوف حول الأرض ، وترسل أشكالاً من الرسائل دون أن تعبأ بأى مظهر من مظاهر التغير أو سوء الأحوال الجوية . فإن كنت تحت « آثار أقدام » هذا القمر أو ذاك ولديك أجهزة الاستقبال اللازمة ، فلن تنجو من تأثيره .

الأقمار الصناعية نفسها تطورت من حيث غزارة إرسالها وصغر الأجهزة اللاقطة لإشاراتها .

فأنت لاتحتاج الى صحن كبير للاستقبال ، يربض كالجمل أمام منزلك أو على سطحه ، فقد أصبحت صحون الالتقاط هذه صغيرة ورخيصة ، وأصبح من المتوقع في بداية التسعينيات (وهى ليست بعيدة منا) ، أن تستطيع شراء جهاز استقبال تضعه فى حديقة منزلك أو على سطحه أو فى شرفته، لا يكون أكبر بكثير من طبق خزفى متوسط الحجم فى منزلك (ليس أكبر من حجم قطة صغيرة) ، وتستطيع فوق ذلك أن تغير اتجاهه من قمر صناعى الى آخر فى غاية السهولة .

لقد كانت المشكلة في استخدام البث التلفزيونى من الأقمار الصناعية الى وقت متأخر هي مشكلة التمويل ، ولكن الاعلان حل هذه المشكلة . بما أن التوجه الى الانفتاح الاقتصادى هو كما يتصور البعض الحكمة السائدة



أو التى ستسود في المستقبل القريب . . فإن السباق الاعلانى لن يتوقف ، والتلفزيون هو المكان الأفضل والأنسب الذى يعشقه الاعلان . ونحن فى المنطقة العربية لن نكون بعيداً عن هجوم (الزنابير) . . الأقمار الصناعية .

التطور التقنى الثالث هو « الفيديو كاسيت » الذى كان أهم علامة مميزة له هو انخفاض ثمنه خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة الى أكثر من ٧٥٪ ، وكذلك انخفاض ثمن أشرطته الجديدة أو المسجلة بأكثر من ذلك بكثير ، وقد تفوق (الفيديو دسك الجديد) على (الفيديو كاسيت القديم) وهذا التطور الأخير يمكنك من استخدام اسطوانة كالاسطوانات التقليدية ، لكنها تبث لك برنامجك المفضل فى سهولة ويسر أكثر من (الفيديو) التقليدى ، فأنت تستطيع أن تبدأ المشاهدة من أى مكان على هذه الاسطوانة - بدلاً من الانتظار الطويل نسبياً - فى لف الشريط التقليدى . إشكالية (الفيديو كاسيت) هذا أنك - حتى الآن - لاتستطيع أن تسجل عليه ، يمكنك فقط أن تشترى البرنامج الذى يعجبك ، أما إمكانياته الأخرى فهى رائعة ، صورة واضحة وصوت عالى النقاوة ، وسطح الدسك يعمل بالليزر فلا يتعرض للتلف . إنما أعظم إنجازات هذه التقنية هى فى مجال التدريب الصناعى والتعليم ، فأنت تستطيع أن تدير اسطوانة فيديو دسك ، عليها برامج « كيف تعتنى بسيارتك ؟ » أو « كيف تتذوق الفنون أو تتعلم اللغات ؟ » . واستخدام الفيديو دسك فى التعليم والتدريب يفتح آفاقاً جديدة .

سيتغير الجمل الى قطة في غضون سنوات قليلة.

قـــــــوة التجـــاهــــل :

بقيت قطعة تقنية جديدة لها قوة كبيرة ، هى ذلك الجهاز الصغير (الريموت كنترول) الذى هو على هيئة قطعة تحملها فى يدك وأنت أمام جهاز التلفزيون ، وتغير بها المحطات بإشارة من أصبعك . هذه القطعة أعطت المشاهدين الحرية فيما يشاهدون ، إنها أعظم جهاز يثير خوف المعلنين ، فالمشاهد إذا بدا له أن الاعلان أو حتى البرنامج الذى يعرض على الشاشة لا يعجبه ، يستطيع أن ينتقل - فى لحظة - من محطة الى أخرى . صحيح أن المشاهد كان يمكنه أن يغير القناة دون هذه القطعة السحرية ، لكنه سوف يتجشم عناء التحرك الى مكان الجهاز والقيام والعودة والجلوس من جديد . وقد يتكاسل للقيام بكل ذلك ليغير البرنامج لبضع ثوانٍ لكنه لن يهتم إذا كان يستطيع تغيير القناة بضغطة من أصبعه فقط . . !

واستخدام جهاز التحكم عن بعد أصبح شائعاً ، وهو مع (جهاز الفيديو) يمكن أن يمحو تأثير الاعلان فى البرنامج المسجل . لذلك لجأت بعض شركات الاعلان الى أن يكون لإعلاناتهم تأثيرها إذا مرت أمام عينى المشاهد بسرعة تبلغ عشرة أضعاف سرعتها العادية !

عصـــر المعـلومـاتـــ والشــركـاتـ الـدولـيـــة :

البعض يعتقد أن ثورة التقنية فى الاتصال أو الثورة التى يقودها الترفيه هى أهم من الثورة الزراعية فى القرن الثامن عشر ، وأهم من الثورة الصناعية فى القرن التاسع عشر ، إنها ثورة الاتصال التى يمكن أن تؤدى الى مكاتب من غير أوراق ، وموظفين غير ثابتين ، بل الثورة التى سوف تؤدى الى إسقاط شيء اسمه مكان العمل ، ففى الوقت الذى تستطيع فيه أن تتصل بالآخرين ، تشاهدهم وتتحدث إليهم ، وتعقد اتفاقات معهم . . فلماذا تغادر مكانك ؟

خطورة عصر المعلومات وثورة التقنية فى الاتصالات على عالمنا الثالث ، هى خطورة تفوق الحدس والتصور ، فالتقنية التلفزيونية العالية سوف تأتى فى أثرها شركات عابرة للقارات ، شركات دولية .

هناك شكوى حتى فى الدول المتقدمة من احتكار مؤسسات قليلة لما يشاهده الجمهور ويستمع إليه ويقرؤه ، فهناك فى الولايات المتحدة حوالى ٥٠ مؤسسة تسيطر على كل ما تسمعه أمريكا وتشاهده وتقرؤه ، وفى

الشركات الدولية تشكل عقول المواطنين بعيداً عن سلطات الدول !



بريطانيا حتى الآن هناك مؤسستان للتلفزيون فقط ، (حكومية ومستقلة) و ٣٥٪ من برامج تلك المحطات - فى المتوسط - امريكية .

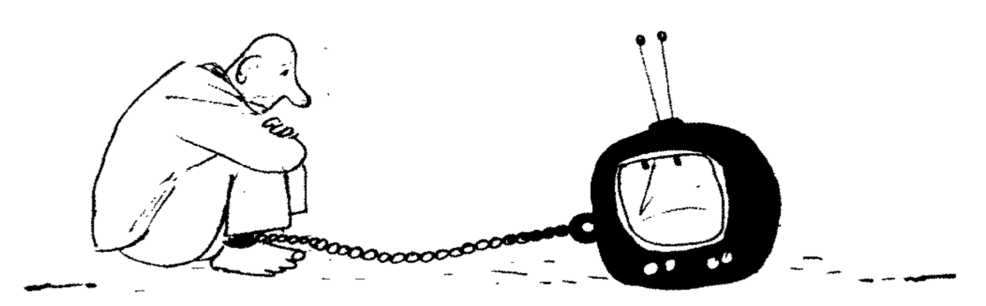
وإن كان هناك تعددية نسبية فى مجال الصحافة في الغرب فإن الاذاعة والتلفزيون معظمها محتكر ، ولم تسمح بريطانيا مثلاً بتعددية نسبية فى محطات الاذاعة إلا بعد هجوم (إذاعات القراصنة) فى السبعينيات ، التى كانت تبث برامجها ، من سفن عائمة فى المياه الدولية ، الى المستمع البريطانى .

الشركات الدولية التى يمكن أن تحتكر البث التلفزيونى العالى التكلفة سوف تعمل كى تحصل على أكبر عدد من المشاهدين حول العالم . وإذا كان الانتاج التلفزيونى المحلى - فى دول العالم الثالث ، وكذلك فى الأقطار العربية - قليلاً في الوقت الحالى ، فسوف يتضاءل أكثر عندما تسيطر على الأجواء تلك « الزنابير » من الأقمار الصناعية المملوكة للشركات الدولية ، وسوف يفتح المشاهد تلفزيونه فى كندا أو الهند ويشاهد نفس البرامج .

فى حقيقة الأمر لن يكون هناك حصانة ثقافية ، كما أن الفروق السلوكية بين الشعوب والثقافات المختلفة سوف يدمرها (البث التلفزيونى العالمى) .

فبرامج مثل (دلاس) و (داينستى) و (ملفات روكفورد) و (الفريق الأول : اى تيم) و (استعراض كوزبى) و (كوينزى) و

ثورة الاتصالات الجديدة تفتح باب عصر «الاستلاب الثقافي»



(كوجاك) و (كولومبو) من بين عشرات البرامج التى سوف تصبح مألوفة لدى أطفالنا وجيلنا الجديد . سوف تتصاعد وتيرة الاستلاب الثقافى ، وسوف تجعلنا تلك الشركات التلفزيونية الضخمة نفقد دوراً أكثر من ذلك ، محتقرين لثقافاتنا المحلية ، وذلك أسوأ شيء يمكن أن يقع .

يقول أحد الكتاب تعليقاً على ذلك : (إن الثقافة الامريكية فى القرن الواحد والعشرين ستصبح هى السائدة كما كانت ثقافة الرومان سائدة فى القرن الأول) .

ماهي الآثار المحتملة لكل ذلك ؟

يذكر عن أنديرا غاندى أنها قالت مرة : (نحن نعرف أن الله قد خلق الأرض ومن عليها ، ولكن من يحدد العناوين الرئيسية ؟) .

أى أن هناك آثاراً عميقة تترتب على صناع الاتصال ، وبتعبير آخر أن وسائل الاتصال ـ وعلى رأسها التلفزيون ـ تصبح السبب بشكل مباشر أو غير مباشر لكل تغير يحدث فى الرأى العام . تدفق المعلومات من التلفزيون الذى يشاغل معظم الحواس الانسانية ، يؤدى الى تغير تصرف الأشخاص أو تأكيده . لقد قيل فى الستينيات أن أمريكا خسرت حرب فيتنام لأن أخبار تلك الحرب وأهوالها انتقلت الى غرف الجلوس فى بيوت المواطنين الامريكيين .

ولانستطيع أن نعرف النتائج التى كان يمكن أن تصل إليها الانسانية ـ مثلاً ـ لو كانت عدسات التلفزيون ترصد الانفجار النووى على هيروشيما وناجازاكى وتسجل بالصور الملونة عذاب آلاف المدنيين لحظة الانفجار !

وفى القاهرة فى رمضان الماضى تشبعت شبكة التليفونات بالمكالمات الى درجة عطلت مصالح الناس الحيوية ، وذلك لأن التلفزيون يطلب من المستمعين الاجابة بالهاتف عن برنامج مسابقات !

عصر التلفزيون أثر حتى على الانتخابات فى أكبر دولة غربية ـ

نحن نعرف أن الله خلق الأرض ومن عليها ولكن مَن يحدد العناوين الرئيسية في وسائل الاتصال الحديثة ؟

الثقافة الأميركية في القرن الواحد والعشرين ستصبح هي السائدة كما كانت ثقافة الرومان سائدة في القرن الأول

الولايات المتحدة ـ فأصبح أهم شخصين بعد المرشحين ونائبيهما هما رجل التزيين (المكياج) الذى يعد المرشح للظهور فى التلفزيون ، و (صانع الجمل الرنانة) كاتب خطابات المرشح ، كى تترك أكبر أثر على مشاهدى التلفزيون . وقد حول التلفزيون مبدأ « حرية الكلام » الى مبدأ جديد هو « حرية التضليل » .

ألم أقل منذ البداية أن آثار هذا الصندوق العجيب غير محدودة ، ولو أردت أن أسرد آثاره بالتفصيل لربما احتجت الى كتاب .

محبوب ليس له أصدقاء :

قد يبدو كلاماً متناقضاً أن هناك محبوباً دون أصدقاء، ولكنه التلفزيون . فالسياسيون والصحفيون والمحامون والشرطة ورجال الدين والأكاديميون وبعضهم يعمل فى الصناعة التلفزيونية نجدهم غالباً متذمرين مما يعرضه التلفزيون . وإن ذلك دليل على أهمية تأثيره فى الناس من جهة ، والأهمية التى تضعها مجموعات الضغط الاجتماعية للحصول على نصيب أوفر من الحيز التلفزيونى. فالسياسيون ـ إن لم يستخدموا التلفزيون لزيادة نفوذهم ـ فنفوذ التلفزيون يقلل منه ، والاكاديميون يعتقدون أن برامج الترويح أكثر من اللازم ، ورجال الدين يعتقدون أن البرامج الدينية أقل من اللازم . . !

والشرطة يعتقدون أن مشاهد العنف فى التلفزيون هى التى تزيد من نسبة الجريمة فى المجتمع .

ولكن هذا كله يعنى أن هذا الجهاز مركب سياسي اجتماعى تقنى معقد ، ومن يتحمل على المستوى المحلى مسئولية ما يعرض أو ما لا يعرض فيه ، يتحمل النقد العلنى أو السرى أيضاً .

ولكن أليس ما طرحناه من تقنية جديدة سوف يسلب القرار من القطر لصالح شركات عالمية ، فى عصر سمته تخطى الحواجز والحدود فى ميدان الاتصال ؟

ترى ماذا أعددنا لذلك ؟ ورياح ثورة الاتصال تهب وتهدد كل المجتمعات النامية بالتغيير ؟

بوابة عصر جديد تطل علينا . .

فهل نحن مستعدون . . وكل آت قريب ؟

محمد الرميحي

الخدمة "الإسرائيلية" السرية

بقلم : أمين هويدي

من أدوات الحرب النفسية التي تستخدمها« اسرائيل » في الحرب مع العرب قوة أجهزة مخابراتها ، مع أن فشل هذه الأجهزة في العديد من العمليات قد يفوق نجاحها في بعضها الآخر ، ولكن الاخراج الذكي للعمليات الناجحة - بالإضافة إلى عوامل أخرى - أعطى هذه الأجهزة صورتها القوية . فمتى نشأت هذه الاجهزة ؟ وكيف تعمل ؟

يتميز العمل في الخدمة السرية عموما بأنه « صراع عقول متضادة » وليس « صراع قوى متضادة » ، فالقدرة على إعمال العقل والخداع والتدبير المحكم ، ثم الإقدام على التنفيذ بجسارة لا تعرف التردد مع القدرة على مرونة القرار ليتناسب مع الظروف المتغيرة ، هي أسس العمل في عالم المخابرات .

فسياسة الدول تتم على مستويين : السياسة العلنية أو المكشوفة ، والسياسة الخفية أو المستورة ، وهذه هي السياسة الحقيقية للدولة ، فما يقال شيء ، وما يتم شيء آخر ، سواء كان ذلك بين الأصدقاء أو الأعداء .

ونظرا للظروف الاستراتيجية الصعبة التي وضعت « اسرائيل » نفسها فيها ، فإنها ركزت على إنشاء جهاز استخبارات ذي كفاءة جيدة ، وسخرت له كل الإمكانيات ، وجندت له كثيرا من الكفاءات والخبرات ، ولذلك يمكن اعتباره أحد الأسلحة الاستراتيجية للدولة ، يعمل جنبا إلى جنب مع القوات الجوية والقوات البحرية وجيش الدفاع « الاسرائيلي » (زاحال) ككل .

نشأة جهاز المخابرات الإسرائيلي

وقد نشأ جهاز المخابرات « الاسرائيلي » قبل نشوء الدولة ، شأنه في ذلك شأن الأحزاب ، والجيش الذي تمثل في ذلك الوقت في عصابات متعددة ، مثل عصابة « ليهي » و « شترن » و « ليومى » و « الهاجاناه » التي كان عمودها الفقري اللواء اليهودي الذي عمل مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية .

وكان الجهاز يعمل في أول نشأته في حضن الوكالة اليهودية ، وبتمويل وتوجيه منها ، ثم بعد أن نشأت « الهاجاناه » عمل كجزء منها . وبذلك تكونت « الهاجاناه » في ذلك الوقت من « الهاجاناه »

كوحدات مقاتلة ضد العرب وقوات الانتداب ومن « البالماخ » ، والتي خصصت للقيام بالعمليات الخاصة والتخريب ثم جهاز المخابرات كالشاي والموساد . « والشاي » اختصار لكلمة شيروت ايدوت ، والموساد اختصار لكلمة « موساد ليتا فياكديم ميوشاريم » ، أي خدمة المعلومات أو خدمة المخابرات . وكان واجب المخابرات في فترة ما قبل الدولة ينحصر في :

* الحصول على معلومات عن العرب بوجه عام ، وعرب فلسطين بوجه خاص ، وكذلك قوات الانتداب البريطانية .

* تهريب اليهود من أوروبا والأقطار العربية في حركة الهجرة غير الشرعية ، وكذلك أموالهم وثرواتهم .

* تهريب السلاح إلى داخل « فلسطين » ، ووضعه في مخازن متفرقة لاستخدامه وقت الحاجة .

وقد اكتشفت أول شبكة جاسوسية يهودية فوق أرض فلسطين عام ١٩٠٧م ، وقت الحكم التركي ، وكانت الشبكة تعمل في خدمة المخابرات البريطانية ، ثم اكتشفت شبكة أخرى عام ١٩١٧ ، وكانت قد نظمت نفسها عام ١٩١٤ عند بداية الحرب العالمية الأولى ، تحت رئاسة « هارون اهرونسون » وابنته الجميلة « سارة » في مستعمرة زخارون يعقوب وعتليت لجمع معلومات عن القوات التركية والالمانية لصالح القوات البريطانية ، وكانت إحدى وسائل نقل المعلومات اقتراب الغواصات البريطانية بالقرب من السواحل الفلسطينية ، لنقلها بعد ذلك إلى الاسكندرية والقاهرة حيث يوجد مركز القوات البريطانية . وكان من أهم ما حققته هذه الشبكة سرقة أسرار صناعة غاز الخردل ، وبعض الأسلحة الالمانية وإعطائها للبريطانيين .

ومن أهم الشخصيات التي عملت في أجهزة المخابرات « الاسرائيلية » « ريفين شيلوه » و « تيدي كوليك » رئيس بلدية القدس الحالي تحت ستار عمله مدير مكتب رئيس الوزراء ، و « ابا ايبان » تحت ستار عمله نائبا لرئيس الوزراء . ومما يذكر فإن ايبان كان من أشهر رجال الجاسوسية البريطانية (M16) ، وكذلك بنيامين جبيلي ، ويهوشفاط هاركابي ، وحاييم هرتزوج ، ومائير عميت ، واهارون ياريف .

تنظيم جهاز الخدمة السرية « الاسرائيلية »

هناك تضارب في تفاصيل تنظيم أجهزة الخدمة السرية « الاسرائيلية » في أغلب المراجع التي تتحدث عن هذا الموضوع ، مما يجعل من الصعب الوصول بدقة إلى تفاصيل تنظيم هذه الأجهزة ، ويرجع ذلك إلى رغبة « اسرائيل » في إضفاء السرية على أجهزة مخابراتها من جانب ، وإلى الطبيعة النفسية للشعب « الاسرائيلي » من جانب آخر ، إذ يميل في حياته إلى أن يعيش حائرا بين الشك واليقين ، وبذلك فهو يوقع المتعاملين معه في حيرة مماثلة . ولنأخذ مثلا مشكلة الحدود ، فقد رأى بن غوريون عند إنشاء الدولة أن لا تحدد لها حدود كباقي الدول ، حتى يترك للغير تحديد حدود « اسرائيل » بأبعد نقطة يمكن لجيش « الدفاع » الاسرائيلي أن يصل إليها ويثبت أقدامه فيها . ويدور الآن خلاف عن طبيعة هذه الحدود ، وكيف تتداخل الحدود السياسية في الحدود الآمنة ؟ وهل تكون الحدود داخل الخط الأخضر أم تندفع شرقا لتشمل (الضفة الغربية وغزة) (يهودا والسامرة) والضفة الشمالية ، أي جنوب لبنان ؟! .

ومن هو اليهودي ؟ هل هو المولود لأبوين يهوديين أم من أم يهودية ؟ والخلاف على الأعياد اليهودية . . ؟ وهل « اسرائيل » دولة نووية أم هي دولة غير نووية ؟! وغير هذا كثير . . !!

وعلى أي حال فلتبسيط الموضوع فإن أي نشاط مخابرات يشمل المجالات الآتية :

مجال الحصول على معلومات من الأعداء والأصدقاء وعنهم على حد سواء .

مجال الحيلولة دون حصول الغير على معلومات .

مجال حماية أفراد الدولة ومنشآتها والعمل ضد الجواسيس .

مجال العمليات الخاصة أو الأعمال القذرة للمخابرات .

تنظيم عام الخدمة « الاسرائيلية » السرية

رئيس الوزراء

مجلس أمن الدولة (فاعادات) فاعادات راشيل هاشيروتيم

رئيس الموساد (الرئيس) + مدير المخابرات العسكرية + مدير الشين بيت + المفتش العام للبوليس + رئيس أركان الجيش « زحال » + مدير البحوث بوزارة الخارجية + مستشار رئيس الوزراء

الموساد

عملها في المجال الخارجي ـ الحصول على معلومات وبناء شبكة الجاسوسية ـ القيام بأعمال خاصة ، أي الأعمال القذرة ـ الحرب النفسية .

المخابرات العسكرية أمان

تتبع وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش (زحال) ـ أمن القوات المسلحة ومنشآتها ـ الحصول على معلومات عسكرية ـ عمل تقديرات عسكرية للموقف ـ الملحقون العسكريون ـ لها جريدتها الخاصة ـ تتعامل مع المراسلين الأجانب ـ فرض الرقابة .

هيئة خدمات الأمن (شين بت)

حماية المسئولين والمنشآت ـ العمل ضد الجواسيس ـ جمع المعلومات من أجهزة المخابرات الشخصية ـ أعمال التخريب والارهاب .

أبحاث الخارجية

تتبع وزير الخارجية ـ جمع المعلومات من السفارات والقنصليات والمكاتب الفنية .

جهات أخرى

وزارة الداخلية ـ الجمارك ـ مكاتب السياحة ـ شركات الطيران والملاحة والمعارض والمكاتب التجارية .

شكل (١)

الشكل رقم (١) يوضح التنظيم العام للخدمة « الاسرائيلية » السرية ، وهناك عدة ملاحظات تفصيلية عن هذا التنظيم :

* لتعدد الأجهزة التي تعمل في مجال المخابرات ، شكل مجلس أمن الدولة من رؤساء هذه الأجهزة ومستشاري رئيس الوزراء لأعمال الاستخبارات ، ويسمى هذا المجلس « فاعادات » ، والكلمة اختصار للاسم الحقيقي وهو « فاعادات راشيل هاشيروتيم » ، ويرأس هذا المجلس رئيس الموساد وسمي حينئذ « مومنيه »، وهو يتبع رئيس الوزراء .

* المخابرات العسكرية « أمان » مسئولة عن القطاع الحربي في الداخل والخارج ، وهناك تنافس بين كل من رئيس « الموساد » و « أمان » ، وقد ارتفع قدر جهاز « أمان » بعد حرب ١٩٦٧ ، وأصبحت تقديراته تجد اهتماما خاصا من المسئولين ، إلا أنه أصيب بضربة حقيقية في حرب ١٩٧٣ ، إذ أنه ـ على الرغم من كل الشواهد المعاكسة ـ كان يصر إلى آخر لحظة بأن العرب لن يعلنوا حربا ضد « اسرائيل » ، بينما كانت « الموساد » تؤكد أن الحرب قائمة . وقد أفاضت « لجنة أجرانات » ـ المشكَّلة للتحقيق في أسباب عدم استعداد الجيش « زاحال » في الساعات الأولى من قيام حرب رمضان ـ في هذا الموضوع .

ومن الملاحظ أن الملحقين العسكريين الذين يعملون في واشنطن أو لندن يعينون في مراكز كبرى ، إما في الخدمة السرية أو في الجيش « الاسرائيلي » .

* الموساد تعمل في المجال الخارجي ، وهي التي تقابل المخابرات المركزية الأمريكية أو البريطانية ، وهي التي تقوم بالأعمال القذرة ، مثل القتل والخطف والعمليات الإيجابية الأخرى ، كما تقوم بإنشاء شبكات التجسس في كل أنحاء العالم . والشكل رقم (٢) يوضح تنظيما تفصيليا لجهاز الموساد ، نقلا عن وثائق أخذت أثناء احتلال السفارة الأمريكية في طهران في ١٤/ ١١/ ١٩٧٩ ، وقام بتهريبها صحفيون ثلاثة هم « راندى جودمان » و « تيري تايلور » و « ويليام دوري » إلى جريدة « واشنطن بوست » التي نشرتها على حلقات عام ١٩٨٢ على مدى أسبوع كامل .

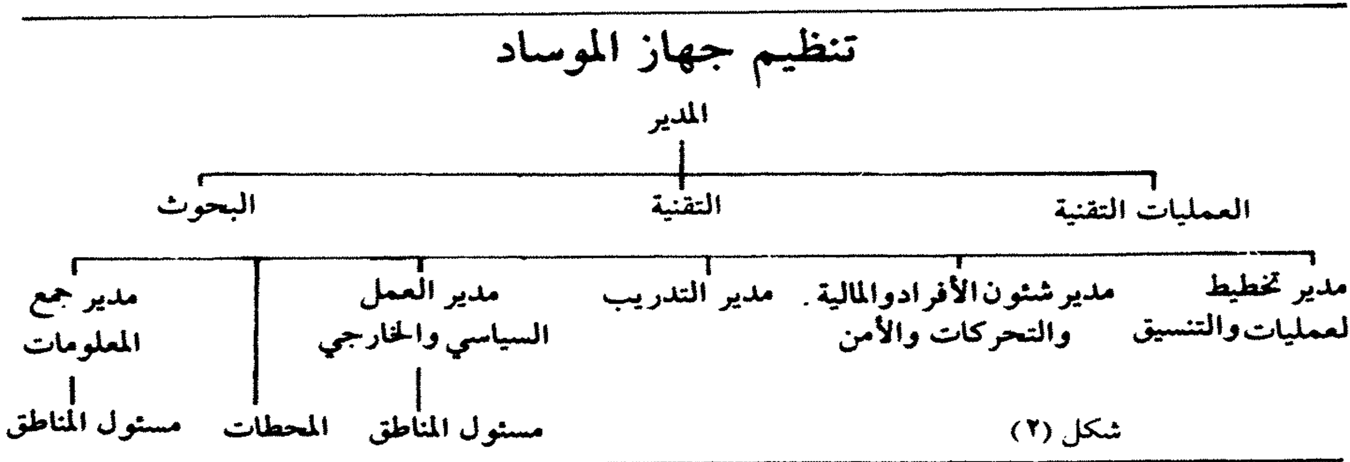
* هيئة خدمات الامن أو « شين بت » ، عملها في الداخل لحماية المسؤولين والمنشآت ، مثل المطارات والموانيء والمصانع الاستراتيجية ومصادر الطاقة ، كما تقوم بمقاومة الإرهاب وأعمال التخريب عن طريق ثلاثة أفرع : الفرع العربي ، وفرع أوروبا الشرقية ، وفرع ضد الإرهاب ، واسمه « ريشود » ، وكذلك فمن أهم واجباتها الرئيسية مقاومة التجسس عن طريق جهاز « شاباك » وهو اختصار لكلمة « Sheruth Bitachou! Klali » ، والشين بت عموما تقابل جهاز (FBI) الأمريكي أو جهاز (M15) البريطاني .

وفي وزارة الخارجية « الاسرائيلية » يوجد قسم أبحاث الخارجية ، وهو يقوم أساسا بإجراء التحليلات السياسية على أساس المعلومات التي يتلقاها من كل أجهزة المخابرات ، ويعتمد أساسا في الحصول على معلومات من تقارير السفارات « الاسرائيلية » ، والقنصليات ، والمكاتب الفنية في الخارج ، ومن السفارات الأجنبية في « اسرائيل » .

كيف يعمل جهاز المخابرات . . ؟

هناك عاملان مهمان يسهلان عمل أجهزة الاستخبارات « الاسرائيلية » في مجال المعلومات والتجنيد :

أ ـ العامل الأول هو انتشار اليهودية في كل بلدان العالم ، ويهود الكتلة الشرقية لهم أهمية خاصة في هذا المجال ، إذ يمكن عن طريقهم قيام « الموساد » بإمداد الدول الغربية بمعلومات تفصيلية عما يجري في تلك الدول ، ولكن من جانب آخر فإن إدارة مكافحة الجاسوسية « الشاباك » تضع في اعتبارها أنه يمكن لهؤلاء اليهود القادمين من دول الكتلة الشرقية التجسس على « اسرائيل » ، ولذلك فهناك فرع لمراقبة يهود الكتلة الشرقية ، لمحاولة تحطيم أي شبكات تجسس يمكن تصديرها إليها بين وقت وآخر .



شكل (٢)

المصدر : ترجمة مجدي ناصيف من الوثائق السرية للمخابرات المركزية الأمريكية ـ المخابرات الاسرائيلية ـ دار المروج للطباعة والتوزيع والنشر بيروت ـ ١٩٨٥

ب ـ العامل الثاني هو التعاون المتبادل مع مخابرات الكتلة الغربية بوجه عام ، والمخابرات المركزية بوجه خاص ، في مجال الحصول على معلومات ، أو بالعمليات المشتركة ، فهي تحصل من الولايات المتحدة على معلومات عن طريق طائرات الاستطلاع والأقمار الصناعية للتجسس والتنصت والاستطلاع الالكتروني والتسمع على الترددات العربية ، وهي بالتالي تمد الولايات المتحدة بمعلومات عن دول الكتلة الشرقية ، وعن الأقطار العربية ، خاصة تلك التي تستورد سلاحها من الكتلة الشرقية . وفي هذا المجال تدعي « اسرائيل » أنها توفر للولايات المتحدة بلايين الدولارات من ميزانية الأبحاث والتطوير عن طريق إمدادها بنماذج من الأسلحة الشرقية لفحصها ، مثل إمداد الولايات المتحدة بنموذج كامل لطائرات ميج[٢١] التي طار بها الطيار العراقي « منيرروفا » في عملية ناجحة للموساد بعد التأثير عليه بواسطة إحدى الجاسوسات ، ومثل إمداد الولايات المتحدة بالرادار الذي استولت علية القوات « الاسرائيلية » من موقعه في « جبل عتاقة » غرب قناة السويس أثناء حرب الاستنزاف ، علاوة على الدبابات والصواريخ والهاونات وغيرها من الأسلحة التي تستولى عليها في حروبها مع العرب .

وتعمل أجهزة الخدمة السرية عن طريق ما يسمى « الواجهات » لتتستر خلفها لممارسة نشاطها ، مثل السفارات والقنصليات والشركات والمكاتب التجارية ومكاتب السياحة والطيران والملاحة ، ومن أمثلة هذه الواجهات :

شركة سوليل بونيه للمقاولات ، وشركة زيم للملاحة ، وشركة العال للطيران ، وشركة انكودا للمواد الزراعية والحيوانية ، وشركة زيفيت للاستثمارات الهندسية ، وشركة يوهافيث لصيد الأسماك ، وشركة شن أفيون للتجارة في المواد الاستهلاكية ، وشركة ديزنجوف للتصدير والاستيراد ، وشركة فيدرمان للمقاولات . . إلخ .

والموساد ـ ومجال عملها بالخارج كما ذكرنا ـ تحاول إنشاء مكاتب واجهات مختلفة في أكبر عدد من البلدان ، للحصول على المعلومات التي تريدها ، وهي تسعى لتجنيد عملائها في البلاد المختلفة ، تبعا لأسبقيتها ، عن طريق أن يكون العميل من نفس البلد الذي سينشط فيه ، أو عن طريق طرف ثالث.

مراحل التجنيد

وتمر عملية التجنيد بأربعة مراحل :

١ ـ مرحلة الفرز والاختيار : والغرض من هذه العملية انتقاء المرشحين كعملاء ، بناء على ما يراه المتخصصون في هذه العملية ، ويسمون « الفرازون » ، وواجبهم الاحتكاك بالأماكن العامة كالنوادي والمطاعم والملاهي ، لمراقبة الموجودين من الرجال والنساء . ويمكن أن تقوم « واجهاتهم » في البلاد المختلفة بهذا العمل مباشرة أو عن طريق طرف ثالث .

٢ ـ مرحلة الاقتراب وتنمية العلاقات وبناء الدوافع : إذا أثبتت المراقبة الدقيقة « للفريسة » أنه صالح للقيام بالواجب يتم الاقتراب منه بواسطة آخرين متفرغين لهذا العمل ، وتحتاج مرحلة الاقتراب وتنمية العلاقات إلى صبر وجسارة لإجراء مزيد من التعارف ، والوقوف على نواحي الضعف التي يمكن استغلالها ، وتنمية الدافع حسب التعامل ، وقد يكون الدافع مثلا الاشتراك في عقيدة معنية ، كمكافحة الشيوعيين ، أو العمل من أجل حقوق الإنسان ، أو الميل للخمر والنساء ، أو لعب الميسر ، أو الحاجة إلى المال . وقد يكتشف العميل أنه يعمل في إحدى الشبكات « الاسرائيلية » للتجسس بعد فوات الأوان ، وبعد التورط بطريقة تجعل طريق العودة محاطا بالمخاطرة .

٣ ـ مرحلة تدريب العميل : بعد السيطرة الكاملة على العميل ـ حتى ولو كانت سيطرة ناعمة غير محسوسة ـ ينال قسطاً من التدريب على كيفية الاتصال مع الآخرين ، واستخدام اللاسلكي و « الشيفرة » والكتابة بالحبر السري . . إلخ ، وبعد أن يصبح على درجة يمكن أن يعتمد عليه فيها يقوم بزيارة البلد

الذي سيعمل فيه أكثر من مرة ، زيارات سياحية ، وعلى فترات .

٤ ـ مرحلة التشغيل : يبدأ العميل في العمل بتوجيه من المركز الذي سيخصص لذلك ، وأصعب إجراء في هذه المرحلة هو التمويل والاتصال .

الأعمال القذرة

أما عن العمليات الإيجابية التي تقوم بها « الموساد » مما يدخل في الأعمال القذرة من أعمال الاستخبارات مثل القتل والإرهاب والاختطاف والتدبير فإنها تعتمد على الآتي : ـ

١ ـ معلومات تفصيلية عن مسرح العملية ، والأشخاص ، وعاداتهم ، والمنشآت وحالتها . ومن المعتاد القيام بالعملية ضد الأغراض المكشوفة ، مثل الأشخاص المهمين الذين لا يهتمون بتأمين أنفسهم (مثل حادث مقتل خليل الوزير في تونس) ، أو المنشآت غير المدافع عنها ، مثل المفاعل الذرى « الأوزاريك » في بغداد ، أو سرقة الوثائق غير المؤمنة .

٢ ـ التخطيط الجيد مع مراعاة التفصيلات غير المتوقعة ، مع ترك الحرية لقائد العملية في التعديلات التي يقتضيها الموقف . ويمكن الاستعانة بالخرائط ذات المقياس الكبير ، والنماذج المجسمة لمسرح العملية ، حتى يعرف القائمون بالتنفيذ واجباتهم بالتفصيل .

٣ ـ التنفيذ ويشترط أن يتم بواسطة أقل عدد من الأفراد ، وفي سرعة خاطفة ، مع تجنب الاشتباك بقدر الإمكان . وعادة ما يحتفظون بخطط جاهزة ضد أغراض مختلفة « تحت القفل والمفتاح » لتنفيذها بسرعة عند الحاجة .

وعلينا أن نلاحظ أنه إن كانت أجهزة الخدمة السرية « الاسرائيلية » قد حققت بعض الأعمال الناجحة فإن هذا لا يرجع فقط إلى مستواها الجيد ، لكن يرجع إلى تهاون وتواكل الاجهزة التي تواجهها أيضا .

ثم علينا أن نلاحظ أن هذه الأجهزة قد عجزت في كثير من الأحيان عن تحقيق واجباتها ، مما عرض « اسرائيل » لمواقف صعبة كانت ، تودي بها ، فقد عجزت هذه الأجهزة عن توقع الهجوم العربي في حرب رمضان ، مما جعل مستقبل « اسرائيل » كله في كفة الميزان في الأيام الأولى من الحرب ، كما أخفقت في معرفة « النار المتأججة تحت الرماد » قبل انفجار الانتفاضة ، وهو ما نسميه ـ إن أردنا الدقة ـ الحرب السابعة ، ثم أخفقت هذه الأجهزة أيضا في مواجهة كثير من العمليات الإيجابية الناجحة التي قامت بها أجهزة الاستخبارات العربية في كثير من المجالات . □

---

* كن هادئا تعمر طويلا ، فالغضب جنون مؤقت ، تحكم فيه قبل أن يستبد هو بك ! .

(يل كارينجى)

* لكى تتجنب النقد لا تفعل شيئا ، ولا تقل شيئا ، ولا تكن شيئا .

(البرت هابارد)

* جنب كرامتك اللئام ، فإنك ان أحسنت اليهم لم يشكروا ، وإن نزلت بهم شدة لم يصبروا .

(الثعالبي)

* الوطن قبل الروح لأنه مقر راحتك .

(مثل حبشي)

الوقت والطائر الفلسطيني

شعر : محمد محمد السنباطي*

(إلى روح الشهيد صاحب الطائرة الشراعية)

الوقتُ ليس للعيونِ الذابلةِ ،
وليس للقدودِ الناحلةِ ،
يقالُ إن - في السنين القاحلةِ -
سواعدَ الرجالِ
تكونُ للنضالِ

***

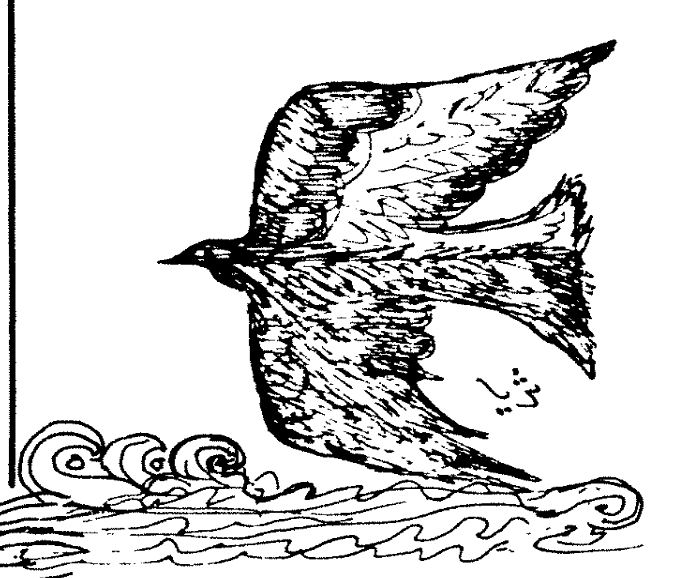
يا سيدي الوطن
لو كنت في الكفنِ
وصحتَ بي : « تعالْ »
هَبَبْتُ من تَوِّي
خَرَجْتُ من قَبْوِي وليداً
وَيَداك القَابِلَة !!

***

مِنْ لؤلؤٍ مدامعُ الصفصافِ
مِن عزةٍ مواجعُ الضِّفَافِ
يقال - دائما يقال - إنَّ مَنْ يخافُ
يسيرُ - ليس في الأطراف إنما -
في بؤرةِ القافلةِ !

***

ويطلقُ الرصاصَ في الجموعِ
ليحصدَ السيقانَ
والقنابلَ المسيلةِ الدموعَ
والدخانَ .
لا تبتئسْ يا صورةَ الإنسانِ
ليستْ إصابتي بالقاتلةَ



* شاعر من القطر العربي المصري

وطائرٍ مِنَ الشمالِ حَطَّ حاملاً مَعَاوِلَه
لم يرصدِ الذئابُ خَطَّ سيرِهِ
ألْقَى مَشَاعِلَه
أصاب نصف « دستةٍ » بالموتِ ،
ثم ذابَ في رصاصةٍ ليست مماثلةً

***

الوقتُ ليس للدموعِ الهاطلةِ ،
وليس للأماني المجاملةِ .
يقال إن - في السنين القاحلةِ -
خيرَ الحقول من يعطي سَنَابِلَه .





لماذا نكتب؟

بقلم : الدكتور حامد طاهر*

الكتابة مهنة ، وهذا لايتناقض أيضا مع أنها فن ، ويخطيء من لا يتصورها على هذا النحو ، لأنه ـ من ناحية ـ يتجاهل الوسائل الضرورية التي تجعل منه كاتبا جيدا ، لأن أي مهنة تحتاج إلى أدوات وتدريب ومحاكاة وتطوير وإبداع . ومن ناحية أخرى فإنه غالبا ما يضيع وقت القراء فيما لا طائل منه ، خاصة عندما يفتقد الهدف الذي يسعى إليه .

كون الكتابة مهنة يتضمن سؤالا أوليا ، وينبغي أن يطرحه على نفسه كل من يمسك بالقلم ، ويتصدى لنشر ما يكتبه على الناس ،وهو : لماذا أكتب ؟

من المعروف أن الاجابة عن هذا السؤال الذي ربما يبدو بسيطا تختلف من كاتب إلى آخر ، بل ربما تختلف لدى الكاتب الواحد في زمانين مختلفين ، لكنها على الرغم من اختلافها وتنوعها تؤكد حقيقة أساسية هي أن مهنة الكتابة تصدر ـ دائما ـ عن دافع معين ، كما أنها تهدف إلى غاية محددة ، وكلا الأمرين يعطيان لها قيمتها السامية ، ويضفيان عليها الطابع الانساني الشامل .

أغراض التأليف

من الرائع أن أسلافنا من الكتاب المسلمين قد حددوا على المستوى الفني لعملية التأليف نفسها سبعة أغراض لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها حسب تعبير حاجي خليفة صاحب الكتاب الشهير « كشف الظنون » وهذه السبعة هي :

ـ اختراع جديد ، وإتمام ناقص ، وشرح غامض ، واختصار طويل ، وجمع متفرق ، وترتيب مختلط ، تصحيح خطأ .

ومن المؤسف أن نقرر أن «مجموعة » هذه الأغراض السبعة قد اختفت أو اختلطت في ثقافتنا

* أستاذ الفلسفة الاسلامية المساعد في جامعة القاهرة والمعار حاليا لجامعة قطر .

العربية المعاصرة ، ولاشك في أن أحد أسباب الضمور الذي تعاني منه هذه الثقافة إنما يرجع إلى « غياب » الغرض المحدد لعملية التأليف نفسها .

ولكي نستعيد هذا الغرض الغائب لن نلجأ ـ هنا ـ إلى طريقة حاجي خليفة ، لأنها طريقة قياسية ، تعتمد على وضع قوانين عامة ، ثم تسعى لتطبيقها على الواقع ، وإنما نختار الطريقة الاستقرائية التي تقوم على تتبع أغراض المؤلفين المعاصرين ، سعيا إلى استخلاص مثل هذه القوانين .

لكن تنفيذ هذه الطريقة الاستقرائية لا يتيسر لباحث ، مهما كانت قدراته ومدى اتساع اتصاله بالمؤلفين ، إنما يتطلب مؤسسة ثقافية ، أو على الأقل « مجلة ثقافية » ، ذات انتشار واسع في الوطن العربي ، يجرى فيها طرح السؤال « لماذا أكتب ؟ » على كل المؤلفين العرب ، سواء كانوا مبدعين أو دارسين ، على أن يتم إرسال الاجابات (مختصرة ، دقيقة ، واضحة) خلال وقت محدد .

ثم تجرى بعد ذلك عملية فحص هذه الاجابات ، وتصنيفها في قوائم متميزة ، بحيث يضم كل صنف منها إلى مثيله ، ويظل المفرد وحده ، تمهيدا لنشرها على القراء .

وأنا على ثقة من أن محصلة الاجابات عن ذلك السؤال البسيط ، أو الذي يبدو كذلك ، ستكون لحظة مهمة في حياتنا الثقافية كلها ، لأنها سوف تحدد لنا الأساس أو الأسس التي يدور حولها الانتاج الفكري لكتابنا ومثقفينا .

لعلّ من يسأل . .

ما الداعي لهذا العمل حاليا بالنسبة للكتاب العرب على الأخص ؟ ونجيب بأننا نعيش مرحلة حرجة ، من مراحل تطورنا كأمة لها كيان متميز .

وقد تعرضنا خلال فترة طويلة لضروب من التبعية لمستعمر أجنبي ، وما كاد هذا المستعمر يرحل عن بلادنا حتى أصبحت لنا رؤانا المستقلة ، ووجهات نظرنا الخاصة للأمور . ولما كان الوضع الثقافي هو المرآة التي تعكس أفكار المجتمع وانفعالاته فقد راحت تصطرع فيه أفكارنا . وآراؤنا ووجهات نظرنا ، بالاضافة إلى آمالنا لبناء مستقبل أفضل . وإعادة صياغة الحاضر على أسس جديدة .

ومما لا شك فيه أن الأصوات كثيرة ، ووجهات النظر بعضها متقارب ، وأكثرها متباعد إلى حد التناقض ، وقد لا يكون هذا شراً كله ، لأن الشر الحقيقي إنما يكمن في اختلاط الأصوات ، واضطرابها ، إلى الحد الذي يكاد ينعدم فيه التمييز الواضح بينها . وهذا ما نشاهده على الساحة الثقافية في الوقت الحاضر .

ولنأخذ مثالا :

« الطريق إلى النهضة العربية والاسلامية الذي يؤدي بنا إلى القرن الواحد والعشرين : »

هناك من يتبنى الفكر الغربي ، ويعتبره الطريق الأمثل وربما الوحيد للنهضة ، وهناك من يؤمن بأن الحل الاسلامي هو المنقذ الوحيد لجميع مشكلاتنا الراهنة ، وهناك من يحاول المزج بين هذين الطرفين ، دون أن يكون قد نجح حتى الآن في بيان ما يقصده من ذلك ، وهناك من يرى في الفكر الاشتراكي السبيل إلى إصلاح الخلل ، وضمان مستقبل أفضل ، وهناك من يساير الواقع كما هو ، دون أن يتبنى موقفا من المواقف السابقة ، ومع ذلك فإن هذا في حد ذاته موقف

وقد استخلصت هذه « الاتجاهات » الأساسية حول هذه القضية المهمة من معظم الانتاج الفكري الذي دار حولها ، والذي تابعته عن قرب في الآونة الأخيرة .

فإذا جئنا إلى الأشخاص وجدنا ما يلي :

هناك بعض المفكرين العرب يعلنون عن مواقفهم بصراحة كاملة ، وبوضوح لا يترك بعده موضعا للبلبلة

لكن هناك آخرين يقفون في معسكر ، وينادون بشعارات معسكر آخر ، مما يثير الشك في قيمة ما يعلنون .

وأخيرا هناك الكتاب الذين لا يفصحون تماما عما

يريدون ، إما خوفا على أنفسهم ، أو على مكاسبهم .

ويوجد بين هؤلاء جميعا الهادفون والمتحمسون ، الصادقون والمنتفعون ، والنتيجة أن القاريء العربي المعاصر يعيش عصرا ثقافيا مختلط المعالم ، وهذا على عكس ما يحدث عادة في الثقافات الأجنبية ، حيث الأمور بصفة عامة أكثر وضوحا ، والحدود الفاصلة بين الألوان أكثر تميزا .

نموذج من الثقافة الفرنسية

ومن أجل الوصول إلى تحديد الأهداف الأساسية في المجال الثقافي والأدبي قام الباحث شارل بريان في كتاب له بالفرنسية عنوانه « مهنة الكاتب » باستقراء إجابات كبار الكتاب الفرنسيين عن سؤال « لماذا أكتب ؟ »

ولم يكن من الضروري توجيه السؤال على النحو الذي نقترحه نحن في هذا المقال ، وإنما اكتفى هذا الباحث الجيد باستقصاء تلك الاجابات من مؤلفات أصحابها ، القدامى والمحدثين .

ومن المعروف أن معظم المؤلفين يشير إلى الدافع وراء كتابته بسرعة أحيانا ، وبتفصيل أكثر في أحيان أخرى ، في ثنايا عرضه لموضوع معين ، أو في مقدمة كتاب ، أو حتى في خطاب خاص إلى صديق ، وهذا ما أتاح للباحث الفرنسي أن يجمع حشدا هائلا من الاجابات عن سؤاله .

والجدير بالذكر أن هذه الاجابات تكاد تغطي الثقافة الفرنسية كلها ، وبخاصة في مجال الأدب ، منذ مولدها حتى العصر الحديث .

لهذا وجدت من المفيد أن أترجم بعض مختارات ، ذات دلالة معينة ، من هذه الاجابات ، على أن أقتصر على المشاهير ، دون أن أحصرهم بطبيعة الحال .

ويلاحظ أننا سوف نتجول في رحلة مفيدة ، مليئة بالمتنوعات والمتناقضات معا ، لكن الغرض الأساسي ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا ، وهو أننا نسعى إلى تحديد دوافع الكتاب ، أو بتعبير آخر : مواقفهم من مهنة الكتابة الجليلة التي يمارسونها ويتصدون بها إلى القيادة الفكرية لأممهم .

يقول « مونتاني » الذي أيقظ الفكر الفرنسي كله :

« إنني أكتب لأعرف نفسي » .

ويقول في موضع آخر :

لأرسم نفسي بنفسي ! .

أما « بوالو » صاحب الكتاب الشهير « فن الشعر » فيصرح بأنه إنما يكتب من أجل المجد :

« اعمل من أجل المجد ، ولا تجعل الكسب الأحق قط موضوعا لاهتمامك ، فالجريمة أن يتحول العقل النبيل إلى الاستفادة من عمله »

لكن بوالو يعود فينصح الكاتب قائلا :

« لا تقدم للقاريء سوى ما يمتعه » .

وإلى هذا الهدف أيضا نجد « لافونتين » صاحب « خرافات الحيوان » الشهيرة يشير وكأنما يشكو من الأوضاع السائدة في عصره :

« في فرنسا لا يقدرون سوى ما يمتع ، وهذه هي القاعدة الكبرى ، وهي تقريبا الوحيدة ! » .

ومن الطبيعي أن يتفق « موليير » الكاتب الساخر مع هذا الهدف ، فهو يقول :

« إن قاعدة القواعد كلها هي الامتاع »

أما « راسين » كاتب المآسي الكلاسيكية فإنه ينوع الهدف من الكتابة ، حين يجعل :

« القاعدة الأساسية هي الامتاع أو التأثير »

ويصرح « فولتير » ملهم الثورة الفرنسية بأن :

« الكتاب المعقول هو الذي يعلم شيئا »

ومع ذلك فإنه لا يحصر هدف الكاتب كله في التعليم :

« فما أشقى الكاتب الذي يريد أن يعلم دائما ! ، إن فن الاملال ينحصر في قول كل شيء »

ويتمثل الهدف عند « مدام دي ستايل » في تسجيل التجربة الانسانية لدى جيل ما ، من أجل خدمة الأجيال اللاحقة ، تقول :

« إن المسافر الذي تلقيه العاصفة فوق شاطيء غير مأهول يسجل على الصخور أسماء الأطعمة التي

اكتشفها ، ويشير إلى المصادر التي استخدمها ضد الموت ، لكي تكون هذه العلاقات مفيدة ذات يوم لمن يتعرضون لنفس مصيره ، وكذلك نحن الذين أتينا بالمصادفة في عصر ثورة ، ندين للأجيال القادمة بالمعرفة العميقة لاسرار النفس البشرية والمسالك غير المتوقعة التي تستخدمها الطبيعة المحافظة لتساعدنا بواسطتها على الوجود »

أسئلة حائرة

ويفضل الشاعر ، « دي فيني » عدة أهداف للكتابة ، في مذكرات شاعر حين يقول :

« أنا لا أعرف لماذا أكتب ؟ هل للمجد بعد الموت ؟ لا يبدو هذا هدفا محتملا ، أم هل للمجد في الحياة الدنيا ؟ وهذا ليس أكثر احتمالا ، أم للمال ؟ إن المؤلفات مهما تكاثرت فلن أعود منها بطائل ، لكنني أحس بالحاجة لكي أقول للمجتمع أفكارا توجد في داخلي ، وتريد أن تخرج » .

ويعتبر « ستاندال » النجاح في مهنة الكتابة نوعا من لعبة الحظ التي قد تأتي بكل شيء ، كما أنها قد لا تأتي بأي شيء !

يقول بصدد الحديث عن كتابه الشهير « الأحمر والأسود » : « وهكذا بعد سنوات دفعتني عبارات شاتوبريان وسالفان الغزيرة والأنيقة إلى كتابة « الأحمر والأسود » بأسلوب ممزق ، وكانت حماقة كبرى ،لأنه بعد عشرين عاما من الذي كان يفكر في هذا التقليد المشوّه لهذين السيدين ؟ أما أنا فقد سحبت ورقة « اليانصيب » ، وكانت جائزتي الكبرى هي أنني أصبحت مؤلفاتي مقروءة في عام ١٩٣٥ م » .

ومقابل « ضربة الحظ العشوائية » نجد « بلزاك » يصرح بأن مهمة الكاتب تنحصر في البحث الواعي الدءوب عما أغفله مؤرخو الحضارات القديمة ، في مصر وفارس وبلاد اليونان وروما من تفصيلات ذات دلالة أخلاقية عميقة .

وهكذا ينحصر هدف الكاتب في أن يستخرج تلك الأخلاقيات المختبئة في التاريخ ، ثم يلقي عليها الضوء لأبناء جيله ، عن طريق وضعها في إطار قصصي أو روائي جذاب .

ومع ذلك فان بلزاك يرفع شعار « الفن للفن » بكل صراحة عندما يقول :

« ينبغي على كل إنسان موهوب بعمله ، أو مفطور على الابداع ألا ينسى أبدا أن ينمي الفن من أجل الفن نفسه ، ولا يطلب مسرات أخرى ، سوى ما يعطيه الفن عينه ، ولا كنوزا أخرى إلا ما يكشف عنها الفن نفسه في محرابي الصمت والوحدة .

وأخيرا على الفنان الكبير أن يطرح تفوقه عندما يدخل إلى هذا العالم ، ولا يتولى بنفسه مهمة الدفاع ، لأنه بالاضافة إلى الزمن المسيطر يوجد فوقنا جميعا ما هو أقوى .

ويختلف « اناتول فرانس » مع رأي بلزاك السابق ، فهو يرى أن الكتابة نوع من المشاركة الحقيقية في الحياة الاجتماعية والسياسية ، إن لم تكن بديلا عنها ، فهو يرى أنه يكتب ليعمل ويؤثر ويصبح فعالا في البيئة المحيطة به . يقول عن أحد أبطاله (الصحفيين) :

« كان وايز يشعر دائما أنه رئيس دولة ، وأنه خلق ليحكم شعبا ، وأنا لا أقول عنه ذلك لألومه ، بل على العكس ، إنني أعتقد أن مثل هذا الشعور ضروري لأن يكتب الانسان كما ينبغي ، وأن أي صحفي يفتقده فإنما يفتقد عِرّق الكاتب ، وليست الصفحة المكتوبة جيدا إلا فعلا جيد التنفيذ .

ومع التدقيق العميق في مهنة الآداب نجد أن الذين نجحوا فيها إنما هم أولئك الذين مارسوها بحماسة واندفاع ، وعدم قدرة على الدخول في العمل السياسي والاستمرار فيه . انظر إلى ريتز ، وسان سيمون ، وشاتوبريان . وقد أصبحت لدينا الآن عادة جيدة ، وهي عندما يموت كاتب نمتدحه بأنه لم يكن سوى كاتب ، تماما كما نمتدح شخصا مقطوع الذراع بأنه ليس لديه الا ذراع واحدة ! »

أسباب معقولة لكتابة الشعر

وفيما يتعلق بكتابة الشعر ، يذكر « ليون بول فارج » ثلاثة أسباب ، تبدو في نظرنا كلها معقولة ،

حين يقول :

« إننا نكتب الشعر ، لأننا نحتاج إلى تحقيق النظام في فوضى المشاعر ، ولأن لدينا أذنا موسيقية ، ولأننا نجيد اللغة الفرنسية » .

أما « أندريه جيد » فهو يريد أن يحقق للأجيال اللاحقة نوعا من المشاركة في التجربة الانسانية التي مرت به ، والتي يعتقد أنها متشابهة على الرغم من اختلافات الزمان والمكان يقول :

« إنني أكتب لمراهق ، فيما بعد ، شبيه بي ، في سن السادسة عشرة ، لكنه أكثر مني حرية ، وانطلاقا واكتمالا لعله يجد في كتاباتي هنا إجابة عن حيرته المترددة ، لكن ماذا سيكون سؤاله ؟ »

لهذا فإننا لا نعجب كثيرا عندما نجد لدى « أندريه جيد » رغبة في خلود الفنان بعد الموت ، عن طريق فنه ، وهي نفس الفكرة التي آمن بها « مارسيل بروست » ، وسجلها على نحو رائع في نهاية سباعيته الشهيرة « بحثا عن الزمن المفقود » عندما يقول :

« إن الأسباب التي تدفعني للكتابة متعددة ، وأهمها فيما يبدو لي هو أكثرها سرية ، وربما كان هو وضع شيء بمنجاة من الموت ، وهذا ما يجعلني أبحث في كتاباتي من بين كل الخواص على تلك الخاصية التي لا يؤثر فيها الزمن كثيرا ، والتي تصمد أمام الصدمات العارضة ، إنه لكي يكون المرء مؤثرا لا بد أن يكون مخلصا » .

مواقف متباينة

كذلك من الغريب أيضا أن نجد الكاتب الفرنسي الكبير « بول فاليري » الذي شارك بقوة وفاعلية في إثراء الحركة الثقافية والنقدية في فرنسا خلال النصف الأول من القرن العشرين ، نجده يصرح بأن الدافع وراء الكتابة إنما هو « الاحساس بالضعف » !

ويتمثل هدف الأديب عند الشاعر الكبير « بول كلوديل » في نزعة إنسانية شاملة ، وتمد للقارىء يداً حانية في جفاف الحياة من حوله ، يقول :

« دعني أغني لأعمال الرجال ، وليجد كل إنسان في أشعاري الأشياء التي يعرفها ، كما يشعر الانسان بالفرح عندما يتعرف من بعيد على منزله ، ومحطة القطار ، ومبنى البلدية !

وهذا الانسان بقبعته البسيطة الذي يمتد المكان حوله إلى ما لا نهاية . وماذا يفيد الكاتب إذا لم يلق بالاً لهذه الأشياء سواء كانت أشياءه هو ، أو محل أحذية ، أو الانسانية كلها »

أما رائد السريالية في فرنسا « أندريه بريتون » فإنه يقول :

« كل ما أريده هو أن نسكت عندما نتوقف عن الاحساس » ، ومعنى هذا ببساطة أن الأديب السريالي ينبغي أن يعمل وهو في حالة نشاط وجداني متوتر ، فإذا ما خفّت حدة هذا النشاط وبدأ صوت العقل والمنطق ، وجب عليه أن يلقي القلم من يده !

ولا شك في هذه العبارة المركزة أنها تلخص اتجاها فكريا بأكمله .

وأخيرا نلتقي « بسارتر زعيم الوجودية الفرنسية الذي ينفي في كتابه (ما الأدب ؟) إمكانية أن يكتب الأديب لنفسه (معارضا بذلك فلوبير) قائلا :

« إن الكتابة للنفس تعتمد على قراءة ضمنية من الأديب نفسه لما يكتبه ، وبذلك فنحن أمام شخصين فاعلين للعمل الأدبي الذي لا يمكن أن يرى النور إلا بواسطتهما .

والنتيجة أن الكتابة عمل إبداعي ، لا يتم إلا في إطار المجتمع ، ومن خلال تفاعل كامل مع شتى المواقف التي تعرض للشخص فيه » .

وبعد هذا الاستعراض السريع لتلك الاجابات المختلفة والمتناثرة عن مهمة الكتابة ، والهدف من العمل الأدبي لا يمكن القول بأننا أصبحنا قادرين تماما على تكوين حكم موحد على دوافع الأدب الفرنسي ، لأن مثل هذا الحكم بحاجة إلى تحليل أكثر عمقا ، ومقارنة أوسع شمولا ، لكن ما يكفي الآن إنما هو الامساك ببعض الخيوط التي تمتد مباشرة إلى أهم اتجاهات ذلك الأدب ، والوقوف من ذلك على حقيقة مهمة ، هي أن سؤال « لماذا أكتب ؟ » كان حاضرا دون استثناء على ما يبدو في أذهان أولئك الأدباء الكبار ، وهذا ما قصدت إليه ـ أساسا ـ من وراء هذا المقال . □



اقــرأ في العدد القادم من العربي

نـوفـمبر ١٩٨٨



سليمان الشيخ

- الاسلام بين الاخاء والدماء!
  د. عبدالعزيز كامل
- مـأزق الإبداع الأدبي..
  غالب هلسا
- أبـوجعل .. خنفساء عبدت!
  د. وسمية الحوطي
- الكوكايين .. شمبانيا المخدرات!
  د. جمال الدين موسى
- البداري.. والحادثة التي أسقطت الباشا
  صلاح عيسى
- عصور إنسانية عرفت القلق
  د. عبدالستار ابراهيم
- وجهًا لوجه: د. علي الوردي و د. جليل العطية

تايلند

"أرض الأحرار" تبيع كلّ شيء حتى الإنسان!

سليمان مظهر

واقرأ أيضًا للكتاب:

د. محمد الرميحي - د. سمير رضوان - د. على شلش - د. محمد علي الفرا
د. زينب عبدالعزيز - د. بهاء الدين محمود - د. صباح السامرائي - محمد عمارة



وجبة علمية خفيفة

لحوم صناعية من الأوراق النباتية

بقلم : فوزي عبد القادر الفيشاوي

حينما ننظر حولنا الى تلك الاحجام الهائلة من المخلفات الزراعية لايسعنا إلا أن نتساءل في دهشة : ترى أليس من الأجدى محاولة الافادة منها بشكل عملي ؟ ألا يمكن تحويل هذه المخلفات (المشكلة) في حد ذاتها إلى حلول مهمة لمشاكلنا الغذائية . . ؟

حينما وقف عالم التغذية الشهير في معمله أمام جمع من زائريه ليشرح لهم طرقه الحديثة في انتاج لحوم البقر ، نظر عبر النافذة إلى تلك المساحات الشاسعة من حقول البرسيم التي تمتد على مدى البصر ، ثم استطرد يقول : إنني أستطيع تحويل هذا البرسيم وتلك الحشائش الخضراء الكثيفة إلى مئات الاطنان من لحوم البقر والغنم والماعز والدجاج والغزلان بعد ساعة واحدة .

وسكت العالم هنيهة ، ووجم الزوار برهة ، وقد علت وجوههم علامات تدل على الدهشة حينا والاستنكار حينا آخر ، وبدا لهم أن محدثهم ربما لايعي ما يقول ، فأين هي تلك الحيوانات التي ستتكفل بأكل هذه المراعي الواسعة لتحول ما تأكله إلى لحم خلال ساعة واحدة ، كما يزعم هذا الرجل ؟ . . وحتى لايترك صاحبنا زائريه نهبا للهواجس استطرد قائلا : أرجو يا سادة ألا تنزعجوا مما أقول ، وحتى لاتساوركم الظنون عليكم بمشاهدة

هذا العرض القصير ، وأشار الى شاشة بيضاء معلقة على الجدار ، ثم ضغط إحدى الازرار فظهر جانب من أحد مصانع الاغذية الملحقة بالمزرعة ، وقد بدت شاحنات ضخمة محملة بالبرسيم والحشائش الخضراء ، وهي تدخل أحد أقسام المصنع . وبسرعة ضغط عالمنا الهمام زرا آخر لتظهر المرحلة الاخيرة من التصنيع ، حيث بدت خطوط انتاج متعددة أحدها للسجق (البرسيمي) ، وآخر لهمبورجر (ورق السبانخ) ، وثالث لشرائح لحم (ورق الباميا) ، ورابع خرجت منه عبوات « لنشون » (ورق الشجر) ، وخامس ، وسادس . . الخ . ووسط مظاهر الدهشة والتعجب البادية على الوجوه تقدم صاحبنا فدعا زائريه لتذوق هذه الاطعمة ، ولشدة إعجابهم صاح أحدهم ، وهو رجل وقور . حقا إنها لذيذة ، لذيذة جدا ، وتشبه في طعمها اللحم الاحمر ، وربما تكون ألذ مع كأس من عصير البرسيم . وقهقه الحاضرون سعادة ، بينما راح صاحبنا يطلعهم على سر هذا الدجاج وهو ليس بدجاج وهذه اللحوم وهي ليست بلحوم . . !

إحالة حيوانات اللحم إلى التقاعد

ليس ببعيد ذلك اليوم الذي تصبح فيه حيوانات اللحم ، بجاموسها وأبقارها وعجولها ، مجرد ذكرى أو تاريخ مثلما نتذكر بأسى أو بغير أسى - لاأدري - ديناصورات العصور الغابرة ، فلعل العلماء قد أعادوا النظر في الكيفية التي نستغل بها المخلفات الورقية للنبات والتي طالما استخدمها الانسان علفا لحيواناته على الرغم مما يعيبها من انخفاض في قدرتها التحويلية ، حيث لانستفيد من تغذية الحيوانات في زيادة لحومها الا بنسبة ضئيلة لاتتعدى ١٠٪ من غذائها المأكول ، مما يمثل إسرافا لاداعي له على الاطلاق . وطالما يمكن استخراج تلك البروتينات النباتية مباشرة من مصادرها ووضعها على مائدة المستهلكين في صورة أغذية ، عالية في قيمتها الغذائية .

ويعد ذلك - بحق - طفرة في تقنية التعامل مع المخلفات النباتية التي تقع في مركز الصدارة منها أوراق النباتات الخضراء ، لكن ماذا يعني ذلك حقا ؟

إنه ببساطة نذير باقتراب موعد إصدار قرار بإحالة هذه الحيوانات الكسولة الى التقاعد ، أو على أحسن الاحوال ومع استعمال قواعد الرأفة في التعامل معها ، فسوف يتم تقليص دورها في تغذية الانسان .

ولعل بعض الناس قد لايحلو له ذلك ، فيصيح في تحد : كيف يا هذا ؟ نحن نعلم أن آكلات العشب فقط وحدها القادرة على استخلاص الفائدة الكبرى من الاوراق النباتية ، أما الانسان وبقية الحيوانات غير المجترة فهي لاتملك الطريقة اللازمة لكسر جدار الخلية النباتية واستخلاص البروتين ، ولهذا فان فائدة الأوراق النباتية تقتصر بالنسبة للانسان على الاملاح المعدنية والفيتامينات وبعض الاحماض الامينية البروتينية الموجودة في صورة حرة ، هذا بالاضافة الى أنه من الناحية « الاكلينيكية » ، فان استهلاك أوراق النبات محدود بكمية المخشنات والمادة الليفية التي تتحملها أمعاء الانسان ، ناهيك - يا سيدي - عما أثبتته الدراسات الحديثة عن وجود عديد من المركبات غير المرغوب فيها ، ذات التأثير السام في معظم الأوراق النباتية ، مثل مركبات تسمى فينولات وقلويدات وسابونين وجلوكوسيدات ومثبطات نمو واحماض أمينية غير بروتينية سامة وغيرها . . !

ومع احترامنا الشديد لكل الحقائق العلمية السالفة الذكر ، فإن القضية سوف تحسم على وجه آخر ، ذلك أن تزاحم الانسان والحيوان على نفس رقعة الارض ، مع احتمالات تناقص المخزون العالمي من الغذاء التقليدي ، كل ذلك سوف يحسم القضية في النهاية لصالح الانسان ، خاصة أن وسائل التقنية الحديثة في تصنيع الغذاء قد مكنت الانسان من حل تلك المشكلات السابقة ، حيث يسرت التقنيات الحديثة عمليات استخراج بروتين الاوراق النباتية والحشائش الخضراء في صورة مركزات عالية القيمة ، خالية من الالياف والمركبات السامة . ومن

هنا لم يعد ثمة تخوف يستدعي المماطلة في الايغال بقوة الى ذلك العالم الجديد ، عالم بروتينات أوراق النبات الخضراء .

أطباق شهية من البروتينات الورقية

نحن الآن في جولة داخل واحد من مصانع البروتينات الورقية المنتشرة في بعض الدول كاليابان والولايات المتحدة الامريكية والبرازيل وغيرها ، حيث نشاهد عن بعد شاحنات ضخمة محملة بالكثير من المخلفات الورقية والحشائش الخضراء والبرسيم وأوراق فول الصويا أو البطاطا والكاسافا وأوراق القلقاس والبامية ، وقل ماشئت من المخلفات الورقية التي تحتوي على نسبة من البروتين تتراوح بين ٢٥٪ ـ ٣٠٪ .

في قسم آخر من المصنع تجري عمليات الغسيل ، ويليها طحن الأوراق الغضة وعصرها بطرق الية للحصول على عصير الأوراق الاخضر . ثم يعرض العصير لمعاملة حرارية تصل إلى ٧٥°، ثم يمرر إلى جهاز للطرد المركزي يدور بسرعات هائلة ، ليفصل أول منتج بروتيني أخضر اللون ، يحتوي على ٥٠٪ بروتينا . أما الجزء السائل المتبقي فله حكاية ، حيث يعامل بمحلول حامضي تضبط درجة حموضته (P H) على (٤) ، وهنا تشاهد عجبا ، حيث يترسب بسرعة بروتين ناصع البياض ، يجري فصله بالطرد المركزي أيضا ليعطينا منتجا بروتينيا يحتوي على ٩٠٪ بروتينا . كم هو غني هذا المنتج البروتيني !

والان ، نحن في مرحلة تقنية عالية ، إنها مرحلة تشكيل هذه البروتينات لتصبح كاللحوم التي تعودنا عليها . فهل تريد شرائح لحم محمرة ، أو سجقا ، أو (لنشون) أو همبرجر ؟ كل ذلك سهل وميسر . فهناك تخلط هذه البروتينات مع دهن حيواني وبعض مكسبات الطعم واللون والرائحة الخاصة بلحم الدجاج أو الابقار ـ وإن شئت فطعم الغزال ـ مع نسبة من الماء لتصبح كالعجينة ، تدخل في جهاز عجيب يسمى « اكسترودر » ليتم تشكيل هذه العجينة على هيئة خيوط رفيعة طويلة مشابهة لالياف اللحم الطبيعي ، ثم تستكمل عمليات « غزل ونسج » الخيوط البروتينية داخل نفس الجهاز ، حيث يجري تجميع تلك الخيوط في حزم أشبه بعضلة اللحم . وقد تشكل على هيئة شرائح أو أجزاء دجاج ، ليسهل تقطيعها والتعامل معها . صدقني لن تفرق بينها وبين الطعم الطبيعي ، وإن كنت من خبراء التحكيم ، وإن كنت من أمهر الطهاة . . !

وقد تمكنت كثير من شركات الاغذية في العالم من انتاج صور متعددة لمثل هذه اللحوم الصناعية التي تشبه في طعمها لحم البقر والدواجن والاسماك ، ويمكن تعليبها أو تجميدها أو تجفيفها ، وبإمكانك تناولها مباشرة ، فقد أجريت لها عمليات الطهي المناسبة أثناء اعدادها .

والمدهش حقا أن إنتاج الكيلوغرام الواحد من هذه البروتينات الورقية المركزة يكلف جنيها استرلينيا واحدا ، بالمقارنة مع تكلفة كيلوغرام اللحم التقليدي الذي يحتوي على ٢٠٪ من البروتين وهي جنيهان ونصف جنيه استرليني .

ولم تقتصر هذه التقنية الجديدة على دول العالم المتقدم ، فقد شملت عددا من الدول النامية مثل باكستان والهند ونيجيريا والبرازيل ومصر وغيرها ، وتعتبر الهند من أكثر دول العالم الثالث تقدما في مجال استخدامات البروتين لتغذية الانسان ، ففي المؤتمر الدولي الأول لبروتين ورق الشجر الذي انعقد في أوائل عام ١٩٨٣ في « أورانج باد » بالهند كانت وجبات إفطار المؤتمرين نوعا جديدا من « البسكويت » الاخضر المصنوع من بروتين ورق البرسيم ، ولم ينس العلماء ـ في نهاية مؤتمرهم ـ أن يثنوا على هذا « البسكويت » (البرسيمي) اللذيذ

تفاعل فلديك الأوراق

حينما نجح عالم الزراعة والتغذية الشهير « جورج واشنطن كارفر » في انتاج أكثر من ٣٠٠ منتج من الفول السوداني ومخلفاته ، علاوة على أكثر من ١٧٠ منتجا من مخلفات البطاطا ومئات أخرى من المنتجات كلها من المخلفات الزراعية ، وحينما تحلق حوله كوكبة من تلامذته النابهين ، همس لهم : « ابحثوا

عن استعمالات لهذه المخلفات الزراعية ، واعلموا أن بها أسرارا لن نفهمها مالم نتعلم كيف ننسجم معها . . » هكذا كانت كلمات الرجل الذي قال عنه الرئيس الامريكي « روزفلت » « إنني لأعتبر نفسي موفقا أعظم التوفيق إذ اجتمعت به يوما ، وتحدثت اليه ، إن الانسانية بأسرها مدينة لمكتشفاته التي كانت مثار الدهشة ومدعاة العجب » .

وهكذا ، فإذا أردت أن تتفاءل - حقا - حول مستقبل الغذاء في العالم فانظر الى تلك الاحجام الهائلة من المخلفات الزراعية ، وتساءل عما يمكن عمله بكل هذه المقادير ؟

وحينما تساءل العلماء عما يمكن عمله بالمخلفات الورقية للنبات كانت النتيجة عشرات من المنتجات البروتينية عالية القيمة الحيوية ، ففي معامل التحليل كانت الشهادة الاولى لجودة تلك البروتينات ، حينما أكدت غناها في مجموعة من الاحماض الأمينية الضرورية مثل الليسين والتربتوفان ، وهي الاحماض المحدودة في الحبوب كالذرة والقمح وغيرها ، ولاشك أن لمثل هذه الاشارات أهميتها في تعضيد دور بروتينات الأوراق كإضافة غذائية لأنواع الدقيق والعجائن الغذائية ومنتجات المخابز المختلفة لتعويض النقص فيها ورفع قيمتها الحيوية .

ولم تقل نتائج تغذية الحيوان - في أهميتها - عن نتائج المعامل ، فقد جرت تجارب تغذية على الدواجن ، لتؤكد دور البروتينات الورقية في زيادة معدلات النمو ، كما أمكن استبدالها بنصف « كازين » علف العجول الرضيعة بكفاءة عالية .

وإذا كنا قد اتفقنا على أن الانسان هو الهدف الرئيسي لابحاث البروتينات الجديدة ، فإن هناك كثيرا من تجارب التغذية التي أجريت على الانسان في عدد من الدول ، وشملت الاعمار المختلفة ، ومن هذه التجارب تلك التي أجريت عام ١٩٦٢ على مجموعة من الاطفال المصابين بسوء التغذية في جامايكا حيث جهزت لهم وجبات احتوت على لبن فقط ، وأخرى احتوت على لبن مع بروتين الأوراق بنسبة (١ : ١) ، وقد بينت النتائج أن وجبات بروتين الورق كانت متكافئة تماما في قيمتها الغذائية مع الوجبات المحتوية على لبن فقط. وفي دراسة شيقة نشرتها مجلة لايف **Life** عام ١٩٧٣ تبين أن إضافة ١٠ جرامات من بروتين الأوراق الى وجبات الاطفال النيجيريين المصابين بمرض «الكواشيوركور» (نقص البروتين) مدة ١٠ أيام فقط ، يؤدي الى تحسن واضح في صحتهم العامة وتيقظهم الذهني . .

وهناك تجارب مماثلة اجريت على الاطفال ، أجراها عالم التغذية الامريكي « نورمان بيري » جاءت مؤكدة على دورها في تحسين الحالة الصحية ، بل وسجلت إقبال هؤلاء الاطفال على وجبات البروتينات الورقية ، ومثل هذه النتائج أكدتها دراسات العلماء في مدينة ابيادان بنيجيريا ، حيث أقبلت ربات البيوت بشكل واضح على منتجات البروتينات الورقية . وتجارب أخرى كثيرة كلها تؤكد أننا أمام مصدر بروتيني جديد ، يدعو للتفاؤل.

وبعد

لاشك أن هناك تغيرات مهمة على الجبهة العلمية والصناعية، تستجمع قواها ، وهناك هجوم تقني بعد ، سيبدل الانماط الغذائية والاستهلاكية لمجتمعات العالم المتحضر منها والنامي ، مادته هي بروتينات أوراق النبات الخضراء . هكذا يتوقع العلماء وهكذا يؤكد د . ملتون بيبلز وزملاؤه في الجامعة التقنية بولاية تكساس . الكل يتوقع أن موعدنا قريب جدا مع بروتينات أوراق البرسيم الحجازي أو الاجزاء الخضرية للبنجر وأوراق الشجر بل حتى أوراق التبغ ، حيث تذكر الدراسات أن في الولايات المتحدة الامريكية فقط حوالي ٢١ مليون طن من البقايا النباتية كل عام وهي تحتوي على أكثر من ٤٠٠ ألف طن من البروتين ، ينتظر استخلاصها والاستفادة منها .

ويرى علماء التغذية أن بروتينات الأوراق لاتعد مصدرا مهما لأغذية المستقبل فقط ، بل إن المستقبل يبدو الآن وقفا على البروتين المستخلص من أوراق النبات ! □

البيان في أسباب نزول القرآن

بقلم : حسين أحمد أمين

قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا) الفتح (١ - ٣) .

عن قتادة ، عن أنس ، قال : أنزلت هذه السورة على النبي (ص) عند مرجعه من الحديبية ، نزلت وأصحابه مخالطون الحزن ، وقد حيل بينهم وبين أداء العمرة التي خرجوا من المدينة من أجلها .

أبرم صلح الحديبية بين النبي وقريش في ذي القعدة من العام السادس الهجري . وكانت النقطتان الرئيسيتان في اتفاقها وضع الحرب بينهما مدة عشر سنوات ، تكون تجارة قريش خلالها آمنة من هجمات المسلمين ، ويكون للرسول فيها حق العمل في حرية من أجل نشر الاسلام في شبه الجزيرة العربية . وقد أثار الاتفاق استياء أصحاب النبي الذين اعتبروه تنازلا منه غير مفهوم وليس له ما يبرره ، والواقع أن غالبية الحاضرين من المسلمين كرهوا الصلح واستنكروه ، وخاصة أنه قد جاء بعد أيام قليلة من بيعة الرضوان التي أبدوا جميعا فيها حماسا بالغا للقتال . وقد كانوا خرجوا من المدينة لا يشكون في الفتح لرؤيا النبي أنه حلق رأسه وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة وعرّف مع المعرّفين . فلما رأوا الصلح وقد نص على عودتهم ذلك العام دون أداء العمرة « دخل الناس من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون » (الواقدي) . وكان أبو بكر بعد ذلك يقول : « ما كان فتح في الاسلام أعظم من فتح الحديبية . ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه ، والعباد يعجلون ، والله تعالى لا يعجل كعجلة العباد ، حتى تبلغ الأمور ما أراد الله » .

وكان عمر بن الخطاب من أشد الكارهين لما اشتمل عليه الصلح من شروط ، فلما تم الاتفاق ودعا النبي علي بن أبي طالب لكتابة الكتاب وثب عمر إلى النبي وقال : « ألست برسول الله ؟ . قال : بلى » قال : ألسنا بالمسلمين ؟ « قال : بلى » قال ألسنا على الحق ؟ قال : « بلى » . قال : أليس عدونا على الباطل ؟ « قال : بلى » ، قال عمر : فلم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ قال النبي : « أنا عبد الله ورسوله ، ولن أخالف أمره ، ولن يضيعني » . فعاد عمر يقول . « أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به وأنك ستأخذ مفتاح الكعبة ؟ هذا هَدْيُنا لم يصل إلى البيت ولا نحن » ! قال محمد : « قلت لكم في سفركم هذا » ؟ قال عمر : لا . قال النبي : أمَا إنكم ستدخلونه ، وآخذ مفتاح الكعبة ، وأحلق رأسي ورءوسكم ببطن مكة » . بيد أن عمر ظل يردّد الكلام على النبي ويصيح : « علام نعطي الدَّنِيَّة في ديننا ؟ والنبي يكرر قوله : « أنا رسول الله ولن يضيعني » . وأخيرا صاح أبو عبيدة بن الجراح بعمر : « ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله يقول ما

يقـول ؟ تعوذ بـالله من الشيـطان واتّهم رأيـك » .
فالتفت النبي إلى عمر كأنما قصد أن يذكره بفراره عنه يوم أحد : « أنسيتم يوم أحد إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون على أحد وأنـا أدعوكم في أُخْـراكم ؟ أنسيتم يـوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ؟ » .

غير أن عمر لم يقتنـع ومضى إلى أبي بكر يكـرر سؤاله : « ألسنا بمسلمين ؟ ألسنا على الحق ؟ » فقال له أبو بكر : « يا عمر الزم أمره فإني أشهد أنه رسول الله وأن الحق مـا أمر بـه . ودع عنك مـا تـرى يـا عمر » . وكان عمر يقول عن ذلك اليوم فيما بعد : « ما أصابني قط شيء مثل ذلك اليوم . لقد ارتبت ارتيابا لم أرتبـه منذ أسلمت إلا يـومئذ ، وراجعت النبي مراجعة ما راجعته مثلها قط . والله لقد دخلني يومئذ من الشك حتى قلت في نفسي : لو وجدت مائة رجل على مثل رأيي يخرجون عنهم رغبة عن القضية لخرجت . وإني لأذكر ما صنعت خاليا فيكون أكبر همي . ثم جعل الله عاقبة الصلح خيرا . وأسلم في الهدنة أكثر ممن كان أسلم من يوم دعا رسول الله إلى يوم الحديبية . وكان رسول الله أعلم » .

ثم أَذَن محمد بالرحيل فارتحلوا . وسار عمر إلى جوار النبي يكلمه فلا يجيبه النبي بكلمـة . فحزن عمر ، وحرك بعيره بعيدا وهو يخشى أن ينزل فيـه قرآن لما كان منه . وإذ هو يسير مهموما مع الناس ، والناس قد خالطهم الحزن والكآبة ، إذ مناد ينادي : يا عمر بن الخطاب هلم إلى رسول الله . فأقبل عمر مسرعا حتى انتهى إلى النبي . فقـال له النبي وهـو يتبسم : « أُنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليـه الشمس ! » . وسمع النـاس قـولـه فجعلوا يتصـايحون : « أُنـزل على رسـول الله قـرآن ! » . وركضوا حتى توافوا عند النبي ، فشرع يتلو عليهم سورة الفتح :

« إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . »

ومع ذلك فما أدرك المسلمون إلا بعد مدة أن النبي بإبرامه صلح الحديبية الذي كرهوه ، إنما قام بحركة سياسية بـاهرة ، وحقق نصـرا كبيـرا زاد مـركـزه السيـاسي قوة عـلى قوة . والـواقع أن مـا أبداه في الحديبية من ضبط للنفس واستعداد لقبول ما رأى فيه بعض إذْلالاً بصدد مسائل غير ذات أهمية كبيرة من أجل الوصول إلى الهدف الضخم ، لَدليل على كفاءة خارقة وقدرات ذهنية هائلة ، وتصميم قوي على أن يحتفظ دائما في يده بزمام الموقف حتى لو اضطره ذلك الموقف إلى بعض التنازل . فما مرت الأيام حتى بدت واضحة للجميع وفي متناول الأيدي ، ثمار حكمته.

لقد حقق صلح الحديبية كل ما كان يرجوه وقت خروجه من المـدينة لأداء العمـرة ، وفوق مـا كان يـرجوه ، وكـان ذلـك دون أن تفقـد قـريش مـاء وجهها . بات أهل مكة يعترفون بذلك المهاجر الذي ازدروه طـويلا واحتقـروا شـأنـه نـدًّا لهـم مستقـلا يعقدون المعاهدات معه . وقد تركت فخامة مسيرته وكثرة هدْي المسلمين وتوقير أصحابه إياه أثراً عميقا في نفوس أهل مكة ، بحيث بدأت قريش ترى أنه ليس في صالحها الاستمرار في معاداة ابنها ، وخاصة بعد أن أبدى الاسلام من التوقير للكعبة والاحترام للحـج ما ضيّق من مجـال الخلاف مـع هذا الـدين الجديد .

وقد أتاح وضع الحرب الفرصة والوقت أمام النبي لنشر الدين بين القبائل العربية الأخرى ، أو الدخول على الأقل معها في محالفات وعلاقات ودية ، مما عزز قوته ومكنـه في النهايـة من فرض إرادتـه على مكـة.

على أي الأحوال فقد استقرت هدنة دامت نحو سنتين فشا الاسلام خلالها في كل ناحية من نواحي العرب حتى دخل فيه عدد أكبر من عدد معتنقيه منذ بدء الدعوة ، منهم بعض صناديد قريش كعمرو بن العاص وخالد بن الوليد . والدليل على ذلك أن النبي خـرج إلى الحـديبيـة في نحـو ألف وخمسمـائـة من المسلمين . فلما خرج بعد ذلك بعامين لفتح مكة ، كان جنده نحوا من عشرة آلاف رجل .

قــراءة نقــديــة في كــتــاب :

وسمية تخرج من البحر

روايــة من تأليــف : ليلى العثمان

بقلم / سمر روحي الفيصل*

يحلل الناقد العناصر الرومانتيكية في رواية « وسمية تخرج من البحر » . ويرى أن هذه العناصر ليست قاصرة على هذه الرواية بل انها موجودة أيضا في الرواية السابقة عليها « المرأة والقطة » للكاتبة فهل تعني هذه الظاهرة نوعا من الردة إلى الخطاب الرومنتيكي ، وقبل أن نصل الى إجابة عن سؤال الناقد ندعوك لقراءة هذا المقال . .

تتعدد قراءات النص الواحد ، وتتباين في أحايين كثيرة تبعا للقارىء ، ولطبيعة النص المقروء . واذا كانت حقائق النص الأدبي كحقائق النقد احتمالية دائما ، فان القراءة التحليلية للنص الأدبي تهدف الى الكشف عن طبيعة الخطاب الكامن في هذا النص ، والخروج منها بخطاب نقدي لايدعي الاستئثار بالحقيقة ، ولا يرى شيئا خارج ما يضمه النص المقروء .

أما النص المقروء هنا فهو رواية « وسمية تخرج من البحر » الصادرة عام ١٩٨٦. ولليلى العثمان ، صاحبة هذا النص ، رواية أخرى هي « المرأة والقطة » صدرت عام ١٩٨٥ . وقد يلاحظ القارىء أن طبيعة الخطاب في الرواية الأولى لاتختلف في جوهرها عن طبيعة الخطاب في الرواية الثانية ، ولهذا السبب سمح لقراءة « وسمية تخرج من البحر » بالامتداد الى « المرأة والقطة » ليستمد من هذا النص ما يجعل القراءة أكثر دلالة على طبيعة الخطاب الروائي عند ليلى العثمان . وعلى الرغم من أن هناك ما يغري الباحث بالتماس مصداقية الخطاب الأدبي في الروايتين من النصوص القصصية التى نشرتها الكاتبة ، بدءاً من مجموعتها الاولى « امرأة في إناء » (١٩٧٦) وانتهاء بمجموعتها الأخيرة « فتحية تختار موتها » (١٩٨٧) ، إلا أن ذلك يتجاوز حدود هذه المقالة وهدفها .

الخطاب الأدبي الذى وجهته « ليلى العثمان » الى القارىء عبر روايتها « وسمية تخرج من البحر »

* كاتب وناقد من القطر العربي السوري

خطاب « رومنتيكي » . فهي تقدم للقارىء حكاية حب بين فقير اسمه « عبدالله » وغنية اسمها « وسمية » جمعتهما الطفولة بلهوها البريء وأيامها الجميلة ، ثم حالت العادات والتقاليد دون لقائهما بعد بلوغهما مبلغ الشباب ، فبقي كل منهما يرنو الى الآخر وإن لم يره . وحين نجح « عبدالله » في أن يلتقي وسمية على شاطىء البحر فى الليل فاجأهما أحد حراس الشاطىء ، فهربت « وسمية » لتختبىء في البحر خوف الفضيحة ، وبقي « عبدالله » وحده على الشاطىء . ولما ابتعد الحارس هرع عبدالله الى البحر ليعيد وسمية ، فاكتشف أنها غرقت وأنه لامفر له من أن يبقيها في البحر لئلا يفتضح أمر خروجها من منزلها ليلاً . ثم عاد الى منزله وقص على أمه ماجرى لوسمية ، فذهبت أمه الى أم وسمية ولفقتا معاً حكاية ذهاب وسمية مع أمها وأم عبدالله الى الشاطىء مساء ليغسلن الثياب ، فابتلع البحر « وسمية » دون أن تتمكن المرأتان الأخريان من إنقاذها أو العثور على جثتها . وقد نجحت الحكاية الملفقة في اقناع الناس حين أعلنت أمامهم صباح اليوم التالي ، لان والد وسمية وأخاها مسافران ، ولأن أم عبدالله اعتادت عون أم وسمية في العمل لقاء أجر معلوم .

عناصر رومانتيكية :

يشير التلخيص السابق لموضوع « وسمية تخرج من البحر » الى عنصرين رومانتيكيين هما : الحب البريء الذى جمع بين قلبين أحكمت أواصر الألفة بينهما خلال الطفولة . والقدر الذى اغتال الحب في أول لقاء جمع بين الحبيبين . وهناك مسوغ روائى لهذين العنصرين هو عادات المجتمع الكويتي قبل النفط التى كانت تمنع الحب وتعزل المراهقين والمراهقات إذا كانوا من طبقات اجتماعية مختلفة كما هي حال عبدالله الفقير ووسمية الغنية . ويضيف القول الفني للخطاب الروائي عنصرا رومنتيكيا ثالثا هو انطلاق السرد من الحاضر ـ حاضر مرحلة النفط ـ الى الماضي في نوع من الحنين اليه . ويرسخ هذا العنصر تغير البيئة حول عبدالله (تبدل الأحياء والمنازل والمجتمع بعامة وتهدم منزل وسمية بخاصة) ، وتعس زوجته التى بنى بها بعد أن فقد وسمية بسنوات . كما يضيف القول الفني عنصرا رومنتيكيا رابعا هو ذلك الهيام بالبحر، وقد كان هذا الهيام مشتركا بين وسمية وعبدالله . وهو ـ في الحاضر ـ مقصور على عبدالله وحده ، لأن زوجه لاتحب البحر ولا ترغب في أن يعمل زوجها صيادا فيه ويترك وظيفته في الحكومة من أجله .

إن عناصر الخطاب السابقة تدعو كما هو واضح الى المحافظة على حقوق القلب ، ورفعها فوق القوانين التى استنّها المجتمع ، سواء اكانت عادات وتقاليد أم تفاوتا اجتماعياً بين الفقراء والاغنياء، كما تدعو الى العودة الى الطبيعة ، بل الهيام بها ، وتتفنن في وصف جمال البحر وفائدته ، وتكاد تشخصه وتحاوره وتراه الحبيب الوحيد الذى لايغار من أن يشاركه في الحب حبيب ثان . وقبل ذلك كله تغلب عناصر الخطاب الادبي السمة العاطفية عند الانسان وتضعها قبل الإرادة والعقل ، وتراها الهادى في دروب الحياة ، وتكاد تربط الحكاية كلها بها . وهذا كله مشترك بين الرومنتيكيين ، شائع في الخطاب الأدبي لديهم ، غير أن ليلى العثمان لا تكتفي به ، وإنما تضيف اليه سمات أخرى ليست منه وإن كانت معروفة في الساحة الأدبية العربية وغيرها . فهي لا ترفض الحاضر (أو المدنية) جملةً وتفصيلاً ، وإنما ترفض الحاضر الذى يتخلى عن الماضى ، ولا تحن الى الماضى تمجيدا له أو هرباً من الحاضر القاتم ، وإنما تنظر اليه نظرة انتقادية ترسخ ما فيه من تعاون وألفة وحب بين الناس ، وتستنكر ما بلي من عاداته وتقاليده فاذا هجر الحاضر البحر ونفر منه فقد هجر شيئا مفيداً ، واذا تمكن الماضي من قمع العلاقات العاطفية وتقييدها فقد كبت مشاعر انسانية لابد لها من التحقق سراً أو علانية ، وهذا النزوع الانتقادى حقن الخطاب الرومنتيكي بشيات واقعية ، لكنه لم يكن من القوة بحيث يجعل الطبيعة الرومنتيكية لهذا الخطاب تقترب من الواقعية ، وتبتعد عن جعل الذات موضوع الخطاب والمؤثر في عناصره .

الخطاب في رواية « المرأة والقطة » رومنتيكي أيضا ، لكن هناك تغليبا لعنصرى الحب والمشاعر الانسانية على العناصر الرومنتيكية الاخرى . أما المشاعر الانسانية فتتجلى في العلاقة بين سالم وقطته دانة ، فقد ألفها ورعاها وأحبها لكن عمته قصمت ظهر هذه المشاعر ورمت بدانة في المرحاض فماتت . وأما الحب فقد تجسد في علاقة سالم بزوجه حصة ، وقد قضت عمته على الحب حين خنقت حصة بالحبل . وهكذا كان سالم في الرواية تعبيراً عن حقوق القلب ، في حين كانت عمته تعبيرا عن القدر الذى يغتال الحب دون أن يتمكن أحد من تقديم مسوغ مقنع لمصائبه التى تترى على رؤوس البشر .

لكن العمة تمثل - من جانب آخر - عنصراً رومنتيكياً ثالثاً هو الميل الى الشاذ في المجتمع . إذ أنها امرأة شريرة . وليس هناك ارتباط بين كونها عانسا وكونها شريرة ، ولم تسع الرواية الى قرنهما معا ، وانما سعت الى ابراز الجانب الشرير في شخصيتها . فهي لاتهدأ إذا لم تنغص حياة أخيها وابنه سالم ، واذا لم تقدهما الى الأمر الذى ترغب فيه .

مواجهة دون صراع

وقد وضعت ليلى العثمان العمة الشريرة في مواجهة براءة سالم ونقائه الداخلي ، ولكنها لم توقد شرارة الصراع بينهما وإنما تركت العمة تدمر ابن اخيها ، وتركت القارىء يتعاطف مع مشاعر هذا الفتى وحبه . وقبل ذلك كله اختارت الماضي (ما قبل مرحلة النفط في الكويت) زمنا للرواية لكن اختيارها لم يكن حنينا الى الماضى ، وإنما كان انتقادا للشر المتأصل في بعض أفراده ، وترسيخا للحب الذى أعلنه بعض آخر ، وكأنها تقابل الشر بالحب لتعلي من قيمة الثاني وتحرض القارىء على إزالة الأول من النفس البشرية . وربما كان ذلك مسوغاً لقيادتها السياق الروائي باتجاه انتصار الشر على الحب في صورة نجاح العمة في القضاء على دانة وحصة دون أن يعاقبها أحد على أفعالها الشريرة . بل أن سالما اتهم بقتل حصة ، واوع السجن ثم مشفى الأمراض العصبية .

واذا كان الخطاب الرومنتيكى في « المرأة والقطة » أكثر تنوعا وحركة ، فان الخطاب في « وسمية تخرج من البحر » أكثر عمقا وأقرب الى التأثير في وجدان القارىء . ومهما يكن أمر تعدد العناصر الرومنتيكية وعمقها فان الخطاب النقدى معني ببيان تأثيرهما في بناء النص . وأول ما يطالعنا في هذا الشأن تأثير الخطاب الرومنتيكى في بناء الشخصية . فقد رسمت الشخصية في الروايتين كلتيهما على أنها احادية الجانب ، لا تملك غير الحب (أو الشر في حالة عمة سالم) شاغلا في الحياة ، وهي في الروايتين نقية بريئة ، تحب أمها وتكاد تقدسها ، كما أنها معزولة



عن المجتمع ، ليس لها عمل تقتات منه أو أصدقاء تركن اليهم أو هموم تؤرقها وشجون تقلقها . لاشىء في الشخصية الرئيسة غير الحب تتحدث عنه طوال النص . ولا تختلف الشخصيات الثانوية والهامشية عن هذا الأمر . فأم عبدالله لا تعرف غير العمل ، وأم وسمية لا تعرف غير الحنان ، وعمة سالم لا تعرف غير الشر ، وأبو سالم لايعرف غير الخضوع لأخته . . وعلى الرغم من أن هناك في الروايتين شخصيات أخرى غير البطل وحبيبته ، إلا أن هذه الشخصيات الأحادية الجانب أيضا ليس لها (ما عدا عمة سالم في المرأة والقطة) أثر يذكر في سياق الرواية .

شخصيات أحادية

إن الخطاب الرومنتيكي في روايتي ليلى العثمان لم ينتج شخصية رومنتيكية أحادية الجانب وحسب ،

وإنما جنح بالنص الى القصة ، ورسم له بناء واحداً يبدأ دائما بالحاضر ثم يتركه عائداً الى الماضي ليسرد الحكاية التي تمت فيه . ويستند في أثناء السرد ، الى ضمير المتكلم (الرؤية مع ، بحسب مصطلح تودوروف) بغية استعادة ما تحتويه ذاكرة البطل ، وكي تسوغ نجواه الذاتية . كما يستند الى ضمير الغائب (الضمير الثالث) في التعليق وسرد ما يتعلق بالشخصيات الاخرى . وللخطاب الرومنتيكي تأثير آخر هو دفع النص بعيداً عن الحياة الاجتماعية في تنوعها وغناها وتعقدها ، إضافة الى أن هذا الخطاب جعل القارىء سلبيا يتلقي الحكاية المغلقة ، وعليه أن يقتنع بالتفسير الذي تقدمه للحدث . أما توفير الفرصة لهذا القارىء ليرى في احدى الشخصيات ما يعرفه عن نفسه أو في غيره ، وأن يشارك في الانحياز الى رأي أو يناهض اتجاها أو يلجأ الى التأويل بعيدا عن هيمنة السارد الواحد الذي يوهم بأنه حامل « ايديولوجية » الكاتبة ، فذلك كله أمر يتلامح في روايتي ليلى العثمان دون أن يخالط نسيجها .

سمة ذاتية

في « وسمية تخرج من البحر » كما في أي عمل حكائي صيغ تنهض بفعل الحكي وبالقائم به ، ومن ثم تؤطر العرض ، أي تقدم النص الروائي كما يطالعه القارىء . أما الحكي فهو القصة ، وأما القائم به فهو الراوي ، وأما المحكي له فهو القارىء . ويفترض أن يكون الخطاب هو مضمون الحكي أو الرسالة التي ينقلها الراوى الى القارىء . ولأن الخطاب في « وسمية تخرج من البحر » رومنتيكي يمر عبر قصة الحب بين عبدالله ووسمية ، وهي قصة ذاتية تمس البطلين وتتصل بهما وحدهما ، فقد اتسم السارد لهذه القصة بالسمة الذاتية نفسها . وقد اختفى هذا السارد الراوى خلف شخصية البطل عبدالله ، وراح يسرد ما يعرفه وما تراه عيناه مستعملا ضمير المتكلم . ومن ثم سردت القصة من وجهة نظر واحدة ، هي وجهة نظر عبدالله . أما وسمية وأمها ومريوم الدلالة (ام عبدالله) فلا نعرف عنهن إلا ما يخبرنا به عبدالله . وسبق القول ان عبدالله لايقيم علاقات اجتماعية في الرواية ، وليس له عمل يقتات منه ، وإن تفكيره منصرف طوال النص الى وسمية ، بل إنه التقى وسمية بعد أن غادرا مرحلة الطفولة مرة واحدة ليس غير . لهذا كله كان من البديهي أن يعتمد بناء هذه الشخصية الرومنتيكية على شيئين : « النجوى الذاتية » « والوصف » . وكان البديهي أيضا أن يتسم السرد الذي يقدم هذين الشيئين بالسمة الذاتية ، وبالاعتماد على المنظور النفسي الداخلي . ويصعب على الباحث العثور على مقطع من مقاطع النجوى الذاتية أو الوصف الداخلي والخارجي للمكان والمشاعر والأفكار والشخصيات بعيدا عن المنظور النفسي الداخلي ، أي من خلال إدراك عبدالله لما يراه ويحيط به ويفكر فيه .

ولعل براعة ليلى العثمان في رسم الشخصية الروائية تتجلى في قدرتها على تقديم سلسلة من الوصف الذاتي ، وسيل من النجوى الذاتية ، يشعر القارىء معهما أنه قريب من الشخصية الروائية ، يعرف أدق مشاعرها وأفكارها . غير أنه يرى البحر بعين عبدالله ، كما يرى أمه وزوجه ووسمية وأمها بعينه أيضا ، فيضطر أن يحب ما يعرضه عبدالله محبوبا ويكره ما يعرضه مكروها . وعلى الرغم من أن هذا كله ينم عن قدرة ليلى العثمان على تجسيد شخصية عبدالله أمام القارىء إلا أنه في الوقت نفسه ليس العمل الملائم للنص الروائي .

فالقارىء نفسه لايرى من عبدالله غير جانب واحد هو الحب ، ولا يرى من الشخصيات الاخرى الا ما يتصل بهذا الحب . أما المجتمع فغائب ما عدا أشارات الى التفاوت الطبقي بين عبدالله ووسمية . ومن ثم لا يتابع القارىء صراعا ، ولا يلاحظ توترا في الحوادث ، وإنما يتابع قصة حب رائعة يغتالها القدر المفضل لدى الرومنتيكيين لانه يقدم لهم حلولا لخواتيم روايتهم ، وللمشكلات النابعة من المآزق الاجتماعية . وهذه الردة الى الخطاب الرومنتيكي في النثر القصصي العربي بدأت تتضح في هذه الأيام فهل لذلك دلالة ما ؟ □



التعليم عن بُعد.. لتعميم التربية في سنة ٢٠٠٠

بقلم : الدكتور مصطفى المصمودي

إن الدفع الكبير لنشر التعليم الذي تشهده الإنسانية في مختلف أنحاء العالم أدى إلى إقبال على المؤسسات التربوية لم يشهد له التاريخ مثيلا ، فهل تظل قاعات الدرس قادرة على استيعاب الأعداد الكبيرة من الطلبة أم أنه آن لنا أن نفكر في طرق أخرى للتعليم ؟

اكتظت المدارس والمعاهد بالتلاميذ ، وتجاوز إقبال الطلبة على الجامعات طاقاتها في الاستيعاب ، وأصبح الحديث عن نشر برامج العلم والتأهيل عبر الشاشة الصغيرة سائرا على كل لسان ، واشتهرت عبارة الجامعة المفتوحة ، ذلك أنه لا يمكن لأحد أن ينكر في الظرف الراهن ما لوسائل الاتصال من دور فاعل في العمل الإنمائي الشامل .

ويكفي أن نستكشف المجال الذي شملته الدراسات لكي ندرك بعض المظاهر العامة لهذه المسألة . وقد يتضح من خلال التجارب والبحوث التي أجريت بصفة منفصلة في بعض البلدان ، أن هناك عدداً لا يستهان به من البيانات التي يمكن أن نستخلص منها عبرا كثيرة .

الناس ووسائل الاعلام

نحن نلاحظ التزايد المطرد للأفراد الذين يخصصون جزءا كبيرا من أوقات فراغهم لقراءة الصحف والمجلات والاستماع للإذاعة والمسجلات الصوتية ولمشاهدة التلفاز على وجه الخصوص .

ويقضي الأطفال في بعض البلدان أمام شاشة التلفاز وقتا أطول من الوقت الذي يقضونه في المدرسة . وقد اتضح من دراسة أجريت باستراليا أن الطفل في هذا البلد يقضي ٢٠٠٠ ساعة أمام التلفاز قبل أن يلتحق بالمدرسة ، أي ما يعادل سنتين دراسيتين .

وتكشف الدراسة نفسها عن أن المواطن الاسترالي يمضي ما يعادل سبع سنوات من حياته في الاستفادة من وسائل الاتصال ، وقد بينت دراسات أخرى أن الزمن المخصص للتلفاز في البلدان المصنعة يتراوح بين ٥٨ و ١٩٠ دقيقة في اليوم .

ومن جهة أخرى أثبتت البحوث التي أجريت بأوربا تأثير التلفاز على سلوك الأفراد ، وبخاصة الشبان ، وبينت في الوقت نفسه أنه إذا كانت وسائل الاتصال تدعم الاستعدادات الثابتة لدى الكهل ، فإنه ليس بمقدورها إحداث الأثر نفسه في بعض الميادين لدى الطفل ، إذ تنضج عنده بعض التصورات والميول والعادات أكثر من غيرها .

ولقد أكدت هذه الدراسات أنه إذا كان تأثير المحتوى العاطفي يدوم وقتا طويلا ويتجاوز أحيانا ثلاثة أسابيع ، فإن قدرة الاستبقاء لدى نفس الطفل بالنسبة للبرامج ذات المحتوى العلمي لا تكتسب نفس الأهمية .

لذلك فالمشكلة الأولى التي تتطلب مزيداً من العمق في البحث ، هي دراسة العلاقات القائمة بين المدرسة ووسائل الاتصال الجماهيرية وآفاق تطورها ، فالآراء ليست دائما متطابقة .

ثم إنه لا بد من الاعتراف بالفوارق القائمة بين مفهومي التثقيف عن طريق البرامج التلفازية العادية والتربية عن بعد من خلال وسائل الاتصال الحديثة بما فيها الحاسوب والقمر الصناعي .

مزايا المدرسة وحدودها

إنه بالإمكان إبراز هذه المزايا واستجلاء حدود تأثير المدرسة النظامية من خلال أعمال اللجان الكثيرة التي انكبت على دراسة الموضوع .

وقد كانت اللجنة الدولية التي كلفتها منظمة اليونسكو بدراسة مستقبل التربية ، في مقدمة المهتمين بهذا الموضوع (اليونسكو ١٩٧٢ ـ ١٩٧٤) ، وهي تعترف بأننا « لا نعرف ما تحدثه وسائل الاتصال في حياة الإنسان من تحولات لفرط معايشتها له إلا القليل الغامض . ونحن لم نقوّم حق التقويم ما غيره الجيل الثاني والجيل الثالث للتلفاز من أحوالنا ، كما اننا لم نستطع حتى الآن تصور الأوضاع التي ستنتج عن وسائل الاتصال في سباقها مع المستقبل » .

وتؤكد اللجنة « أن النتائج تثبت إمكانية تنمية ذكاء الطفل في ما قبل المدرسة بفضل التلفاز » . ويبين هنري د . كاسلير في دراسة معدة لهذه اللجنة « أن المربين المحترفين يعيشون ـ بحكم العادة ـ وسط أفكار تنتمي إلى محيطهم الخاص ، ويحققونها بأنفسهم ، وهكذا فإنهم ينزعون إلى تصور عملية التربية وتوجيهها كما لو كانت وسائل الاتصال غير موجودة ولم يكن لها أي مفعول جوهري في تبليغ المعرفة ، أو كما لو كانت لا تؤثر تأثيرا عميقا في أنماط تعبير الشبان والكهول وأشكال مساهمتهم » .

ويضيف المؤلف قائلا : « إن هذا التجاهل لأجهزة الإعلام هو نتيجة النزعة الحالية المتمثلة في إعداد المعلمين لدنيا الماضي عوضاً عن منحهم القدرة على العيش في عالم يتطور بسرعة وعلى التحكم في هذه السرعة . » ، وبناء على ذلك يرى المؤلف في خاتمة تحليله « أن إحدى مهام التربية هي تنمية استعدادات التلميذ ليدرك حقيقة الإطار الذي يتقلب فيه ، وتؤدي ضمنه وسائل الإعلام دورا مهما » ، كما

يعتبر من الجوهري بالنسبة للتربية بالمفهوم العصري أن يكون المتعلم قادرا على التعبير عن أفكاره بكل الوسائل التي في متناول يده .

بين التربية ووسائل الاعلام

تقوم بين الاتصال والتربية علاقة متبادلة ما تنفك تزداد نموا . هذا ما أكدته اللجنة الدولية التي كلفت بدراسة مشاكل الاتصال (اليونسكو ١٩٧٧ ـ ١٩٨٠) ، وذلك يعود ـ حسب رأي هذه اللجنة ـ للأسباب التالية : ـ

ـ تأكيد دور وسائل الإعلام في التوعية وصقل الفكر المهني ، وهو عمل يندرج في إطار التنمية الشاملة .

ـ اتجاه المدرسة في كل المجتمعات إلى التخلي عن قسط من امتيازها التربوي ، مما يستوجب ضرورة مراجعة وظائف المدرسة ، وتقسيم المهام بين المدرسة النظامية ووسائل الاتصال .

ـ ان أهم مظهر للترابط بين الاتصال والتربية يتمثل ـ حسب تقرير هذه اللجنة ـ في التدرب على حسن استعمال وسائل الاتصال من أجل تلافي المخاطر التي قد تنجم عن انبهار الإنسان بالجهاز التقني .

أما الخبراء الذين شاركوا في الملتقى الدولي حول تدريب الجمهور على استغلال وسائل الاتصال في مجال التربية (اليونسكو ١٩٨٢) فهم يرون أن المدرسة لا تدرب الشبان ـ بالقدر الكافي ـ على مواجهة الحياة والمشاكل اليومية ، وأن وسائل الاتصال قد تجاوزتها لأنها تضمن للتلاميذ محيطا تنسجم أشكاله ومحتوياته في إطار أقرب للواقع من تصورات المدرسة وفحوى برامجها . ومن ثم جاءت ضرورة التفكير في هذا الموضوع وضبط برنامج عمل للوصول بالمدرسة إلى مزيد من التفتح على قنوات الإعلام والاتصال ، والحيلولة دون إهمال المعارف الغزيرة المتنوعة وتجاهلها . وينبغي حسب رأي هؤلاء الخبراء أن يتمثل دور المدرسة في تبني برامج طريفة متقاربة مع ما تقدمه وسائل الاتصال ، متماشية في آن واحد مع مناهج البحث العلمي .

وقد أولت لجنة اليكسو للإعلام (١٩٨٣ ـ ١٩٨٦) عناية جيدة بالعلاقة القائمة بين وسائل الإعلام والتربية ، كما خصصت ضمن ٩٠ توصية اختتمت بها تقريرها جملة من المقترحات المتصلة بذلك ، نذكر منها على الأخص :ـ

ـ دعوة وسائل الإعلام ومؤسسات التربية إلى إقامة تنسيق بينها مبني على خطة شاملة وبرامج تنفيذية بما يحقق تكامل عمل كل منها مع عمل الأخرى ، ودعوة المؤسسات التربوية والتعليمية إلى المزيد من الاستفادة من إمكانيات وسائل الإعلام واستخدامها في إنجاح العمل التربوي .

وقد توصلت كل هذه اللجان إلى استنتاجات تماثلة ملخصها أن التربية تتجاوز حدود الاتصال وتقل عنها في نفس الوقت ، فعندما ينخفض المستوى التربوي ، تتضاءل قدرة وسائل الإعلام في التأهيل والتثقيف ، وعندما يرتفع مستوى التربية المدرسية يتسع المردود الإعلامي . وهذا الترابط المتين يدعو إلى إيجاد درجة من التكامل حتى تكون العلاقة مثمرة وإيجابية إلى أبعد حد ممكن .

وهكذا تعود إلى المدرسة وظيفة علمية تتمثل في تلقين المعارف والنظريات في حين تبقى لأجهزة الإعلام المواد المرتكزة على الصور والرسوم ومختلف أنماط الاتصال المادي .

وخلاصة القول أن التربية في البلدان النامية يجب أن تكون متجهة نحو عالم الغد ، مساهمة في تحقيق التنمية في نطاق سياسة رشيدة . وأن التقنيات المتطورة هي عنصر حتمي لذلك ، وإن كان من الواجب الوعي العميق بمحاسن هذه التقنيات ومساوئها المحتملة ، وذلك قبل استخدامها .

التأثيرات السلبية

إن التنمية الشاملة لا يجوز أن تأتي على حساب القيم الحضارية الموروثة ولا الهوية الثقافية الوطنية ، إلا أن الملاءمة بين هذين الخيارين لن تتحقق

بسهولة ، إذ ليس من المؤكد اليوم أن أجهزة الإذاعة والتلفزة قادرة على وضع مقومات التربية الوطنية والاجتماعية في مقدمة أهدافها ، كما أن التربية الأصيلة لن تتحقق بسهولة طالما واصلت البلدان العظمى فرض تأثيرها الإعلامي على الساحة الدولية ، وتهاونت في مساندة البلدان الصغيرة على خلق الظروف الملائمة لبلوغ المستوى الإنمائي المتكامل .

وحين تسعى البرامج التربوية في مستوى المدارس النظامية إلى غرس الروح الوطنية وحماية المقومات الحضارية للأمة ، تنساق وسائل الإعلام القومية من خلال البرامج الثقافية المستوردة إلى تكريس قيم وعادات دخيلة تهدد ـ على الأمد الطويل ـ الأمن الثقافي الذي تستمد منه الشعوب مناعتها .

وتكون النتيجة في نهاية المطاف : انتماء المواطن العربي أو الافريقي انتماء وهميا للمجموعة العالمية ، وابتعاده عن مجموعته وظروف حياته المحلية .

وعلى الرغم من كل هذه المظاهر فإنه لا مفر من استعمال وسائل الإعلام والاتصال في مجال التعليم بالبلاد النامية ، واسناد دور تربوي مهم اليها .

ذلك أن نسبة الذين يقبلون على المدارس ما زالت ضئيلة بالمقارنة مع عدد السكان الذين هم في سن الدراسة ، كما أنه ليس هناك ما يدل على إمكانية توفير العدد الكافي من المدارس والمعاهد والجامعات لمواجهة تدفق الشباب عليها في نهاية هذا القرن . إن التلفزة ستكون هي الوسيلة الوحيدة المتاحة أمام الشباب والكهول ، من ثم لا بد من تحديد سياسة إعلامية متماسكة مع الأهداف الوطنية في مجالات التربية والتعليم العالي والتأهيل المهني .

إمكانات وسائل الاتصال وفوائدها

إن وظيفة وسائل الإعلام في مجالات التعليم والتأهيل هي توضيح الحقائق العلمية ، وجعل العقل البشري قادراً على الاستفادة من تطبيقاتها في نشاطه اليومي ، فيصبح العلم هكذا مقوما من مقومات الحياة ، ومنطلقا للتغيير نحو المستقبل الأفضل .

ودور الأجهزة الإعلامية التقليدية والحديثة لا يقتصر على التربية الوطنية والاجتماعية ، وتلقين التاريخ والجغرافيا ، أو المساعدة على اكتشاف العلوم من خلال برامج التسلية والترفيه ، وإنما ينبغي أن يتسع في المستقبل لكل برامج التعليم في مختلف مراحله ، وبخاصة في المرحلة العليا ، من خلال ما يسمى برامج التربية عن بعد أو الجامعة المفتوحة .

وقد بدأت التجارب في البلدان المصنعة وأتت بنتائج طيبة جداً .

كانت برامج التعليم عن بعد في بدايتها معدة للتأهيل المهني والتعليم العالي ، وكانت موجهة للمعاقين الذين لا يقدرون على التنقل من المعاهد وإليها أو للذين يشتغلون بالنهار ويريدون تحسين مستواهم الفكري فيصرفون أوقات فراغهم في متابعة الدروس عن بعد . وتقدم هذه الدروس في ظروف مختلفة . ففي اسبانيا وبريطانيا والمانيا الغربية ، هنالك مراكز مختصة تنفرد بتنظيمها ، أما في فرنسا فإن الجامعات في مختلف الجهات لها الحق في استحداث فروع لتوجيه براجها من خلال وسائل الاتصال الحديثة مثل التلفاز (التلماتك Telematique) وقد بلغ عددها ٢٢ فرعا من مجموع ٧٥ جامعة ، وتساعد على ذلك بعض المؤسسات الاقتصادية الكبرى .

وقد تضاعف عدد المتفعين بهذه الدروس خلال عشر سنوات ماضية فبلغ في سنة ١٩٨٧ حوالي ٤٠ ألف تلميذ وطالب ، وكان جلهم في مجالات التقنية والحسابات والتصرف .

وقد كتب جيرار كورتوا في جريدة لوموند الصادرة بتاريخ ٤/ ٢/ ٨٨ أن هذا العدد ضئيل جدا إذ لا يمثل أكثر من ٢٪ من مجموع الطلبة بفرنسا الذين يقدر عددهم حاليا (٩٦٠) ألف طالب .

ويرى هذا الخبير أن التطور سيكون سريعا ، وأن بقية الجامعات ستضطر لفتح فروع خاصة بها .

وتقول السيدة باروس إن هناك تخوفا من الأساتذة الجامعيين ، لأن هذا النظام التربوي الجديد يقطع العلاقة بين الطالب والأستاذ ، وينتهي في خاتمة المطاف بتفريغ قاعات التدريس .

وتبين الدراسات أن نجاح هذا النظام يتوقف على عدة شروط منها :

- تنظيم لقاءات دورية بين المربين والطلبة ، ثم الطلبة وحدهم ، نظرا لفوائد للاتصال ، وقد يكون ذلك مباشرا أو من خلال الندوات التلفازية .

- الإكثار من البرامج المتلائمة تربوياً مع وسائل الاتصال وحسب اختصاصها (اشرطة فيديو - تسجيلات الخ) مع التخفيض من المحاضرات المطبوعة على الأوراق والمرسلة عبر البريد العادي .

وتتجه العناية في مختلف بلاد أوربا وفي نطاق تنسيق محكم بين المؤسسات المختصة مثل Saturn & Pacc & comett إلى تنظيم إنتاج البرامج التربوية الملائمة وتبادل المعلومات وتدريب المربين على مباشرة مهامهم بأساليب تختلف تماما عن الطرق التقليدية . فالخبير التربوي يصبح منتجا للبرامج التربوية ، والمعلم مرشدا ومنشطا تلفازيا .

والتربية عن بعد هي في نظر هؤلاء الحل المثالي لفض مشكل الانقطاع عن الدراسة وتوفير المرافق التربوية الكاملة أمام الملايين من الطلبة الذين سيبلغون سن الدخول للتعليم العالي في نهاية هذا القرن .

التربية عن بعد وآفاقها في الوطن العربي

إن من واجبنا الاهتمام بهذا الموضوع الكبير والإعداد لتبني برامج مماثلة استنادا إلى الطاقات والإمكانات الإعلامية المتوافرة . فالمؤسسة العربية لنقل المعلومات (URSIT) مؤهلة في مجال اختصاصها لتدعيم التعليم عن بعد بنقل ما يمكن نقله من معطيات تربوية بين مختلف الأقطار العربية ، كما أن شبكات المعلومات الموجودة في جامعة الدول العربية واليكسو مطالبتان بالإسهام في ذلك ، كذلك يهيء عربسات إمكانات واسعة ، سواء في مجال الاتصالات العامة كالهاتف والتلكس والبرق ونقل المعلومات من خلال الصور والوثائق والصحف facimile أو في توصيل التعليم النظامي بمراحله المختلفة إلى مجموعات السكان في مختلف المناطق لمحو الأمية وتعليم الكبار والتدريب التقني في مختلف المجالات ونقل المحاضرات الجامعية .

إلا أن استخدام القمر الصناعي العربي من أجل الأغراض الإعلامية والتربوية والثقافية والانمائية بصفة عامة أمر يتطلب التنسيق بين هيئات عديدة على المستوى الوطني وعلى المستوى الإقليمي ، ويستدعي تحديد التزامات مختلفة ، ووضع جدول زمني محدد ، ويحتاج إلى معلومات وبيانات منتظمة من مصادر شتى ، ويتطلب حصرا واقعيا للمشكلات والاحتياجات الإعلامية بصفة خاصة ، والانمائية بصفة عامة .

لقد عرضت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على وزراء الإعلام في اجتماعهم الأخير بتونس وثيقة تتضمن أهم الإنجازات التي يمكن المبادرة بها من أجل توظيف القمر الصناعي العربي في خدمة التربية والعلوم وهي :

* التخطيط لإنتاج حلقات تلفازية تعليمية موجهة إلى الطلبة العرب ، تتناول القضايا الإساسية في مناهج المواد المختلفة ، وتصلح للعرض من خلال الشبكة الفضائية العربية التي قد يتم تنفيذها من خلال إدارات التلفاز التربوي أو في منظمة اليكسو على الأخص .

* التخطيط لإنتاج سلسلة من البرامج التلفازية التعليمية الموجهة إلى المعلمين في الوطن العربي .

* إعداد ندوات عن طريق الاتصالات الفضائية تكون أطرافها في أكثر من قطر عربي في الوقت نفسه ، وتعالج عددا من الموضوعات الأساسية . □

* إنتاج برامج تلفازية في مجالات تبسيط العلوم والتقنية ، بهدف استغلال التقنيات الحديثة في بث برامج الثقافة العلمية لأكبر عدد ممكن من المواطنين في الوطن العربي ورفع مستوى الوعي العلمي والتقني .

* استخدام القمر الصناعي العربي في التعامل مع البيانات وتداولها عبر قاعدة معطيات المنظمة العربية (اليكسو) وقواعد المعلومات في الوطن العربي ،

وتحديد المتطلبات الفنية المناسبة لذلك ، وتدريب القوى البشرية تحقيقا لكفاية استخدامها في هذا المجال .

إن المدرسين وجميع الذين يشاركون في العمل التربوي لا يمكنهم إنكار ما لوسائل الاتصال من صفات تربوية ، فعليهم أن يستفيدوا منها .

وهذا يفترض أن يتدرب المعلم على استخدام وسائل الاتصال لإثراء تعليمه ، وتيسير تنقل التلميذ من الوسط المدرسي إلى الحياة العصرية ، فالمهم هو أن نحسن تربية الجماهير بأقل ما يمكن من الوسائل والتكاليف ، وبما يستطاع من الفاعلية والشمول .
لذلك فإن الأمر يتعلق بالاستعانة بالتقنية العصرية مع ملازمة الحذر وتوخي الوضوح حتى لا تسيطر علينا هذه التقنية أو نقع في هفوات الاستلاب الحضاري .

النتيجة المنطقية

إن النتيجة المنطقية التي يمكن أن نستخلصها من هذا التحليل تتمثل في ضرورة مواصلة التعمق في التفكير ، وإيجاد الملاءمة بين المدرسة ووسائل الاتصال ، مع الاهتمام المتواصل بالتقدم ، وتحسين الظروف الإنسانية ، والعناية باهتمامات بلادنا النامية التي هي أشد حاجة من غيرها إلى العلم والمعرفة ، حتى نتدارك التأخير ، وننتصر على التخلف الذي ما زلنا نتخبط في حبائله .

وستكون سنة ٢٠٠٠ الموعد الحاسم لطرح هذه الاختيارات الأساسيةوالإعلان عن إنشاء الجامعة المفتوحة من خلال الشبكة الفضائية العربية .

فلا بد من الإعداد لهذا الموعد في كل أرجاء الوطن العربي ، يوم يصبح هناك ثلاثة ملايين من الطلبة وعشرة ملايين من المنقطعين عن التعليم في المرحلة الثانية . □

* من حق الحياة علينا أن نؤمن بالاستقامة قبل أن نبدأ العمل ، فما أثمر كفاح زاملته الخطايا .

(د . عبدالرزاق السنهوري)

* تكلم بما تعتقد ، وليكن كلامك مطابقا لما في نفسك .

(شكسبير)

* الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ، ولا يمل ، ولا يعاتبك اذا جفوته ، ولا يفشى سرك .

(ابن الطقطقى)

* الرجل العظيم هو أنفع الناس للناس .

(لطفى السيد)

أعرف قضاة حكموا بالظلم ليشتهروا بين الناس بالعدل .

(قاسم أمين)


قاسم أمين



بقلم : الدكتور محمد المنسي قنديل

لا يزال بنو هلال يركضون فوق تضاريس الوجه العربي ، يعبرون من سنوات القحط إلى سنوات الحرب دون أن يصلوا إلى لحظات السكينة ، يبحثون عن أرض لا تجدب ، وآبار لا تنضب ، ومراع دائمة الخضرة . باختصار يبحثون عن حلم مستحيل وسط البيداء العربية .
ما الذي منح الحياة لهذه التغريبة طيلة هذه السنين ؟

كيف تحولت إحدى ملاحم الحرب والقتال إلى زاد يسكن في وجدان الناس المسالمين ، سواء أكانوا رعيانا في الجبال أو فلاحين على ضفاف الأنهار تمنحهم السلوى والأمل ؟

كيف تداخلت أشعار الحرب مع أغاني الحصاد ، واختلط وقع سنابك الخيل مع ضربات الفؤوس ؟

لماذا بقي أبو زيد الهلالي ، ودياب بن غانم ، والجازية ، والسلطان حسن ، والقاضي بدير ، ومرعي ، وسعدة ، والزناتي خليفة ، على قيد الحياة على الرغم من انتهاء أعمارهم الافتراضية ؟ ولماذا بقيت غربتهم مستمرة ؟

حلم الأرض

سمعت بتغريبة بني هلال لأول مرة من أفواه بعض ورثتها الحقيقيين . كنت أعمل طبيبا صغيرا في إحدى قرى صعيد مصر ، قرية معزولة على بحر اليوسف ، لا يصلها بالمدينة إلا طريق وعر متقطع ، ولا ينير ليلها إلا ذبالات المشاعل المرتجفة . وكان الليل معلم القرى ، وباعث الرعب في أوصالها ، يطبق عليها فيحولها إلى كتلة مظلمة ، يخفت فيها صوت البشر ، ويعلو صوت الذئاب . كنت أضيق بصمت الوحدة الصحية ، فأسعى في دروب القرية الضيقة ، يتقدمني الممرض وهو يحمل مصباح الغاز إلى حيث يجتمع الرجال فوق إحدى المصاطب أو

داخل قاعة من القاعات . في هذه الليلة كان هناك شاعر نصف أعمى ، نصف أصم ، يعزف على ربابة لها وتر واحد ، يحاول بواسطته أن يستحضر ملحمة بني هلال بكل ما فيها من صخب ورقة وعنف ووحشية وعذوبة . ولم تكن مهمة المغني صعبة ، فكل ما فعله هو أنه أحدث ثقبا صغيرا في وعي الفلاحين المحدقين به . ومن هذا الثقب انسال كل شيء من أعماقهم . كانت « التغريبة » متأججة بالحياة في داخلهم ، واكتسبت على مر الأيام والسنين نوعا من الحياة الذاتية ، وأصبح لها كيانها المحسوس . كانوا جميعا - وهم الذين لا يجيدون القراءة ولا الكتابة - يحفظون الأشعار وتفاصيل الوقائع وأسماء الفرسان ومعالم البلدان ، كأنما بنو هلال قد أودعوهم سرهم الخاص في لحظة ما . كانوا بمختلف طبقاتهم قد نهضوا في ظلام الليل يؤدون أدوارهم بدقة . الأجراء هم وقود الحرب ، والمزارعون هم الفرسان . والأعيان هم الحكام والأمراء . وظل وتر الربابة الوحيد مثل الصوت الصارخ في البرية يرثي حلم العدل والبحث عن أرض ، والرغبة في الأمان .

كان من الطبيعي أن تمتد رحلة بني هلال عبر الترع والجسور ، ويصبح الفلاحون هم ورثتها ، فقد كان حلمهم هو الأرض الخصبة ، وعلى الرغم من أن أبطال التغريبة كانوا من الفرسان إلا أنهم يتشاركون مع الفلاحين في نفس الحلم ، ويهربون مثلهم من نفس المخاوف ، مخاوف الجوع والإملاق ، وليس أكثر من الفلاح من عرف قسوتها ، لا بسبب الجفاف ونضوب الأنهار ، وتقلب الطبيعة فقط ، لكن بسبب سلب الولاة والجباة ، وحصول الفلاح على الأرض هو أشد أحلامه عسرا ، فالأرض لا تستقبله إلا أجيرا أو منهوبا ، ونادرا ما تستقبله مالكا . كان فارس الملك يركب الجواد ويركض به إلى حافة الأفق ، ويمتلك كل الأرض التي يقطعها الجواد في المسافة من مشرق الشمس حتى مغربها . وجاء بنو هلال ليحققوا هذه الأمنية المستحيلة ، ساروا من مشرق الأرض العربية حتى مغربها ، وقاتلوا كل فرسان الملك السابقين .

في كل مكان مروا به كان حاكم المكان يصر على منعهم من الراحة ، ويطالبهم بعشر ما معهم من مال وجمال وخيل ونساء ، تماما كما يفعل الجباة مع الفلاحين حين يصرون على تحصيل الضريبة في الزمن الضنك ، ويسلبونهم محاصيلهم وحيواناتهم الضرورية . كان الفلاح - في الواقع - يحاول التحايل على هذا العسف ، يخبيء المحصول ، ويهرب الحيوانات ، ويتظاهر بالضعف والذلة ، لكنه - في زمن الحلم - مع بني هلال يواجه هذا الابتزاز بالقوة ، يرفض منطق الحاكم الظالم ، ويشرع سيفه ، ويبدأ حربه ، ويقتل الحاكم الظالم ، ويولي بدلا منه الذي يعده بأن يكون عادلا ، ولا يخرج الأمر عن مجرد الوعد .

وعلى طول المسيرة تتكرر المدن الخيالية ، ويتكرر الحكام ، ويبدو ظاهريا أن هذا تكرار في المكان ، لكنه في حقيقة الأمر امتداد في الزمان ، يحكي قصة كل الحكام الذين صعدوا ووعدوا وأخلفوا واستولوا على أعشار أرزاق الناس ، إنه كابوس النهب وافتقاد العدل . وحتى سيوف بني هلال ليست لها القدرة على رتق الأحلام . وبذا فإن حياتهم فوق هذه الأرض هي تغريبة طويلة ، ما دام هناك حكام ، سواء كانوا غرباء عنهم أو منهم ، فإنهم يتصرفون وفق منطق كل الحكام .

ربما مست السيرة نفوس الفلاحين لهذا السبب ، لكن المثير للدهشة أنها مست أيضا كل أوتار النفس العربية ، كل الذين يمارسون الزرع والقلع والصيد والرعي ، ربما لأنها تحمل شيئا مشتركا في حياة كل هؤلاء ، أو أنها اعتمدت على واقعة حقيقية تمثل شيئا مهما في وجدان ال[illegible]ن العربية .

تبدأ الرحلة من بلاد نجد التي أصابها الجفاف ، وهدفها تونس الخضراء ، لإنقاذ أولاد السلطان الأسرى بها ، لكن بني هلال بدلا من أن يسلكوا طريقا مختصرا عبر مصر - عكس طريق الحج المعروف - إذا بهم يواصلون الرحيل شمالا إلى العراق ، ثم إلى دمشق ، قبل أن ينحدروا إلى

فلسطين وبيت المقدس ، وقبل أن يدخلوا مصر . وهم بذلك يسيرون على نفس خطوات الفتح العربي الإسلامي ، كأنما يعيدون تمثيل نفس الحادثة التي غيرت وجه المنطقة . يقومون بفتح آخر ، يحمل السيوف العادلة ، ويعيد سيطرة القبائل العربية الأكثر نقاء وجوعا على القبائل الشمالية المتخمة ، الأقل نقاء . وهم يعيدون أيضا تمثيل نفس الأعداء السابقين ، العجم والروم ، يعيدونهم إلى المنطقة مرة أخرى ليحاربوهم وينتصروا عليهم ، رحلة خرافية ، وسط مدن خيالية ، ضد ملوك لم يوجدوا ، لكنها تضرب جذورها في جغرافيا الواقع ، وتعيد تركيب جزيئات التاريخ . ألا يكفي هذا مبررا حتى تجد النفس العربية شيئا من ذاتها في رحلة بني هلال . . ؟



إنها ليست ملحمة البطل الفرد ، لكنها تحمل ملامح أبطال كل السير الشعبية الأخرى ، أو بالأحرى ملامح كل جماع الأمة العربية ، فأبو زيد يحمل سواد عنترة ، وخفة علي الزيبق ، ودياب يحمل بطش بيبرس ، وفروسية حمزة البهلوان ، والجازية فيها جمال وشهوة كل نساء السير العربية . أخذ الهلالية كل الصفات التي حددها الخيال الشعبي لأبطاله ، وأضافت إليها لمسة آسرة من الواقعية الإنسانية . أبطال يتحاربون ويموتون على أرض الواقع ، لا سحر ، لا خرافة ، لا أفعال خارقة للعادة ، استبدلت كل هذا بالعقيدة الشعبية التي يؤمن بها الجميع ، وهي « المقدر والمكتوب » المصير الذي لا يفلت منه حي .

هل تكفي هذه الأسباب حتى تبقى على السيرة حيويتها ، أم أن هناك أسبابا أخرى تكمن في بنية السيرة نفسها ؟

رحيل الجياع

بدأت تغربية بني هلال داخل أرضهم بعد أن غير الجدب كل المعالم القديمة ، وطالت مدة المجاعة ، حتى اضطروا للتفكير بصورة مختلفة . لقد أرادوا أن يكسروا الدورة الصحراوية القاسية التي تبادل بين مواسم الجوع والشبع ، أرادوا أن يرحلوا حيث لا مواسم ، وكان عليهم أن يتحركوا مثل قبضة اليد الواحدة ، على الرغم من كل الخلافات المحتدمة في داخلها . اختاروا فارسهم أبا زيد كي يقوم بمهمة الدليل الذي يكتشف لهم مكان الأرض المناسبة ، لكن أبا زيد الذي كان يعاني من عقده الخاصة - سببها على الأرجح لونه الأسود والشك في صحة نسبه - يعتقد أن القبيلة تريد التخلص منه ، ويرفض الرحيل قبل أن يأخذ أولاد السلطان حسن الثلاثة معه .

استغرقت رحلة الاستكشاف خمسين يوما ، وعاد أبو زيد وحيدا لا يحمل معه إلا وصفا للأرض

الحلم ، تونس الخضراء ، لكن أين أولاد السلطان الثلاثة يحيى ومرعي ويونس ؟ لقد وقعوا في أسر حاكم تونس « الزناتي خليفة »، أسرسم جيعا ، وأوشك أن يقتلهم لولا أن تدخلت ابنته« سعدى » وأقنعت والدها أن يطلق العبد « أبا زيد »، حتى يذهب ويأتي بفدية الأمراء . لقد خدعت سعدى أباها للمرة الأولى ، ولن تكون الأخيرة . كانت قد قرأت الرمل وعرفت أن قدرها هو الوقوع في غرام مرعي ، وقدر أبيها هو الموت على يد بني هلال الذي سيقبلون على تونس كالجراد .

تصبح تونس هي هدف بني هلال . تجمع قواها وتستنفر كل بطونها ، يقودهم الأمير حسن بن سرحان ، وأبو زيد الهلالي ، ودياب بن غانم ، والقاضي بدير بن فايد . بل وأرسلوا أيضا يستدعون « الجازية » أخت السلطان حسن البارعة الجمال الصائبة المشورة ، فتركت زوجها أمير مكة وأولادها ولحقت بهم .

تبدأ سنوات حرب بني هلال ، في كل مكان يهبطون إليه هناك . حاكم ظالم يقف في وجههم ، لا يمنحهم إذن العبور ، ولا فرصة الراحة ، يفرض عليهم معركة يحاولون عبثا أن يتجنبوها . ويدفع بنو هلال ثمن كل خطوة من خطوات رحلتهم بالدم . يأتي ملوك العجم والروم ، وحتى ملوك الجاهلية القديمة ، يستيقظون من الماضي ، يحملون كل رموز المظالم ، ثم يكتسحهم طوفان بني هلال . حاكم واحد تبعهم هو ورجاله ، هو الخفاجي بن عامر الذي وقع في غرام الجازية التي لا سبيل لقلبها إلا الموت . وسوف تصبح « الجازية » باستمرار مثل هيلانة طروادة ، الجميع يتمنونها ولا يحصلون إلا على الدمار .

ثم تبدأ مشاكل بني هلال الحقيقية حتى أسوار تونس المنيعة ، فالزناتي خليفة مولود من تزاوج بين أنسية وجان مستعص على الموت ، قدره فقط أن يموت على يد دياب بن غانم ، لكن الصراع الخفي داخل بني هلال قد أصبح عاليا . غرته الممالك التي دانت والانتصارات التي تحققت ، واعتداد دياب بنفسه ، وطمعه في عرش السلطان . وكانت الخطة التي دبرتها الجازية هي الانتصار بدونه ، وإبعاد دياب عن مكان المعركة بحجة رعاية الأنعام ، أو « البوش ». وأدرك دياب منذ البداية أنهم يحاولون إبعاده ، لكنه فضل أن يطيع ويبتعد حتى يشعروا بمدى افتقارهم إليه .

ولابد أن الأقدار التي حبت بني هلال طويلا قد قررت أن تعاقبهم . أصيب أبو زيد بلدغة ثعبان ورقد عاجزا ، وبدأ الزناتي يهاجمهم بضراوة وقد أمن الموت . قطع تسعين رأسا من فرسانهم وعلقها على الأسوار . وأخذ بنو هلال يترنحون تحت ضربات الهزيمة الوشيكة . حتى بعد أن تسللت سعدى وأعطت الترياق لأبي زيد لم يفد رجوعه إلى القتال في تحويل دفة المعركة . مقدور أن الزناتي لا يموت إلا على يد دياب ، ودياب بعيد ، وأبو زيد والسلطان لا يستطيعان التراجع والإقرار بالهزيمة . وبدأ أفراد القبيلة يرسلون لدياب أن يعود وهو يرفض . لم يكن يقبل أقل من التسليم والاعتراف بالعجز من الذين أبعدوه . وتحت وطأة الهزائم سافر غانم والد دياب يحمل إليه رسالتين مزيفتين على لساني السلطان وأبي زيد . وقبل العودة أخيرا .

أدرك الزناتي أن نهايته قد حانت ، وأن قدره يركض تحت الأسوار ، يتحداه ويطلب منازلته أغلق أبواب المدينة واحتفظ بالمفاتيح وجلس يرتجف . قفز دياب فوق الخندق بجواده ، وأنذر الجميع أنه سوف يقفز فوق أسوار المدينة . وذهبت سعدى بدوافعها الغريزية الغامضة تحث أباها على الخروج ، وتواصل خداعه بحلم مزيف ونبوءة كاذبة عن انتصاره . وكانت مهانة الزناتي قد بلغت مداها ، ولم يبق أمامه إلا أن ينهض ويخرج ، وينقذ شرفه كفارس وكملك بالموت . خاض معركته الأخيرة البائسة وهو يعرف نتيجتها سلفا . وسقطت تونس ، حلم الهلالية الأخضر .

هل استكان بنو هلال ؟ هل وصلوا إلى أرضهم الموعودة ؟

لقد حانت لحظة تصفية الحسابات المؤجلة ،

واستيقظت التناقضات والصراعات التي كانت غافية . وضع دياب يده على تونس بلا حساب ، وجلس على عرش الزناتي ، وضم سعدى إلى حريمه على الرغم من أنفها وأنف مرعي وأنف السلطان حسن . وعندما أصر السلطان على استردادها تحداه وقتلها . فاحتال السلطان حتى أدخله السجن ليذل فيه روح الفارس المقاتل ، لكن دياب استطاع أن يفلت ويذبح السلطان دون رحمة . ونهض أبو زيد كي ينال ثأر السلطان ، لكن لحظة من التردد القاتل أرقت روحه . إن أبا زيد لم يكن فارسا خالصا ، كان يحمل في داخله إحساس الناس البسطاء الذين يذهبون دائما وقودا للحرب ، وكان يدرك أن بني هلال قد حاربوا أكثر مما ينبغي . إن حرب الأهل هي أمر أنواع الحروب ، لذا قرر أن يعفوا وأن يتصالح وأن يمد يده إلى دياب ، لكن دياب الذي بدأ رحلة الدم لم يكن يستطيع التراجع . كان موقنا أن أبا زيد هو العقبة الباقية أمامه حتى يصبح حاكما مطلقا ، لذلك انتهز رحلة للصيد وقتل أبا زيد غدراً . أصبح دياب هو فارس الملك الأوحد الذي أخذ كل الأراضي التي ركضت خيول بني هلال في سهولها ، كل ثمن الدم وميراث الجوع وأحلام العدل ولحظات السكينة والراحة . واضطرت الجازية أن تأخذ أولاد أخيها الأيتام وأن ترحل بعيدا ، وأن تسهر عليهم حتى يكبروا ويشبوا وتزداد قوتهم ويصبحوا قادرين على أخذ الثأر من دياب . بدأت دورة الحكام ، واحد يأتي ، ويصعد ، ويتحول إلى طاغية ، حتى يأتي من يخلص الناس من شره ، ولا تتوقف الدورة ، فلا الظلم ينتهي ولا العدل يجيء .

مرة أخرى تتمثل السيرة إحدى الحوادث التاريخية الكبرى ، ومثلما تمثلتها في رحلة المكان تمثلت امتدادها في الزمان ، فهي تحكي قصة الدولة العربية الكبرى في صعودها وازدهارها ، ثم في تحللها وانبهارها . تتبدل الوقائع ، وتتغير الأسماء ، ويبقى الجوهر كما هو ، فالراوي لا يقف عند الانتصار النهائي لبني هلال ليقول : « عاشوا في سرور وانشراح حتى أتاهم هادم اللذات ومفرق الجماعات » ، لأنه يدرك بمعرفته التاريخية لوقائع الأيام أن النصر حلم قصير الأجل ، وأن الفرقة مثل السوس الذي ينخر في عظام الأمة . لقد بدأت بذرة الهلالية في التكون في القرن الرابع الهجري ، وسط واقع عربي مؤلم . هناك خليفة عباسي في بغداد ، وفاطمي في مصر ، وألف خارجي ، وشيعي ، وألف سبب للفرقة والتناحر .

ولم يكن الراوي الذي يمتلك حس الشعب قادرا على خداع نفسه ، ولم يغمض عينيه عن النبرة المأساويةالتي تربض في ثنايا المقدر والمكتوب .

ولعل في بنية السيرة بهذا الشكل سبب آخر من أسباب بقائها . فهي لا تبتعد عن الواقع ، بل تعيد بناءه بكل ما فيه من بهاء الحلم وفجيعة السقوط ، تحمل النبوءة والنذير بأن وحدة الأمة العربية هي خلاصها ، وفرقتها هي الانهيار الأكيد .

صورة جانبية

لكن ماذا عن الواقع النفسي للسيرة . سلوك الأبطال ، ردود أفعالهم ، مركبات نقصهم ، وعوامل قوتهم ؟ وكيف استطاع الوجدان الشعبي أن يخلق هذه الشخصيات المركبة التي تخالف ما اتفق عليه العقل البدائي من تصوره للشخصيات ذات الجانب الأحادي ؟

شخصيات السيرة هي أيضا ثمرة تجربة الشعب العربي . ومع كل رواية يبرز أحد الأبطال كأنما تحمل كل شخصية ملمحا نفسيا وعرقيا لكل جماعة عربية . في مصر يبرز أبو زيد وهو يأخذ طابع ابن البلد الشجاع المرح البسيط . وفي ليبيا تسود رواية دياب بكل ما فيه من فروسية وصرامة ومطامح . وفي تونس تثير الجازية شهوة الأنثى وقوة المرأة التي تخوض القتال بكل أسلحة الفتنة والإغواء . كل جماعة تعيد تشكيل الشخصية وفق حاجتها النفسية ، وتقنن سلوك البطل ، كما تريده بالضبط .

في البداية يقف أبو زيد الهلالي سلامة ، الفارس المثالي ، أشهر شخصيات الملحمة . الذي لم يكن يستحق المصير الذي آل إليه . ولعل موته هو الذي يعطي الملحمة التي طالما تغنت بالانتصارات تلك

النبرة من التشاؤم . أبوه هو رزق وأمه خضرة الشريفة ، ولا أحد يدري لماذا جاء المولود ذو الحسب والنسب أسود اللون ، لم يكن أحد يدري حينذاك ما نعرفه الآن عن الطفرة الوراثية ، لكن الشائعات أحاطت بسلوك الأم ، وهو الأمر الذي ترفضه المخيلة الشعبية ، وتصر على لصق كلمة الشريفة باسمها . ويورد الراوي مبررا آخر بأنها رأت أحد الغربان وهو يتصارع وينتصر فتمنت أن يكون ابنها مثله . أيا كان السبب فقد قضى أبو زيد طفولة تعيسة في أرض ليست أرضه وأهل ليسوا أهله ، وهو الأمر الذي يحدث دائماً لكل أبطال الأساطير . لكن هذا اللون وهذه النشأة هي التي أعطت لأبي زيد مكانته الخاصة ، فهو يمثل الحلقة الوسطى بين العبيد والسادة ، يحقق ذلك التمازج المستحيل بين الدماء الزرقاء ودماء العامة . وهو يتصرف دائما على هذا الأساس ، يترك السيف ويهبط من فوق الجواد ، ليدخل شوارع المدن المعادية متنكرا على هيئة شاعر جوال أو مهرج أو عبد مجلوب أو حتى جارية ، يستثمر كل جذور الفكاهة والحيل لدى الحس الشعبي أو ما يطلق عليه اسم « الملاعيب »، لذلك فهو حميم الصلة بالوجدان الشعبي ، إنه يعلو بهم ، بلونهم الداكن ، وذكائهم المحدود ، إلى آفاق يستطيعون فيها مغالبة السادة . وأبو زيد لم يخرج للقتال إلا لأنه كان جائعا ، ولم ينس ذلك أبدا ، فلم يصب بالتخمة ، ولم يطمع في غنيمة غيره . وعندما عرضت الجازية نفسها للزواج منه لم يأبه بذلك ، على الرغم من أن هذا الأمر يمنحه شرف مصاهرة الملوك ، لكنه يرفض متمسكا بزوجته القديمة . إنه فارس مثالي كما قلنا ، حاول أن يبقى على نفس مثاليته حتى بعد أن ولى الزمن وتغيرت الظروف . وبعد أن حكم جياع نجد مشرق الأرض ومغربها ، وأشرع دياب أظافره الملوثة بالدم حاول أن يتصرف التصرف الشعبي المألوف ، وهو أن الصلح خير ، فإذا بهذا الخير يكلفه حياته . وحتى قتله جاء بطريقة « الملاعيب ». لقد فهم دياب شخصيته وتلاعب به ، وعندما كانا يشتركان في رحلة الصيد صرخ فيه : خذها من دياب ، والتفت أبو زيد مفزوعا ، فوجد دياب يمد له يده وفيها سنبلة من القمح ، أي عذوبة في تلك الإشارة لجائع سابق ، وأي وعيد تخفي تحتها ، لقد ظل دياب يكررها ثلاث مرات ، وأبو زيد يلتفت ضاحكا ، ثم هوى على رأسه بالدبوس في المرة الرابعة محطما رأسه الذي طالما دوخ الأعداء ، ومات فارس « الملاعيب » بملعوب لا يتفق مع مواهبه .

أما دياب بن غانم فقد كان متناسقا مع نفسه حتى النهاية ، وهو يتحول من فارس إلى حاكم ، ومن حاكم إلى طاغية . تزوج أبوه عشر نساء جميلات دون أن ينجب منهن ، ثم اضطر في النهاية لأن يتزوج أشد النساء دمامة في القبيلة ، حتى أنه لم يجرؤ على النظر في وجهها وهو يدخل بها . ولم يبق على عشرتها إلا إكراما لذلك الولد الوحيد الذي يحمل اسمه . وقد أعطى هذا لدياب إحساسا بالتفرد منذ طفولته ، وولد التفرد في داخله طاقة من العناد والرغبة القاسية في الحصول على ما يريد ، وعدم نسيان الإساءة . وكان يدرك أنه صمام الأمان لبنى هلال ، ويتعمد أن يدخل ميدان القتال متأخرا . عندما يحسون بحاجتهم الماسة إليه . ومنذ خطوات التغريبة الأولى وهو يسعى للعرش . زوج أخته للسلطان حسن ، وسعى لكي يتزوج من الجازية ، لكنها رفضته ، فلم ينس لها ذلك ، وقتلها دون أي تردد في مبارزة غير متكافئة . وبعد أن قتل الزناتي أدرك أنه يريد كل شيء ، العرش وسعدى وتونس ومشرق الأرض ومغربها ، وفي سبيل هذه الغاية قتل كل من حاول مقاومته . كان حاكما واقعيا ، لا يعترف بأي مثاليات ولا ذكريات قديمة ، ولا حرمة لرفاق السلاح ، وكانت مشكلته الحقيقية هي الزمن . لقد وصل إلى العرش بعد أن كبر في السن ، ولم يعد يستطيع الاعتماد على قوة شكيمته كفارس ، ولذا لجأ إلى زرع الخوف والرعب في نفوس الرعية حتى يشل قدرتها . كان يحمل في داخله دمامة أمه ، فرأى أن إصلاح هذا الكون الدميم لا يتأتى إلا بإسالة المزيد من الدماء . وكان موته استمرارا لدورة الدم التي بدأها .

تبقى الجازية ، ويا لها من امرأة ، جميلة المنظر ،

لطيفة المحضر ، بديعة الجمال.، عديمة المثال في الحسن والكمال ، والقد والاعتدال ، وفصاحة المقال ، لا يوجد مثلها بين الخلق ، لا في الغرب ولا في الشرق . وكل هذه الصفات تمثلت في امرأة واحدة ، كانت تمتلك القدرة ـ في زمن الجواري ـ على تغيير مسار حياتها . تركت زوجها حاكم مكة كي تلحق بقومها في تغريبتهم الطويلة ، ولم تفصح عن عواطفها الدفينة إلا بعد أن أخذت التغريبة أقصى مداها . وعندما رحلت زوجة أبي زيد مغضبة انتهزت الجازية الفرصة أخيرا وعرضت نفسها للزواج بأبي زيد . ولابد أنها انتظرت طويلا . وربما لم تقم بالتغريبة فعليا إلا من أجل هذه الفرصة . كان هذا هو عشقها الخفي الذي لم يجعلها تجرؤ هي ولا حتى راوي السيرة على البوح به ، كان من الصعب عليها وهي أخت السلطان ، وزوجة الأمير ، أن تتزوج فارسا أسود اللون ، مشكوكاً في نسبه ، وهي وسط قومها في أرض نجد ، وسط التقاليد القبلية الصارمة . لكن التقاليد ضاعت في بلاد الغربة ، وولدت سنوات الحرب تقاليد جديدة ، يسود فيها الأقوى . وقد وجدت فيها الجازية الفرصة للتعبير عن عواطفها الجياشة ، لكن المنطق الأخلاقي كان أقوى منها ، فرفضها أبو زيد ، وظل هذا سببا من أسباب تعاستها . كل الرجال الذين رغبوا فيها رفضتهم ، والرجل الوحيد الذي رغبت فيه رفضها . ويبرز دور الجازية قويا بعد أن يموت الفرسان على يد دياب ، فهي التي ترعى الأيتام ، وتهرب بهم بعيدا ، وتعود بهم بعد أن اشتد عودهم ، وتهزم دياب حتى بعد أن ماتت .

تبقى الشخصية اللغز ، شخصية سعدى بنت الزناتي خليفة .

يقول دياب وهو يطعنها : « إن من تخون أباها تخون أي شيء »، وكان محقا ، وعلى الرغم من هذا تصفها السيرة بأنها « من أجمل البنات ، لطيفة الذات ، قد اتصفت بالأنس والمحاسن ، وشاع ذكرها في كل الاماكن ، تحير الأدباء ، وتنادم الملوك والأمراء ، ذات أدب وفضل ، ومعرفة بضرب الرمل . . ». كل هذه الصفات الجميلة كانت تغلف ذاتا مخادعة ، تصل بها إلى حد الخيانة . عشقت مرعي قبل أن تراه ، وعرفت نهاية أبيها قبل أن يخرج بنو هلال من أرضهم ، وأطاعت غريزتها ضد واجبها البنوي ، فخادعت أباها ، وجلبت الموت لقومها ، والسقوط لمدينتها . ساعدت على نفاذ سهم المقدر ، ولم تجن من عشقها وخداعها سوى العار والموت .

كيف رسمت السيرة حدود هذه الشخصية البالغة الرقة والجمال في الظاهر ، البالغة القسوة في الداخل . . ؟

●

هل أحلت غريزة المرأة العاشقة مكان المرأة الطفلة ؟ وهل يصلح هذا مبررا في سيرة يحكمها مثل هذا المنطق الأخلاقي الصارم ؟ هل استبدلت عاطفة البنوة ، أم أن هذه نظرة الراوي المتخلفة للمرأة التي يسكنها الشيطان والتي هي محور الشر في العالم ؟

أم لعلنا نقفز إلى أدوات التحليل النفسي فنقول : إن قتل الأب هنا هو ثورة على السيطرة الأبوية المطلقة ، وقتل الحاكم المطلق ، بكل ما يحمله من رموز الكبت والقمع والانسحاق ، لعله تعبير عن عقد الطفولة المركبة التي تكونت داخل هذا المخلوق الرقيق المسمى « سعدى ».

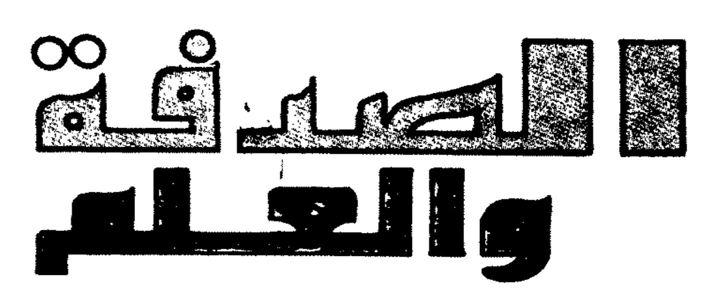
السيرة لا تقدم جوابا محددا ، وتترك الأبعاد مفتوحة ، حتى تضفي كل جماعة صفاتها النفسية على هذه الشخصية اللغز .

من أين يأتي الجراد . . ؟

« بعيد الإسلام انتشرت قبيلة بني هلال مثل سحابة من الجراد . . . . »

هكذا يصفهم ابن خلدون ، لكن بني هلال لم يكونوا جرادا يحمل الشر المطلق ، أو الجوع النهم ، لقد كان يحدوهم شوق طاغ للعدل المفتقد . أرادوا أن يقيموا توازنا بين الجوع والتخمة ، لعلهم يصلون إلى حافة الشبع الإنساني فوق الأرض العربية .

وما زلنا حتى الآن في حاجة لمن يقيم لنا هذا التوازن الحرج . فمن أين يخرج بنو هلال هذه المرة ؟ . □



الصدفة والعلم

بقلم : الدكتور محمد عبدالرحمن*

يحلو لبعض الناس أحيانا أن يصوروا الاكتشافات العلمية الكبرى على أنها نتائج صدف حدثت فكان الاكتشاف ، وأن ما لم نكتشفه بعد تتكفل به الصدفة ، فهل الأمر بهذه البساطة ؟ !

هذا المقال نقض لمثل هذه المقولات عبر حقائق العلم والتاريخ .

يعطي بعض الناس الصدفة دورا كبيرا في الاكتشافات العلمية ، بحيث تطغى على المجهود البشري في تلك الاكتشافات ، فالذي تسبب في اكتشاف البخار رجل ـ مجرد رجل ـ كان بالصدفة يغلي ماء في إناء مغلق ، ومن حركة الغطاء استنتج أن للبخار قوة ، ومن هنا بدأ استخدام البخار بكل ما ترتب على ذلك من قاطرات وآلات بخارية وتطوير في استخدامات البخار ، وغير ذلك كثير . وبينما كان هناك رجل يستحم شاهد قطعة « فلين » تطفو على سطح الماء ، فعرف قانون الطفو ، فالأشياء الخفيفة تطفو على سطح الماء ، بينما تغوص الأشياء الثقيلة . وباكتشاف قانون الطفو أمكن تطوير صناعة السفن وحساب الغاطس وغير ذلك كثير أيضا . أما الجاذبية الأرضية فاكتشافها كان وليد الصدفة أيضا ، حينما سقطت تفاحة على رأس نيوتن فعرف من ذلك الجاذبية الأرضية . وكذلك اكتشاف البنسلين ودور الصدفة فيه . وغير ذلك كثير . لكن ماذا يترتب على ذلك ؟ يترتب على ذلك منطقيا ألا نتعب أنفسنا أو نجهد عقولنا ، فنحن محكوم علينا أن ما لا نعرفه اليوم هو غيب عنا ، وهذا الغيب مقسم إلى أقسام ، قسم منه غيب عن فرد ولكنه معلوم لفرد آخر ، وهذا ليس غيبا . وقسم آخر هو غيب بالنسبة لزمن ما ، فما يكتشف الآن كان بالضرورة غيبا بالنسبة لمن عاشوا فيما مضى . وهذا القسم من الغيب يدخل تحت عباءته كل ما يكتشفه العلماء فهم يكتشفونه حينما يريد الله سبحانه وتعالى لهذا الجزء من الغيب أن يكتشف . إلى هنا ليس ثمة مشكلة ، ولكن تبدأ المشكلة بعد ذلك ، فقليل من الغيب المرهون بزمن ما ، يعرف عن طريق البحث أو السبب والنتيجة ، ويتوصل إليه العلماء خلال قيامهم بربط الأسباب بالنتائج ، أما معظم هذا الغيب الذي هو العلم والاكتشافات العلمية فهو يتم مصادفة ككل الحالات التي ذكرناها .

لماذا ؟

مرة أخرى ماذا يترتب على ذلك ؟

يترتب عليه من ناحية أن علينا أن ننتظر الصدفة ، فلو كانت أقدارنا تسمح لنا بالكشف أو الاكتشافات لتم ذلك في حينه ، ويترتب عليه من ناحية أخرى سؤال مهم هو :

* استاذ الكيمياء غير العضوية ، بكلية العلوم ، جامعة الاسكندرية

طالما أن معظم الاكتشافات العلمية التي غيرت العالم وأثرت فيه ، قد تمت بالصدفة ، إذن فلماذا تمت جميعها في دول الغرب ؟ ولماذا اختارت الصدفة أولئك العلماء الغربيين ، من أرسطو حتى هؤلاء الذين حصلوا على جوائز نوبل في العالم المنصرم ؟! .

هذا السؤال وغيره يبدو لنا أكثر أهمية وأعظم خطورة لعدد من الأسباب، منها :

أولا : نحن كأمة عربية أو كعالم إسلامي نعاني معاناة شديدة من تخلف حقيقي ، شئنا هذا أم أبيناه . ويجب بالضرورة على كل فرد منا أن يدفع شبح التخلف وأن يزيل أسبابه بكل ما أوتي من قوة .

ثانيا : ترتيبا على السبب الأول فإن الأمة العربية والعالم الإسلامي يعتمدان على الغرب ، في كل ما لديهما من علوم وتقنيات ، من آلات وأجهزة ، من مصانع وأدوية ، ومن كل ما هو نتاج العلم التجريبي على وجه العموم . إذن فنحن عالة حقا على كل منتجات الحضارة الغربية والعلم الغربي ، فإلى متى نظل هكذا ؟

ثالثا : ليس هناك شك أو جدال في أن الرافد الحقيقي الأول ـ إن كان ثمة رافد آخر ـ للتقدم الآن هو العلم ، والعلم التجريبي على وجه التحديد ، فالذين صعدوا إلى القمر لم يصعدوا إليه بهمهمات غير مفهومة أو بتمتمات على شفاه طيبة .

يترتب على ذلك أن كل من يهمه مصلحة الأمة العربية والعالم الإسلامي وصالحهما لا بد أن يبحث عن سبب التقدم أو أسبابه إن كان ثمة أسباب أخرى وليعمل على تنمية تلك الأسباب والتوعية بها .

رابعا : إن الأمة العربية والعالم الإسلامي إذا كانا يريدان بحق أن ينهضا مما هما فيه من عثرة ، وأن يصحوا من تخلفهما فليس إلا أن يعتمدا على نفسيهما ، إذ لا يوجد أمام هذه أو ذاك أي بديل آخر ، اللهم إلا إذا كان المزيد من التخلف هو المطلوب . لذلك أيضا يصبح من غير المفهوم أن ينظر إلى الاكتشافات العلمية بمثل تلك النظرة الداعية إلى تكريس ما نحن فيه من تخلف وجهالة ولا مبالاة .

لكل تلك الأسباب وغيرها يصبح السؤال الذي طرحناه غاية في الأهمية ، لذلك كان الواجب يقتضي على من أخبرنا أن الصدفة هي التي تلعب الدور الرئيسي في الاكتشافات العلمية أن يفسر لنا تلك الحقيقة البسيطة وهي أن جميع الاكتشافات العلمية تمت على أيدي علماء الغرب وحدهم ، فعصر البخار بدأ عندهم بصرف النظر عن السبب وليس في هذا



شك ، كما أن عصر الفضاء وارسال أول إنسان إلى القمر تم عندهم كذلك ، مثل جميع الاكتشافات الهائلة في مجالات الفلك والطب ، وفي الكيمياء كما في الطبيعة أو الفيزياء ، وفي هندسة الوراثة كما في الحاسبات الآلية ، بل وكل ما هو مذهل وعظيم في جميع الحالات والمجالات ، فلماذا كان اكتشاف كل ذلك وقفاً عليهم وحدهم ؟ ! لماذا لم يصادف كشف من تلك الاكتشافات الهائلة ، أو كشف أصغر ، واحد ـ أحد الآحاد ـ من أبناء العالم التعيس ، المدعو بالعالم الثالث ؟ ! لماذا لم نكتشف حتى الآن من خلال ما نقرأه أو نعرفه نظرية علمية قبل أن يكتشفها الآخرون ؟ ولماذا يهلل بعضنا بعد كل اكتشاف ويقولون إن هذا الاكتشاف أو ذاك موجود عندنا بحذافيره في كتابنا الأول ؟ إذن فلماذا لم نكتشفه قبل ذلك ؟ وهل لو قلنا بعد اكتشاف النظرية الذرية أنها موجودة في القرآن الكريم ومعروفة وليس هناك جديد فقد جاء في القرآن « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، نقول هل لو قلنا ذلك نكون قد أدينا خدمة للإسلام ؟ أم أثبتنا سذاجة الذين يقولون بذلك ؟ وهل الإسلام كتاب في علم الطبيعة أو الكيمياء حتى ننتظر منه بعض ما تقول الكيمياء أو الطبيعة أم أن الأمر مختلف عن ذلك بكثير ؟

إنه من الإخلال الكبير بمعاني الأشياء ، وتبسيطها إلى حد بعيد أن يقال إن الصدفة هي التي قادت وتقود إلى معظم الاكتشافات العلمية . كما أنه ليس مفهوما بأي حال تلك السخرية اللاذعة وذلك الاستخفاف الشديد بالعلم التجريبي !!

وحتى نتأكد من أن الصدفة لا تأتي هكذا خبط عشواء ، وإلا لكانت تلك الصدفة قد صادفت واحدا ، واحداً فقط من بين الملايين الذين يعيشون في دول العالم الثالث . فلا أحد ينكر أن عددا لا يحصر من البشر ، ربما ملايين الملايين منذ وجد الإنسان على الأرض وحتى لحظة اكتشاف نيوتن للجاذبية الأرضية ، قد سقط أمام كل منهم تفاحة أو قطعة حجر ، من أعلى شجرة أو من أعلى جبل ، فالأمر سيان . كما أن عددا لا حصر له من البشر قد رأى بأم عينيه أنه لو قذف حجرا إلى أعلى لارتدّ الحجر مرة أخرى إلى الأرض ، ولو كان الأمر أمر صدفة لاستطاع واحد من أولئك الملايين إن لم يكن أكثر من واحد أن يتوصل بسهولة إلى قانون الجاذبية الأرضية ، فلا شك أن واحدا من هؤلاء الملايين في مستوى ذكاء ، إن لم يكن أذكى من اسحق نيوتن ، ومع هذا لم يكتشف تلك الجاذبية أحد قبله على الرغم من كل الأعمال التي قدمها ارسطو وجاليليو والبيروني وغيرهم . اذن فلماذا يكون المكتشف اسحق نيوتن وليس غيره ؟

حتى نجيب على ذلك السؤال ، دعنا نرى بإيجاز ما قام به نيوتن من بحوث ، وكيف كانت حياته كلها مرتبطة بدراساته وعلومه وبحوثه التي لم يقف بها فقط عند قانون الجاذبية ، لكنه بدون منازع كان صاحب الفضل الكبير في علوم « الميكانيكا » ، بل وفي بداية السببية كلها .

إجابات أمينة

لقد قدمت أعمال نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) إجابات أمينة ومتكاملة للأسئلة التي أثارها ارسطو ، كما أن تلك الأعمال تمثل واحدا من أعظم المساهمات التي قام بها شخص ما حتى تفهم البشرية ذلك الكون . لقد طور صورة للكون على أنه عالم دقيق غاية في الإحكام ، يسير بطيئا بآلية متقنة كساعة غاية في النظام خاضعا لقوانين في منتهى الدقة والوضوح . إن نيوتن الذي ولد بعد عام واحد من وفاة جاليليو ، قد استمر على خطاه ، وتابع أعماله في عديد من الاتجاهات المهمة ، خصوصا بالنسبة « للميكانيكا » . ومثل جاليليو كان أعظم علماء عصره بلا منازع ، فقد قام بمساهمات مهمة في الرياضيات والضوئيات وظاهرة الموجات كما ساهم في « الميكانيكا » والفلك ، وتكفي واحدة فقط من مساهماته تلك لتبوئه مكانته العظيمة التي احتلها في التاريخ .

لقد بدأ اهتمام نيوتن بالآلات التجريبية منذ طفولته ، حيث أبدى مقدرة فائقة على صنع نماذج أصلية لطواحين الهواء ، وساعات الماء ، والساعات

الشمسية . ونظرا لقدراته الفذة فقد استطاع الالتحاق بجامعة كمبردج حيث أظهر مقدرة غير عادية في الرياضيات .

لقد تأكد الآن أنه قضى الفترة من عام ١٦٦٠ ـ بعد أن أنهى دراسته الجامعية ـ حتى عام ١٦٦٧ في صياغة نظريات ذات الحدين في الرياضيات ، وتطوير حساب التفاضل والتكامل ، ودراسة التحليل الطيفي للضوء الأبيض ، كما بدأ دراسة « الميكانيكا » والجاذبية . وفي عام ١٦٦٧ عاد إلى كمبردج محاضراً في جامعتها . وفي عام ١٦٦٩ شغل منصب الاستاذية فيها لعلم الرياضيات . وفي عام ١٦٨٧ نشر أهم أعمال « المبادىء الرياضية في فلسفة الطبيعة » أو باختصار «« المبادىء » أو « برنسيبا » . وهذه « المبادىء » تمثل واحدا من أعظم ما أنجزه العقل البشري ، وعلى الرغم من ذلك فقد قال نيوتن عن نفسه : إذا كان بإمكاني أن أرى بعيدا فذلك لأنني أقف على أكتاف العمالقة . حقا لقد كانت أعمال نيوتن امتداداً لمن سبقوه مثل ارسطو ، وكبلر وجاليليو ، كما استفاد من أفكار كل من بيكون وديكارت وهوك .

إذن لقد كان اهتمام نيوتن الأساسي ومنذ البداية منصبا على دراسة الحركة وقوانينها ، وهكذا قدم للبشرية القانون الأول للحركة ، وهو ينص على أن « كل جسم يحتفظ بحالته من سكون أو حركة منتظمة في خط مستقيم ما لم تؤثر عليه قوة خارجية » .

هذا القانون يعرف أيضا بقانون القصور الذاتي ، وحتى نعرف دور هذا القانون أو القصور الذاتي دعنا نتعرف على حركة سفينة الفضاء في الفضاء الخارجي . فلو عدنا إلى كيفيةوصول رواد الفضاء إلى القمر ، سنجد أن سفينة الفضاء التي تنقلهم تنطلق من قاعدة الإطلاق حتى تأخذ مدارا حول الأرض ، وبعد ذلك ـ بعد التأكد من أن كل شيء على ما يرام ـ تطلق الآلات الصاروخية عدة دقائق حتى تخرج من المجال الأرضي وتبدأ في الاتجاه ناحية القمر .

وبمجرد أن تصل إلى السرعة والاتجاه المناسبين ، يتم إغلاق الآلات الصاروخية من هنا يتمكن رواد الفضاء أن « يبحروا » مدة ثلاثة أيام ويقطعوا خلالها ٢٤٠,٠٠٠ ميل إلى أن يصلوا إلى مكان مناسب من القمر . أحيانا وليس غالبا ، فإن على الرواد أن يطلقوا آلاتهم الصاروخية دقائق قليلة عند نقطة منتصف المسافة تقريبا ، ليس بهدف تغيير السرعة ، ولكن لتصحيح الاتجاه . المهم هنا أن الرحلة تستخدم القصور الذاتي (أو هذا القانون الأول لنيوتن) ليحرك مركبتهم بسرعة كبيرة متنظمة (حوالي ٣٠٠٠ ميل في الساعة) . إن القصور الذاتي كما اكتشفه نيوتن يقوم بعمله أو بدوره خير قيام ، لأنه لا توجد مقاومة تؤثر على المركبة في الفضاء .

ثم قدم للبشرية القانون الثاني للحركة حيث « معدل التغيير في كمية حركة الجسم تتناسب تناسبا طرديا مع مقدار القوة المؤثرة عليه ويكون في اتجاهها » ، ولعل هذا من أكثر القوانين التي يستخدمها العلماء والمهندسون في حساباتهم .

كما كان للقانون الثالث للحركة وهو الذي ينص على « أن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه » تطبيقات كثيرة منها الطائرة النفاثة .

يضاف إلى ذلك قانون بقاء المادة ، ثم قانون بقاء كمية الحركة ، فجميع تلك القوانين قدمها أو اكتشفها نيوتن ، ولعلها جميعا لم تدخل في اكتشافها الصدفة ، أي صدفة ، فلم تكن في حاجة إلى سقوط تفاحة حتى يتم اكتشافها .

قصة غير حقيقية

لقد اعتبر نيوتن أن الأجسام الساقطة تتسارع ناحية الأرض لأن الأرض تجذب تلك الأجسام . لقد قيل إن الفكرة الأساسية لقانون الجاذبية قد استنبطها نيوتن من سقوط تفاحة على رأسه ، غير أن هذه القصة غير صحيحة ، ولسيت بالتأكيد قصة حقيقية ، ولكن نيوتن سجل أنه بينما كان يفكر في كيفية « إمكانية » وصول الجاذبية إلى أعلى تفاحة على الشجرة وجذبها إلى أسفل ، بدأ يندهش لأول مرة ، من المدى الذي يمكن أن تمتد إليه الجاذبية .

ولقد كان يعرف أن الجاذبية الأرضية تصل حتى

إلى أعلى من الجبال ، ومنها استنتج أن تأثير الجاذبية يمتد إلى الفضاء . أخيرا فقد كان يتساءل إذا ما كانت الجاذبية الأرضية تمتد إلى القمر في مداره الذي يسير فيه ، بعد ذلك تحقق من أن القمر أيضا « يسقط » ناحية الأرض ، لأن سرعته تتغير دائما (في الاتجاه) حيث يكون اتجاه التسارع عموديا على حركته الدائرية وبالتالي يشير إلى الأرض في مركز مدار القمر .

لأن هذه القوة تغير اتجاه القمر فهي القوة الجاذبية المركزية . وكذلك فإن الكواكب تسقط ناحية الشمس لأن اتجاهات تسارعها في مداراتها البيضاوية تشير ناحية الشمس ، وطالما أن التسارع يمكن أن يوجد فقط حيث توجد قوة مؤثرة فإن الشمس لا بد أن تجذب الكواكب . لهذا فقد استنتج نيوتن أن نفس نوع القوة ـ قوة الجاذبية ـ لا بد أن تكون موجودة خلال الكون بأسره .

واضح إذن مما سبق أن الأمر ليس بسيطا إلى حد أن يستنتج نيوتن كل تلك القوانين من مجرد سقوط تفاحة على رأسه ، إن هذا القول تبسيط مخل بالمجهود العظيم والعمل الرائع والتفكير العبقري الذي قام به نيوتن . وهو تبسيط ساذج مخل بكل ما يقدمه البحث العلمي من معرفة واكتشافات ، ولو سقطت ملايين التفاحات على رأس شخص لا يهتم بحركة الأجسام ولا تؤرقه تلك المشكلة ، فلن يرى في سقوط التفاحات أكثر من طعام يلتهمه سعيدا مع خالص شكره للرزاق رب العالمين .

وعلى الرغم من معرفة عدد لا بأس بِهِ من البشر بموضوع الجاذبية الأرضية ، وعلى الرغم من التقدم العلمي الهائل ، فإنك لو سألت فردا لا يعرف الجاذبية أو لم يسمع عنها ، فلن يستطيع الربط بين سقوط الأشياء وبين الجاذبية . وقديما كان أرسطو يقسم الأشياء إلى عناصرها الأربعة كما يقول : الماء والتراب والهواء والنار ، وكانت تلك العناصر هي التي تتكون منها جميع الأشياء ، وكان يعتبر أن الأشياء التي تتكون من العنصرين الأولين ـ التراب والماء ـ تنتهي حركتها إلى الأرض حيث الأرض هي المكان الطبيعي لهما ، كما أن النار والهواء يرتفعان طبيعيا إلى أعلى ، أي أنهما يميلان إلى الصعود إلى السماء ، حيث المكان الطبيعي لسكونهما . إذن فقد فسر ارسطو حركة الأجسام عند تحررها ـ كالتفاحة مثلا عندما تنضج فتسقط ـ على أنها نتيجة لرغبة الأشياء في أن تكون أكثر كمالا ، كما اعتقد أن الطين والماء يكونان أكثر كمالا كلما تحركا إلى أسفل ناحية المكان الطبيعي لسكونهما .

وقفة للتساؤل

عند هذه النقطة لا بد أن نقف قليلا ونتساءل :ـ

لو أن نيوتن لم يتوصل إلى قانون الجاذبية ، فهل كان هناك من سيكتشفه بعد ذلك ؟ والإجابة على هذا السؤال هي نعم بالتأكيد ، وحتى لو لم يكن هناك اسحق نيوتن ، فلا بد أن يوجد من يتابع أعمال ارسطو وجاليليو وكبلر وغيرهم حتى يتوصل إلى تلك القوانين ، كما كان هناك من تابع أعمال نيوتن وتوصل إلى كل مانعرفه اليوم من قوانين الفيزياء والرياضة ، وعلى الرغم من ذلك فلا بد من التأكد من شيء جوهري وأساسي وهو أن هؤلاء جميعا جعلوا مهتهم وهمهم تلك الموضوعات التي أبدعوا فيها وانصرفوا معها عن كل شيء آخر ، فتوصلوا إلى ما توصلوا إليه من ابداعات واكتشافات وليس الأمر فقط لأنهم عباقرة أو أذكياء ولكن لأنهم بكل تفكيرهم وعقولهم ووجدانهم قد اعتبروا موضوعاتهم ـ موضوعات فقط ـ هي كل همومهم واهتمامهم . ولو أن رجلا عبقريا مثل باستير سقطت على رأسه ملايين التفاحات لما اهتم بها ولا توصل لقوانين الحركة والجاذبية . وليس ذلك ناتج عن قصور في الفهم أو نقص في العبقرية ، ولكن لسبب هو غاية في البساطة ، وهو أن جميع اهتمامات باستير وكل فكره كان مشغولا وموجها لموضوع آخر لا علاقة له بحركة الأجسام أو تجاذبها . ونفس الشيء ينطبق على نيوتن نفسه ، فما كان ليكتشف الميكروبات ، لأن ذلك كان موضوعاً خارج تفكيره وبعيدا عن مرمى غاياته .

من الواضح إذن أن كلمة الصدفة في العلم ليس لها معنى . وكان يمكن أن يكون لها معنى في حالة واحدة وهي أن يكتشف لنا رجل لا يعرف الكيمياء ، مثلا قانوناً في الكيمياء . هنا يمكن أن نقول إن الصدفة هي التي لعبت دورا وليس لذلك الرجل دور . أما أن يكون المكتشف قد أفنى عمره في البحث عن موضوع ما يشغل كل فكره واهتمامه ، ثم يقال بعد ذلك إن الصدفة لعبت دورها الأساسي ، وكأن هذا الباحث ليس له فضل ، فهو استخفاف أكثر من ساذج أو مخل بقيمة العلم والبحث العلمي .

إغلاق العين وإغلاق القلب

والحق أن هذا الاستخفاف يثير عدداً غير محدود من الأسئلة ، فحيث يكون المجتمع متخلفا يصبح من الضروري بمكان على كل الذين يأخذون الصدارة فيه ، أن يكون رائدهم تقدم ذلك المجتمع .

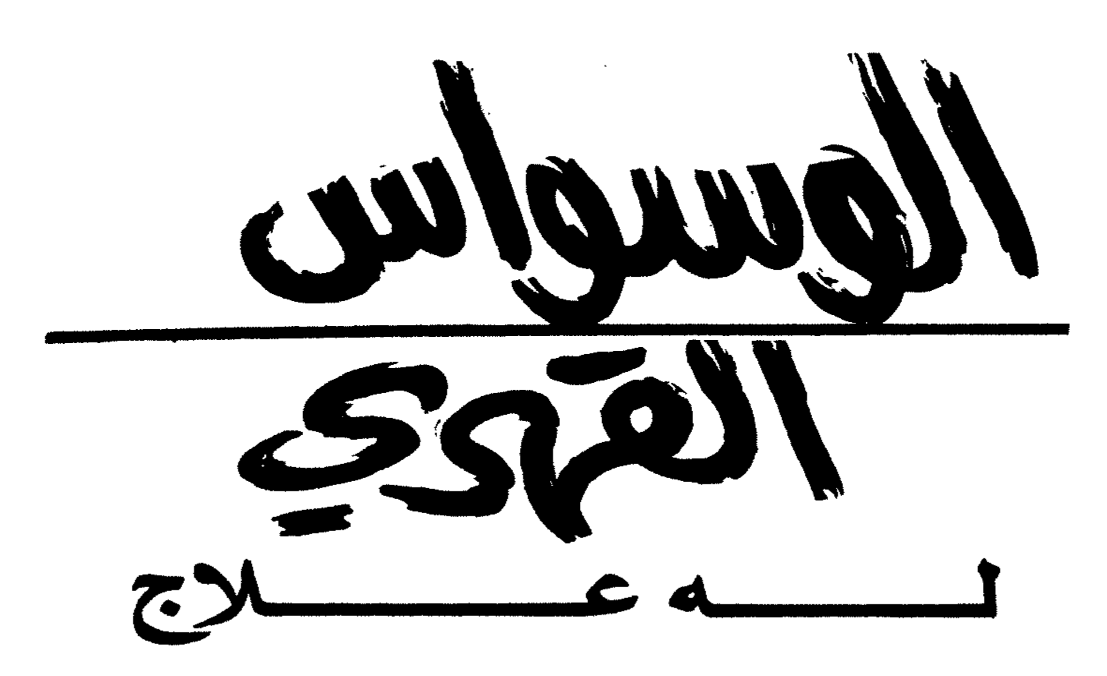
والسؤال الآن ما هي عوامل تقدم المجتمعات في وقتنا الحاضر ؟ لا نقاش بأن العلم ـ العلم التجريبي ـ بكل ما له من جلال هو المصدر الأساسي إن لم يكن الوحيد لتقدم أي مجتمع . والذين لا يرون ذلك عليهم أن يتخلوا لحظة واحدة عن استخدام النتائج الحاسمة للعلم . فحتى أحاديثهم في وسائل الإعلام مدينة ـ من ألفها إلى يائها ـ للعلم . إن دور العقائد هو توجيه الغاية للنتائج التي يقدمها العلم ، فالعلم يقدم حقيقة ما أو يصنع آلة ما من خلال تطبيقاته ، وبعدها وقبلها يكون الدور المهم للعقائد والأديان وللفلسفة والاجتماع في توجيه تلك الحقيقة العلمية أو التقنية لخير البشرية ، وفي الاتجاه الذي يخدم الانسانية ، ويعلي شأن الانسان ، ويعطيه مزيدا من الرفاهية ، ويؤكد على إنسانية الانسان ، كما يقطع دابر فكر الغاب وقانونه . وعلى سبيل المثال فعود الثقاب هو نتاج علمي ، لكن عود الثقاب يمكن أن يدمر بيتا أو مصنعا أو قرية ، وفي نفس الوقت يمكن للمرء أن يشعل به موقدا لإنضاج الطعام . وهنا يكون للعلم دوره في إنتاج الحقيقة العلمية أو المنتج العلمي ، أيا كان هذا المنتج ، فهو في النهاية حقيقة علمية ثابتة ، ينكرها من ينكرها لكن ذلك لن يغير من قيمتها شيئا . وكما قيل فإن من يغمض عينيه عن النور يضر عينيه ولا يضر النور ، ومن يقفل قلبه عن الحق يضير قلبه ولا يضير الحق . فنتائج العلم وتطبيقاته لا يمكن أن تنكسر ولا تحتاج إلى من يعترف بها ، فالكل يعتمد عليها اعتمادا كليا حتى أولئك الذين ينكرونها . نعم قد تبدأ المشكلة في الهدف الذي تستخدم من أجله . وهنا يكون دور العقائد والأديان في تهذيب الإنسان ، وفي إعلاء إنسانيته ، وفي الدفاع عن قيمه كإنسان ، ومن ثم تحديد الهدف الذي يكون على الدوام من أجل الإنسان ومن أجل رشده وسعادته .

لا أحد يريد للعلم أن يصبح معبودا جديدا ولا إلهاً للعصر ، ولكن الاستخفاف بالعلم ونتائجه التي يعيشها أي فرد في هذا العالم الآن يفقد الذين يستخفون به مصداقيتهم ويعري كلماتهم . وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن الخاسر في النهاية لن يكون العلم بحال .

ونحب أن نذكّر فعسى أن تنفع الذكرى ، فذات يوم بعيد أن اكتشف جاليليو أن الأرض هي التي تدور حول الشمس ، وليست هي مركز الكون كما قال أرسطو من قبله ، وكما ترى الكنيسة استنادا إلى ارسطو . وحين أعلن جاليليو ذلك وأثبته مؤكدا ما ذهب إليه كوبرنيكوس كان للكنيسة موقف آخر . ولعل العالم يدرك الآن مدى ما تعرض له جاليليو من إهانة وسجن وقهر وقسوة ، ناهيك عن أنه أجبر على أن يعلن على الملأ راكعا على ركبتيه ما يلي : ـ

« أنا جاليليو لكوني الآن في السبعين من عمري ، ولكوني سجينا راكعاً على ركبتي أمام رفعة مقاماتكم ، ولما كان الانجيل المقدس أمام عيني وألمسه بيدي فإنني أشجب وألعن وأحتقر ما قيل وكتب من خطأ وبدعة حول حركة الأرض » .

ومع هذا فلم يصح غير الصحيح ، ولم يخسر جاليليو ، كما لم يخسر العلم ولكن خسرت الكنيسة . □



الوسواس القهري له علاج

بقلم : الدكتور دري حسن عزت

الوسواس معروف منذ القدم ، وقد جاء ذكره في القران الكريم وجاء في وصفه بأنه الخناس الذي يوسوس في صدور الناس . وحالات الوسواس ليست نادرة الانتشار ، فهي تنتشر بين الناس بشكل عام بمعدل حوالي واحد في الألف . وهناك من يعانون من أعراض الوسواس وهم لا يعرفون طبيعة هذه الأعراض ، وهل هي مرض أم غير ذلك ؟ ويعانون في صمت وتخف دون أن يتلقوا أي علاج . فما الوسواس ؟ وما تعريفه العلمي ؟

يظهر الوسواس كفكرة أو صورة ذهنية متخيلة أو دافع داخلي مثل الهاتف أو كحركة بدنية سلوكية ، تفرض نفسها على المريض ، وهو يعرف انها غير عقلانية وليست منطقية ويحاول إزاحتها عن دائرة الشعور ،ويقاوم سيطرتها عليه ، لكنها تعاوده وتفرض نفسها عليه ، ويتكرر هذا مرارا ، فينشأ صراع نفسي بين عمليتي الفرض والمقاومة ، مما يؤدي بالمريض إلى حالة من التوتر والقلق وعدم الاستقرار أو إلى نوبات حادة من الاكتئاب .

وليست كل المظاهر الوسواسية مرضية ، فبعض الأطفال عندما يسيرون على أرض مرصوفة بالبلاط يشعرون أنهم مرغمون على تفادي ملامسة أقدامهم خطوط مربعات البلاط ، وإذا لامست قدم أحدهم الخط ، أعاد الخطوة بحيث يتفادى ذلك . وبعض آخر من الأطفال عندما يسير بجانب سور من الأسوار الحديدية فإنه يعدها برتابة ، وعندما يصل إلى رقم معين يشعر أنه مرغم بأن يلمسه بيده ، ثم يبدأ العد من جديد ملامسا العمود الذي يقابل الرقم المعين . يكرر هذا السلوك طوال سيره بجانب السور .

والأمثلة على مثل هذه الظواهر الوسواسية عند الأطفال كثيرة ، لكنها تعد في حدود ما هو طبيعي . ومثل هذا السلوك يتلاشى تلقائيا عندما يصل الطفل إلى سن البلوغ ، لكن الأعراض الوسواسية المرضية تبدأ غالبا بالظهور في سن المراهقة أو بعدها بقليل .

وتنقسم أعراض الوسواس إلى ثلاث مجموعات :- الأفكار الوسواسية ، والدوافع الوسواسية ، والأفعال الوسواسية القهرية .

١ ـ الأفكار

تكون هذه الافكار غالبا ذات طبيعة غير سارة ، تثير الاضطراب والتشكك . أفكار تتولد فجأة في ذهن المريض تدور حول طبيعة الكون ونشأة الحياة ، وعما هو خطأ أو صواب ، أو حلال وحرام ، أو أسئلة ليس من ورائها جدوى ، وليست لها إجابات شافية ، أسئلة مثل : ما سبب زرقة لون السماء ؟ وهل أنا حي حقيقة ؟ وما هو الدليل ؟ .

تساؤلات لانهاية لها عن الجنس والأمراض التناسلية ، أو عن طبيعة الأشياء ، أو الهدف من وراء أعمال معينة . هذه الأفكار يعي المريض بوضوح عدم منطقيتها ، ويزيحها عن ذهنه ، ويطردها بإرادته من وعيه ، لكن سرعان ما ترد ثانية فارضة نفسها عليه ، مما يسبب له ضيقا شديدا ، ويفقده راحة البال ، ويصعب عليه التفكير فيما يريده ، أو التركيز على ما يهدف إليه ، ويصبح مشتتا لايتخذ قرارا ولا يبت في موضوع .

وأحيانا تتحول الأفكار إلى صور ذهنية متخيلة ، تتراءى للمريض بوضوح كأنها حية ، هذه الصور الذهنية تكون غالبا غريبة ومزعجة ، مما لا يصح تصورها ولا يجوز تخيلها ، وهي تدخل في دائرة المحرمات ، يطردها المريض من ذهنه ويستعيذ بالله من إلحاحها ، لكنها تعاود الظهور ، مما يوقعه نهبا لمختلف الصراعات .



٢ ـ الدوافع

تأتي هذه الأفكار على هيئة دافع داخلي ، أو قوة داخلية يشعر بها المريض ، تدفعه إلى القيام بأعمال معينة ، تكون ذات طبيعة عدوانية غالبا ، والعدوانية هنا إما تجاه الذات أو تجاه الآخرين .

فبعض الناس عندما يرى سيارة أو عربة متحركة مسرعة في اتجاهه يشعر برغبة في إلقاء نفسه أمامها . وبعضهم عندما يطل من فوق أماكن مرتفعة يشعر برغبة ملحة بإلقاء نفسه وكأن الأرض تجذبه إليها بشدة . وعندما يكون بعضهم الآخر في أماكن يسود فيها السكون والرهبة ، أو تحيط بها القداسة والجدية ، مثل أماكن العبادة أو قاعات المحاضرات أو الاجتماعات ، يشعر برغبة ملحة في الصياح بصوت عال بألفاظ بذيئة أو أن يسب بفاحش القول . وتتملك بعض الناس رغبة في الاعتداء على الآخرين ممن يكونون قريبين منهم ، كايذائهم بآلة حادة ، أو إلحاق الأذى بالأطفال حديثي الولادة ممن لاحول لهم ولا قوة .

مثل هذه الدوافع والرغبات الوسواسية نادرا ما يتحقق تنفيذها فعلا ، لكنها تظل تلح على المريض وتقلقه ، وهو يداوم على تفاديها وطرد إغراء القيام بها .

٣ ـ الأفعال

هي التعبير الحركي ، أو المحصلة السلوكية للمخاوف الوسواسية ، فمن عنده الخوف الوسواسي من التلوث بالقاذورات أو الجراثيم ، يعبر عن ذلك بالاغتسال المتكرر حتى تتقرح يداه .

وهذا النوع من وسواس النظافة يصيب النساء أكثر من الرجال .

والخوف الوسواسي من التلوث بالقاذورات يمكن

أن يتعدى الذات ، وينسحب على الأطفال ، فتجد الأم تغسل يديها أو جسمها ثم تنتقل إلى أطفالها لتنظفهم ، وعندما تنتهي تشعر أنها قد تلوثت من جديد فتعاود الاغتسال ، ثم تكرر ذلك على أطفالها ، وهكذا يتكرر هذا الأمر معظم الوقت حتى أنها تتوقف عن القيام بأي عمل آخر مفيد أو تكمل سائر واجباتها المنزلية . ومثل هؤلاء الأشخاص تضطرب حياتهم ويسببون إزعاجاً كبيرا لأسرهم .

ومن الأمثلة الأخرى للأفعال القهرية ، هؤلاء الذين يعانون من وسواس التأكد ، فهم بعد إغلاقهم أبواب منازلهم ونوافذها يقومون مرات للتأكد من إحكام إغلاقها ، على الرغم من **تأكدهم** بأنفسهم من ذلك من قبل . كذلك هؤلاء الذين لايكفون عن مراجعة دفاترهم للتأكد مما هو مدون فيها .



ومن يعاني من وسواس الدقة يعد أوراق النقد مرات ومرات للتأكد من دقة عده ، وتجده مشغولا بالتدقيق وبالتأكد حتى ليعجز عن الإنجاز الفعلي إن كان عمله في الصرافة أو في « البنوك » .

وقد سمي هذا النوع من الوسواس « القهري » لأن المريض على الرغم من مقاومته القيام بهذه الأعمال إلا أن الإلحاح المرضي على تنفيذها يغلب عليه ، ويجد نفسه مقهورا مرغما على أدائها .

ليست شخصية مرضية دائما :

الشخصية الوسواسية هي إحدى أنماط الشخصيات الإنسانية ولها سماتها المميزة لها ، وأصحاب هذه الشخصية يحبون النظام والترتيب ، ويتمسكون بالإجراءات الرتيبة ، ويستاءون من التغيير ، وغالبا ما يأخذون أنفسهم بالحزم والصرامة في المعايير الأخلاقية ، والأعراف الاجتماعية ، ومسائل الضمير ، ويقدسون الواجب ، ويتمسكون بما يعتقدون أنه حق ، ويجادلون في ذلك ، ويضحون في سبيله ، كما أنهم يمارسون كبح النزوات ، ويقاومون الإغراء ، ويعتنقون الآراء المحافظة ، وهم دائمو التوتر مشدودو الأعصاب لايسترخون بسهولة

هذه الشخصية بصفاتها المميزة ليست شخصية مريضة دائما ، بل ان صفاتها تؤهلها للعمل بكفاءة في مهن معينة ، كالوظائف في المكاتب وتدقيق الحسابات في الشركات أو المصارف ، إذ تقبل على العمل ، ولا تتبرم من كثرته ، وتصبوا إلى الكمال في تأدية الواجب ، لكنها في بعض الأحيان إذا جوبهت بضغوط بيئية زائدة تظهر عليها بعض الأعراض الوسواسية ، لكن هذه الأعراض غالبا ما تكون ذات طبيعة مؤقتة ، تزول بزوال السبب الخارجي .

أسباب الوسواس القهري :

هناك من يؤمن بأهمية عامل الوراثة كمسبب أساسي ، وهناك من يرجح تأثير عوامل البيئة الخارجية . وفي رأيي أن عامل الوراثة يلعب دورا هامشيا في موضوع الوسواس ، وأن الظروف المحيطة بالشخص لها تأثير كبير على نمو شخصيته وتطورها ، وعلى اكتسابه العادات التي يثبت عليها في الكبر . وأعتقد أن الأعراض الوسواسية يتعلمها

الأبناء في محيط الأسرة من أحد الوالدين على أنها سلوك طبيعي .

ولاشك أن صاحب الشخصية الوسواسية سيربي أولاده على صفاتها ، فيكتسبون هذه الصفات بواسطة آليات التعلم المختلفة التي يتعلم بواسطتها الإنسان باستمرار منذ طفولته كل ما يستطيع استيعابه عن بيئته . كذلك ثبت أن التربية القاسية من جانب الوالدين - لاسيما من الأب - التى تتسم بالتزمت والجمود والقهر والكبح والقمع والتقريع والزام الطفل بمعايير صارمة في السلوك والأخلاقيات غالبا ما يعجز عن فهمها في المراحل الأولية من نموه ، أقول إن هذه الأساليب التربوية ذات الأفق الضيق والأثر الفاسد هي التي تلعب دورا كبيرا في ظهور الأعراض الوسواسية عندما يصل الطفل إلى مرحلة المراهقة أو بعدها بقليل .

وأرى أن استيعاب هذه المعلومة المهمة يساعدنا على عمل الكثير نحو وقاية أبنائنا من مرض الوسواس القهري (وربما غيره أيضا من الأمراض النفسية) ، إذ أنهم في حاجة إلى اللين والتسامح والارشاد بالحسنى في أسلوب تربيتهم . كما يحتاجون للتفهم والتعاطف والمساندة والقدوة الحسنة التي تكون أمامهم مثلا للاقتداء ، وتمثل صفاتها السوية واكتسابها .

العلاج :

كثير من الأعراض الوسواسية تصاحب مرض الاكتئاب النفسي ، وتعد جزءاً من أعراضه الأصيلة ، كما أن معاناة أعراض الوسواس فترة طويلة تسبب حالات من الاكتئاب ، لذا وجد أن استعمال بعض أنواع العقاقير المضادة للاكتئاب تساعد كثيرا في حالات الوسواس .

كذلك ينتج عن عملية المقاومة المستمرة من جانب المريض ضد الالحاح المتكرر للخواطر الوسواسية توتر عصبي شديد ، وحالات من القلق النفسي ، وهنا يوجد مجال كبير لإعطاء المريض المهدئات النفسية الخفيفة فترات قصيرة . وكما أن معظم حالات الوسواس تعانى من حالتي التوتر العصبي والاكتئاب النفسي ، فيفضل وصف عقار من كل من المجموعتين معا فذلك يؤدى الى نتائج أفضل .

وفي جميع الحالات يحتاج المرضى إلى تلقي العلاج النفسي المناسب بأي أسلوب من أساليبه المعروفة سواء الفردية أو الجماعية . وفي بعض الأحيان يكون للعلاج السلوكي نتائج فاعلة .

فمن يعانون من وسواس التلوث بالأقذار يمكن استخدام آليتين أو أكثر من آليات العلاج السلوكي معهم ، فمثلا بآلية إزالة الحساسية تجاه التلوث يعرض المريض تدريجيا لمصادر التلوث المختلفة حتى يتأقلم معها ويتدرب على ألاَّ يهابها فيزول عنه الخوف الوسواسي منها ، وبآلية الاغراق يعرض المريض لهذه المصادر فجأة ليدرك بنفسه عمليا أنه لا يوجد مخاطر حقيقية لهذا التعرض .

وممن يعانون من الأفكار الوسواسية أو الصور الذهنية يطلب المعالج أن يستحضر المريض في ذهنه وبإرادته هذه الأفكار والصور ، وفجأة يصيح المعالج بصوت عال منفر « توقف » ، فتتوقف الأفكار وتتلاشى الصور ، ويستطيع المريض بعد ذلك أن يتدرب بنفسه على ذلك بأن يهمس لنفسه إذا راودته هذه الأعراض بأن « يتوقف » ، وتزول عنه .

والأساس النظري لهذا الأسلوب العلاجي هو التعلم الايجابي لمجابهة الأعراض فبدل أن يظل يقاوم الأفكار والصور دون طائل يجعلها تحت سيطرته ويطردها هو بإرادته بالأسلوب الذي تعلمه .

وأخيرا فإنني أود التأكيد على أن أعراض الوساوس ليست دائمة أو مستمرة ، فهي تظهر في نوبات حادة لها انحسار مهما قويت أو طالت ، وهذه النوبات الحادة لها علاجاتها المناسبة العديدة ، ويمكن بواسطتها السيطرة عليها ، وربما الشفاء منها إذا ما تم الوصول إلى حقيقة أسبابها وظروف نشأتها . □



في الصميم

* إن أصعب مشكلة تواجه الطبيب هي محاولته معرفة نوع الطعام الذي يفضله المريض لكي يمنعه من تناوله.

د. اندريه سويدان

* منح (الديك) بعضا من أسوأ العيوب الرجالية : الغطرسة والميل الى تعدد الزوجات ، وتلك العادة السيئة التي ترمي الى افهام الناس الذين يودون النوم انه قد استيقظ .

آن ماري كارير

من القلب

■ قال الأب لابنته الوحيدة : أريد أن اخبرك بأن جارنا طلب يدك لابنه الشاب ، وأنا وافقت .

فتظاهرت الابنة بالحزن وقالت : ولكن ياوالدى . . كيف أترك والدتي وحدها ؟

فقال : خذيها معك .

■ الاول (متفاخراً) : ألا تعرف من يكون أبي ؟

الثاني : لماذا ؟ ألا تعرفه أنت ؟

■ العم : وحتى ترى إلى أى مدى يصل طموح الانسان ، فقد كنت في مثل سنك أعمل مساعدا في حانوت بقال بأجر بسيط جدا جدا ، ولم تمض ست سنوات حتى ادخرت من المال ما يكفي لشراء المحل الذى كنت اعمل فيه ، فلماذا لا تفعل مثلى ؟

الشاب :إن الأمور صعبة في هذه الايام، لان البقالين يستخدمون الآن آلة لتسجيل البيع والشراء .

■ قال الزوج لرجل البوليس : إنني هنا من حوالي ساعة ، أنتظر زوجتي ولم تأت بعد ، فهل لك أن تطردني ؟



ضحكات عربية

لعن الله العجلة

روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها أرسلت تابعا بدويا ذات يوم ليأتيها بقبس من نار للدار . وبينما البدوي يلتمس القبس شاهد قافلة تسير الى مصر . فمضى معها ومكث بها عاما ، ثم حن لمآلفه واهله فعاد . وخلال مروره بطرق المدينة ، تذكر القبس عندما رأى ناراً على مبعدة ، فعدا اليها ، فتعثر ووقع على الأرض ثم نهض وهو يقول لعن الله العجلة .

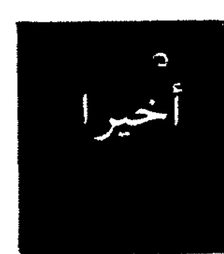
وصية !!

أوصت اعرابية ابنتها عند زواجها فقالت :
اقلعي زّج رمحه ، فإن أقر فاقلعي سنانه ، فان أقر فاكسرى العظام بسيفه ، فان أقر فاقطعي اللحم على ترسه ، فان أقر فضعي الأكاف (البردعة) على ظهره ، فانما هو حمار .

نصب !!

عندما ذكر يوسف وهبي أحد الفنانين بتنفيذ وعد قطعه على نفسه رد الفنان : لا تخف يااستاذ يوسف ، لقد جعلت هذه المسألة نصب عيني فقال له يوسف وهبي : أنا خفت أن تكون قد جعلتها (نصب) فقط .





قال الكاتب الذى لا ينضب معين كتبه وهو يقدم كتابه الى الفريد كابو: تفضل ياسيدى . . آخر كتبي . . .
الأخير : حسنا ـ حسنا جداً .



ضحكات عالمية

كتابات غير مقروءة

قال الروائي المسرحي روبير دوفلر لأحد أصدقاءه : نظرا لرداءة خطي فإن الكثيرين من أصدقائي لا يستطيعون قراءة كتاباتي عندما تكون مكتوبة بخط يدى .

فقال له صديقه : ولكن صديقك الصحافي فلان خطه أسوأ من خطك بكثير .

فقال دوفلر : بالنسبة له ليست مشكلة فكتاباته لا تقرأ حتى بعد طباعتها .

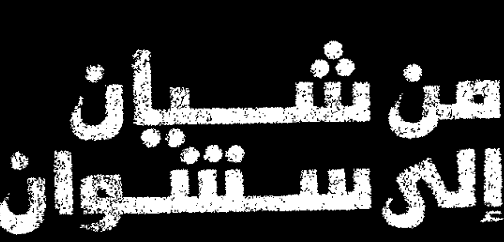
مؤامرة

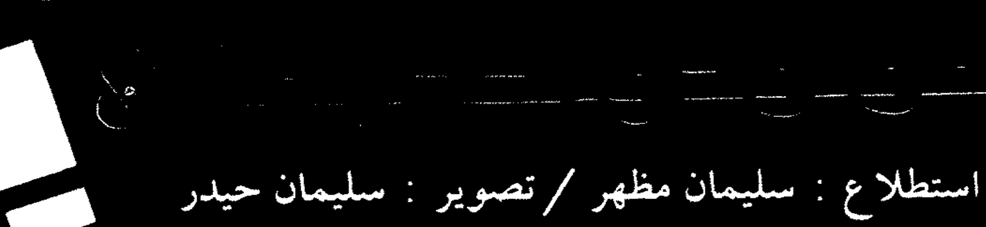
قال أحد الشعراء المغمورين وعديمي الموهبة لاوسكار وايلد: أنا أعتقد أن هناك مؤامرة صمت تحاك ضدى ، ماذا تنصحني أن افعل ؟

فأجابه وايلد : انضم الى المتآمرين .

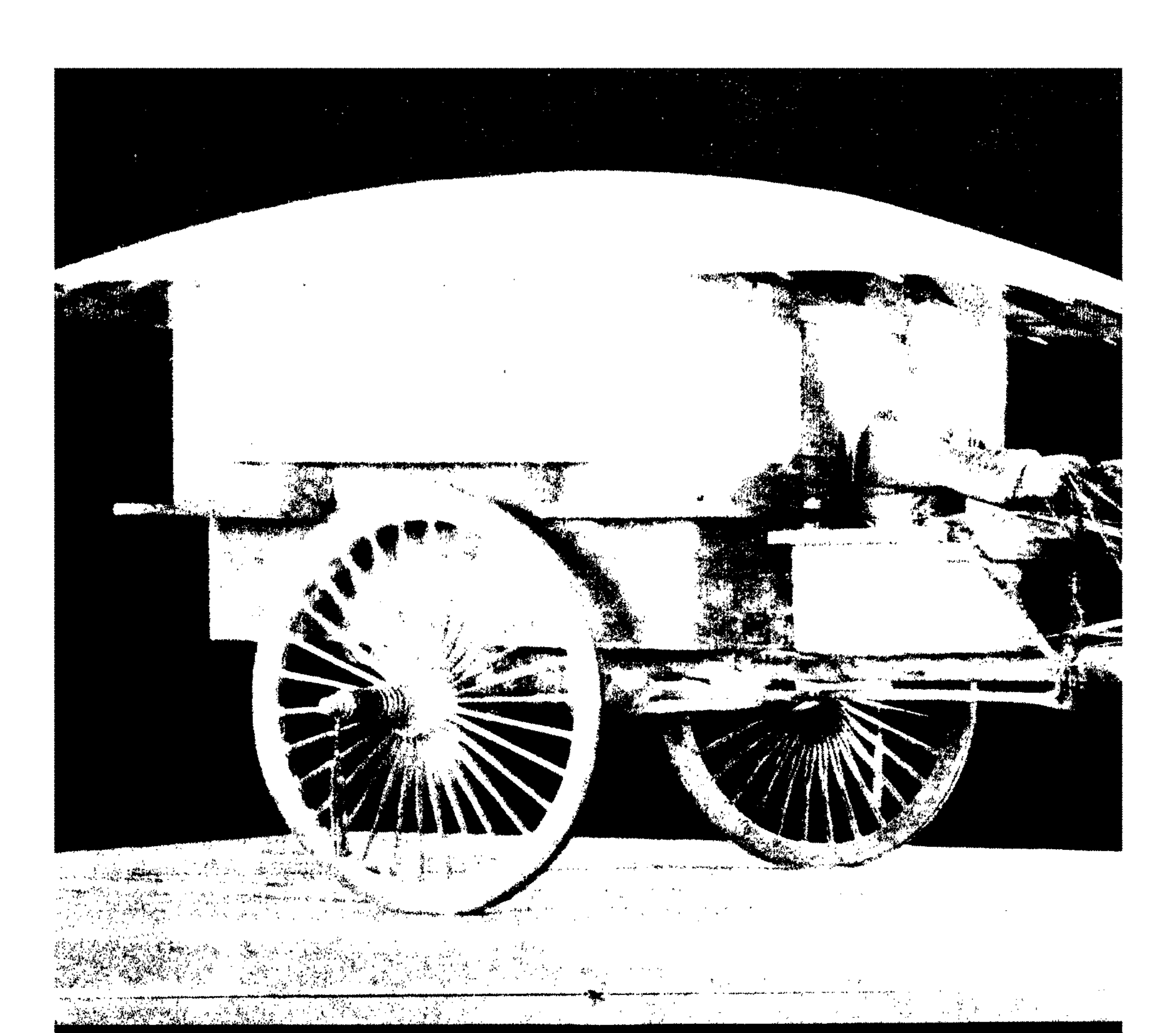

أوسكار وايلد

العربي
عيونك
على العالم





استطلاع : سليمان مظهر / تصوير : سليمان حيدر



هل شهدتم من قبل جيشا يبعث حيا ، ويخرج من باطن الارض بمشاته وفرسانه وقادته وسلاحه وعرباته ، بعد أن ووري الثرى قبل أكثر من ألفين من السنين ؟!

هكذا قال لنا « شيانج بن » نائب رئيس مقاطعة شانسي في الصين وهو يبتسم .. ثم أضاف : سترون هذا البعث الجديد للجيش وهو ينفض عن نفسه تراب الزمن في « شيان » أول عاصمة في الصين ، وهو بعث قد يبدو لكم غريبا . ولكن هذا الجيش الخارج حيا من الظلمات بتعداد رجاله الذى يتجاوز ثمانية آلاف محارب ليس غريبا بالنسبة لنا . فشعبنا الكبير الذي يتجاوز تعداده ألف مليون نسمة بعث حيا بعد ان كان غارقا في ظلمات عصور الأباطرة والاقطاعيين والمستعمرين والمجرمين والخونة ايضا ، إذ أهالوا عليه تراب السخرة والعبودية والجوع والجهل والافيون . لهذا فنحن نرى أن نهوض الشعب الصيني وانطلاقه الجديد هو البعث الحقيقى !

في مدينة «شيان» نحاول متابعة اسطورة البعث . فمثل الفراعنة في مصر القديمة ، بنى الاباطرة الصينيون لأنفسهم قبورا ضخمة ، كانت غرف الدفن فيها تبدو وكأنها قصور تحت الأرض ، وكانوا يدفنون معهم كنوزهم وكل ما يحتاجون اليه من أدوات وأطعمة ووسائل التسلية وتماثيل رجالهم والمقربين اليهم ، بما يتفق مع عقيدة الصينيين القدماء ، الذين كانوا يعتقدون ان الآباء والأسلاف يبعثون احياء بعد موتهم ، ويعيشون في مملكة غير محددة وغير واضحة ، وانهم يتمتعون في تلك المملكة بكل ما كانوا يتمتعون به في الدنيا .

ولعل ذلك هو ماجعل البلاد مليئة بما لا يحصى من القبور الهرمية الضخمة للاسلاف ، وبخاصة الاباطرة الذين كانت قبورهم المحفورة تحت الأرض تمتد في مساحة عدة مئات من الامتار المربعة تغطيها تلال هرمية ترتفع الى اكثر من مائة متر

وكما كان كشف قبر توت عنخ امون وكنوزه في مصر إحدى عجائب العالم ، فقد كان لكشف قبر الامبراطور شي هوانج تي اول اباطرة اسرة تشين في شرق شيان في عام ١٩٧٤ نفس الأثر المثير ، اذ لقي اهتماما كبيرا في العالم ، ودخلت مكتشفاته بخطوات ثابتة طابور عجائب العالم السبع كعجيبة ثامنة ! فمن بطن هذا القبر خرج الى الحياة فيلق امبراطوري كامل يضم ثمانية الاف محارب بين مشاة وفرسان ، يسيرون في طوابير منتظمة ، متدرعين بالسلاح والخوذ والدروع ، وهو المشهد الذي وقفنا أمامه نتأمله في شبه ذهول !

جيش يخرج من القبر

على عمق لا يقل عن عشرين مترا تمتد أمامنا ساحة تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اتساعها ٢٠ الف متر مربع تضم ما يقرب من ٨ آلاف تمثال من الفخار تمثل المحاربين و ٦٠٠ من الخيول الصلصالية و ١٢٥ عربة حربية مصنوعة من الخشب . ونشعر أننا أمام جحفل عرمرم من جيش أسرة تشين يسير في مهابة مثيرا عجاجة هائلة وسط الميدان . في المقدمة ٢٠٤ من حملة الأقواس في صفوف ثلاثة يتوسطهم ضباط يحملون السيوف ، ويتبع هذه الصفوف ٣٨ طابورا من المشاة لابسي الدروع ، تتخللها ٣٨ عربة حربية تجرها مائة واربعون من الخيول .

الجيش مرتب في نظام الاستعداد لخوض معركة . ففي القسم الأول جناح الجيش الايمن وقوامه المشاة المعززون بالعربات الحربية ، والجزء الثاني هو جناحه الايسر المؤلف من العربات المسنودة بالفرسان والمشاة ، والقسم الثالث هو مقر القيادة تتوسطه عربة القائد . ويفصل بين القسمين الثاني والثالث شبه مخزن لا يحتوي على شيء ، وهو سر مايزال مجهولا .

عندما نطيل التأمل في رجال الفيلق الامبراطوري نجد أن الضباط والمشاة وحملة الاقواس والفرسان وسائقي العربات كلهم ذوو قامات متساوية بطول ١,٨ مترا مثل طول الانسان العادي . وتماثيل العساكر والخيول لا تتميز بالضخامة الهائلة فحسب ، وإنما ايضا بدقة النحت الذي يصور على الوجوه الامزجة المتباينة والطباع المتفاوتة والعيون المحدقة والقامات المنتصبة والوجوه المفعمة بالقوة والذكاء والثقة ، وهم في هذا كله ذوو أعمار مختلفة ، فمنهم المحاربون المتمرسون ومنهم الشبان الذين بلغوا اشدهم ومنهم الفتيان الأغرار . اما الخيول فتبدو شديدة المراس قوية بصهواتها الصلبة ورؤوسها المرفوعة وصدورها الرحبة مع متانة قوائمها وطول قاماتها يصل الى مترين ومعدل ارتفاعها متر ونصف متر

أما الاسلحة والدروع والسهام والسيوف والأقواس والمجانيق فتبدو في هيئة راقية الى حد بعيد ، يدل على ذلك ما يقرب من عشرة الاف من تلك الاسلحة التي يحملها عساكر الفيلق . وهي تضم الات القتال الطويلة والقصيرة والات الرمي البعيد . وما تزال بعض سيوف الضباط مصقولة كانها حديثة السبك مع انها مطمورة منذ الفي سنة .

ويشير الاثري يوان رونجي الى احد هذه السيوف ويقول لنا : لقد اظهرت الدراسات ان تلك الاسلحة مسبوكة من النحاس الممزوج بالقصدير وغيره من المعادن الثلاثة عشر ، كما ان السيوف والانصال مطلية بمعدن الكروم وتعلوها طبقة من مادة تحصنها من الصدأ . وهذه الطريقة من الوقاية لم تعرفها الدول الاوروبية والأمريكية الا في العصر الحديث .

العربة الامبراطورية :

يأخذنا مرافقنا الى قسم جانبي على يسار القاعة الكبرى لضريح الامبراطور تشين . في وسط القاعة وداخل مقصورة زجاجية كبيرة تنتصب مركبة ملكية واربع خيول وسائق امامها لافتة تقول انها احدى مركبتين عثر عليهما في بقعة تبعد عشرين مترا غرب ضريح الامبراطور في ديسمبر ١٩٨٠ ، وكانت المركبتان ركاما من كسرات النحاس ، وكانت الخيول البرونزية الثماني قد تفككت اطرافها ، وتزن المركبتان ٣٥٠٠ كيلوجرام . وبعد سنتين ونصف سنة من الترميم تمت اعادة تركيب احدى المركبتين وخيولها الاربع والسائق الى الوضع الأصلي .

اما عن تاريخها فيقول لنا مرافقنا : قام الامبراطور تشين هوانج ني بعد ان وحد الصين بخمس رحلات في البلاد قطع فيها آلاف الاميال ليفرض هيبة سلطانه على الناس . وكان يسافر في موكب عظيم تتوسطه مركبته المذهبة التي تسير بين صفوف من المركبات تتقدمها عربات القيادة وتجري في مؤخرتها ٨١ عربة حماية مغطاة بفراء النمور باستثناء آخر اثنتين منها إذ تعلق عليهما ذيول الفهود . وقد مات الامبراطور في احدى هذه الرحلات ببلدة شانشنغ . ويمكنكم ان تكونوا فكرة عن المركبات الامبراطورية التي كان يستقلها في جولاته من هذه المركبة التي عثر عليها في الضريح .

ونقف امام العربة الامبراطورية نتأملها ، فالمركبة وخيولها مزينة بالفضة او الذهب الابيض تتكون من ٧٤٧ قطعة ذهبية و ٨١٧ فضية ، وللمركبة عريش ومقصورتان احداهما صغيرة في المقدمة للسائق والثانية في الخلف للامبراطور ، والاخيرة عبارة عن ظلة مستديرة ارضيتها مربعة ، وتبدو كأنها حجرة فخمة بجدرانها المزدانة من الداخل بالتصاميم الرائعة ، ومن خارجها بالمنحوتات البارزة ، وفي المقصورة اربع نوافذ وباب يقفل « بسقاطة » ، اما السائق فتبدو عليه امارات الهناء والرزانة ووجهه مستدير ممتليء يبدو محدقا الى الامام وقد مد يديه كأنه يمسك بالعنان ، واما الخيول البرونزية فقد صيغت بدقة متناهية وبدت لنا كأنها ماتزال حية بالتجاعيد حول افواهها المفتوحة والشعر في اعرافها كأنه شعرها الطبيعي .

خريطة تبين موقع مقاطعتي شنسي وسيشوان وعاصمتيهما شيان وتشجدو

هذا هو الشيطان

قصة الكشف عن تلك الآثار يرويها لنا مرافقنا يانج دونج من مكتب الشئون الخارجية بمقاطعة شانسي ونحن نتجه لنشهد ماهو متاح للمشاهدة من ضريح الامبراطور تشين .

في مارس من عام ١٩٧٤ كان الفلاح يانج بوي يان من قرية شيانج التابعة لكومونة بانتشاي يحفر بئرا في غابة شرق الضريح . وفجأة ضرب فأسه برأس صلب لم يكد يزيح عنه التراب حتى كاد يسقط على الارض من الذهول . لقد كان امامه جندي بكامل هيئته ولباسه وعيناه مفتوحتان كأنهما تنظران اليه في قوة . وعندما افاق من ذهوله استخرج تمثال الجندي وهو ينادي رفاقه ويهتف : هذا هو الشيطان .. هذا هو الشيطان .. وتكاثر الجميع حوله وربطوا الجندي وعلقوه من ساقيه في غصن شجرة كبيرة ، وراحوا يتناوبون ضربه بالسياط باعتباره رمزا للشر . واستمر ضرب التمثال عدة ايام حتى بلغت القصة مسامع المسئولين وذهب احد الاثريين ليكتشف حقيقة التمثال . فأوقف عملية الضرب وفك قيوده ، واحيط المكان بسور خشبي وبدأ الاثريون عمليات التنقيب حيث تم لهم كشف الموقع كله . وشهدت السنوات العشر ١٩٧٤ و ١٩٨٣ كثيرا من الجهود التي انتهت بترميم مايربو على الف من اولئك الجنود



جانب من فرقة الفرسان في الفيلق الامبراطوري وتبدو دقة النحت في وجوه الفرسان وخيولهم .. العيون محدقة والقامات منتصبة والوجوه مفعمة بالقوة والذكاء والخيول شديدة المراس بصهواتها الصلبة ورؤوسها المشرعة وصدورها الرحبة .



طوابير المشاة ، بينهم الشبان الذين تعلو أنفسهم وبينهم الكهول الأعزاء . والصف الأول لضباط الفرقة في أزيائهم وسيوفهم مصفوفة كأنها حديثة الصنع

والخيول واعادتهم الى هيئتهم الاصلية . وشيد في مكان القسم الأول من الساحة متحف كبير ضم التماثيل التي تم ترميمها في مواقفها وصفوفها المتراصة حتى اصبحت تبدو للمشاهدين وكأن الفيلق في ميدان المعركة .

ونصل الى ضريح الامبراطور بعد ان درنا حول الجبل خلف متحف الفيلق الامبراطوري . امر تشين هوانج تي ببناء الضريح منذ اليوم الأول من حكمه حين اعتلى العرش وهو في الثالثة عشرة ، ولم يكتمل البناء الا بعد ست وثلاثين سنة من العمل والجهد الشاق وضحى من اجله الآلاف بحياتهم . واذ نتأمل مشهد الضريح والتل الهرمي الكبير الذي يعلوه نعرف من مرافقنا ان ارتفاعه في الايام الأولى من انجازه كان ١١٥ مترا بمحيط ٢,٥ كم وكان يضم في داخل اسواره المزدوجة صفوفا من المباني الفاخرة . لكن بقاياه التي كشفت عنها الحفريات التي نراها امامنا لا يزيد ارتفاعها عن ٤٥ مترا اي اقل من الثلث . بينما اتسع المحيط كثيرا عما كان عليه فبلغ كل جانب من الجوانب الاربعة ٧ كيلو مترات لتصبح المساحة كلها حوالي ٥٦ كم٢ . وتقول السجلات التاريخية ان غرفة الدفن نفسها غائرة بعمق ٦٩٣ مترا حيث سخرت صخور القاع لتكون الاساس المعزز بالنحاس الذي قامت عليه القصور والقاعات معتمدة على الأعمدة الثمانية ، وفي سقف القبة شمس وقمر ونجوم من الدرر .

قال لنا تشين زيانج ليانج مدير مكتب الشئون الخارجية بمقاطعة شانسي : هذا هو الامبراطور تشين الذى أسس أول دولة إقطاعية موحدة مركزية في تاريخ الصين وأحاطها بالسور العظيم الذى شهدتموه في أول رحلتكم ، وكانت دولته تضم ٢٠ مليون نسمة ، جند ثلاثة ملايين منهم في الخدمة العسكرية ، وسخر ٧٠٠ الف في تشييد قصوره و ٧٥٠ الفاً آخرين في بناء ضريحه . وازدحمت المساحات التى تقوم عليها قصوره ومقبرته بجثث آلاف الموتى من هؤلاء البنائين ، ورزح الشعب المسكين طوال عهده تحت الضرائب والعقوبات الشديدة والسخرة . فضاق الشعب ذرعا وراح يتحين الفرص للوثوب وما أن مات حتى انتفض الفلاحون في حركة بعث وأجهزوا على حكم أسرته .

وختم تشين زيانج ليانج كلامه قائلا : « إذا كنا نعتز بتاريخنا القديم إلا أن حركة البعث تؤكد أن الشعب مهما رزح تحت عبء السخرة والطغيان فلابد أن يقوم من جديد ، تماما كما بعث شعب الصين في السنوات الاخيرة بعد أن أزاح عن كاهله ظلمات وقيود العبودية والاحتكار والاستعمار . فهكذا قام شعب الصين الجديد .

الملكية التعاونية بعد العبودية :

تتبعنا تطور المسيرة من خلال ما سمعناه أثناء اللقاء مع « تشانج بن » نائب رئيس مقاطعة سانشي الذى قال : « كان لابد للعبودية والاقطاع أن يجدا في النهاية من ينتصر عليهما ، ولهذا فحين قامت الجمهورية الشعبية أمضت السنوات الاولى في النهوض بالاقتصاد ، واستولت على كل المؤسسات الرأسمالية وحولتها الى مؤسسات اشتراكية تملكها الدولة . وتبع ذلك إلغاء الاقطاع والملكية الاقطاعية وأخذت الارض من ملاك الاراضى ، ووزعت على الفلاحين الفقراء ، وعلى من لا أرض لهم ، وبذلت في الوقت نفسه جهود كبيرة لتحسين الاقتصاد الذى مزقته الحروب وخلفته الصين القديمة . وقد تحقق بعد ذلك رقم قياسي في الانتاج الزراعى والصناعى شرعت الصين على أساسه في البناء الاقتصادى في ظل تخطيط دقيق . فاتخذت خطوات لتأسيس الملكية العامة لوسائل الانتاج في ظل الاشتراكية ، وانتظمت تعاونيات المنتجين الزراعيين على أساس تطوعي ، وتحولت المؤسسات الصناعية التى كان يديرها الرأسماليون لتصبح مؤسسات مشتركه بين الدولة والافراد ، وازدهر البناء الاقتصادى بشكل واسع في السنوات اللاحقة بفضل الجهود الملموسة التى بذلها الشعب كله »

هذه الصورة الجديدة شهدناها عندما زرنا محافظة كوانجهان حيث تجرى أبرز صورة تعاونية للمجتمع الفلاحي في الصين .

الانتاج الزراعي ودور المرأة

بينما كنا نتجول مع نائب رئيس مجلس المحافظة التعاونية السيد/ شي بين المزارع والبيوت الريفية

قال لنا ان محافظة جوانجهان اتخذت كبداية لاصلاح البنية الاقتصادية في الريف الصيني ، حيث بدأت تجربة جديدة للاصلاح منذ عام ١٩٧٩ بتحويل هيكل الانتاج من الفيالق الانتاجية كوحدة اساسية الى نظام تعاقد بين الفلاحين والمجالس المحلية ، وفي عام ١٩٨١ بدأت المرحلة الثانية وهي التعاقد بين اسر الفلاحين والحكومة . وعندما اتضح نجاح التجربة بدأت المرحلة الثالثة الاخيرة وهى إدارة الانتاج على أساس طابقين : الطابق الجماعى والطابق الفردى .

فما هى حكاية هذا التقسيم النوعى ؟ كانت الملكية في الريف من قبل تنقسم الى ثلاثة أنواع : ملكية عامة وملكية جماعية وملكية فردية . ومن خلال المرحلتين الاولى والثانية لاصلاح البنية الاقتصادية تم التحول الى الملكية التعاونية ، أى تنفيذ سياسة التعاقد بين الفلاحين والحكومة بربط مسئولية الانتاج بأرباح الانتاج . لتنفيذ ذلك تمت تعبئة حماس الفلاحين للانتاج الزراعى وإصلاح الهياكل الانتاجية ، وشهد الاقتصاد الريفى تطورا سريعا نسبيا في السنوات الماضية . ولم يقتصر الأمر على المنتجات الزراعية فقد بدأ ٦٠٪ من الفلاحين يدخلون مجال الانتاج الصناعى والأعمال اليدوية والمنتجات الشعبية الريفية . والآن تعد الارض والمواد الانتاجية الكبيرة ملكية تعاونية ، والفلاحون يستأجرون الاراضى والوسائل والمواد الانتاجية من خلال الجمعية التعاونية . وحين لا يستطيع أى عدد من الفلاحين القيام وحدهم بعملية الانتاج فإن الجمعية التعاونية تقدم لهم الخدمات الانتاجية المختلفة ، وهذا يعنى تنفيذ نظام إدارة الطابقين ، اى الفردية والتعاونية ، على أساس الملكية العامة ، ومن خلال ذلك يمكن أن يظهر الدور الجاد للجمعية التعاونية في الانتاج ، وبالتالى تظهر حماسة الفلاحين بما يؤدى الى التطور الزراعى كما وكيفا ، أما نظام التسويق فانه بالنسبة لبعض المنتجات الضرورية لحياة الشعب مثل الحبوب الغذائية والقطن والزيت فإن الدولة تحدد الاهداف والنسب المعينة للفلاحين ، الذين عليهم أن يبيعوا هذه الكمية المحددة للدولة سنويا ، أما مايزيد عن تلك النسبة فيترك للفلاحين الذين أنتجوها زائدة عن الحاجة أن يبيعوها كما يشاءون . لكن حسب قانون الاسعار . ويستطيع الفلاح ان يحصل على بعض المواد الانتاجية كالبذور والاسمدة من جمعيات ائتمان للحصول على الاموال اللازمة للشراء ، كما أنه في بداية كل سنة زراعية تعطى القروض مقدما باحتساب نسبة من الانتاج المتوقع . وبعد أن يتم الحصاد وبيع المنتجات للجمعيات تخصم قيمة القروض الزراعية التي حصل عليها الفلاحون .

الصورة الواضحة التى خرجنا بها هى أن « الميكنة » الزراعية استعادت قوة الدفع بعد تطبيق نظام المسئولية الأسرية في الزراعة ، وارتفعت نسبة الانتاج بشكل بارز ، وبخاصة بعد أن بدأ نظام رى الاراضى وحصادها آليا وسجل رقما قياسيا جديدا . وقال لنا نائب رئيس مقاطعة سشوان ان الفلاحين يقومون الآن بشراء مزيد من الآلات الزراعية بسبب انتقال عدد أكبر منهم للعمل في الصناعات الريفية والمشروعات غير الزراعية الاخرى ، وبسبب تركيز قطع الاراضى الزراعية المتعاقد على زراعتها مع الأسر الفردية التي تعمل من خلال النظام التعاونى . وقد شهدنا بأنفسنا في المزارع والأراضى الزراعية كيف تؤدى المرأة دورا كبيرا حيث تقوم بالحرث والزرع والرى والحصاد ، ولاحظنا أننا لم نكن نمر بأى حقل إلا ونجد المرأة هى التى تعمل ، بينما الرجال يجلسون على مقاهى الشاى يتسامرون ، وقد اطمأنوا الى الجهد الكبير الذى تبذله نساؤهم في رعاية الحقول والاهتمام بالمزيد من الانتاج ، وهو أمر بغير شك يدعو الى الانتباه . . !

عام التنين

صورة أخرى جديدة شهدناها حين انتقلنا الى شنجدو عاصمة مقاطعة سشوان حيث قطاع كبير من الشعب الصينى

سشوان مثلها مثل بقية مقاطعات الصين ومدنها كانت في ذلك الوقت تعيش « عام التنين » . والتنين - كما تذكر الأساطير الصينية القديمة - يعنى السعد والخير ، ويعيش في السماء كما في الماء ، وهو ليس مفزعا وحشيا ينقض على الناس ليلتهمهم كما قد يخطر على البال ، وهو خمسة أنواع رئيسية أولها التنين الامبراطوري ، رمز الامبراطور الذى شهدناه في المدينة المحرمة ، وله خمسة مخالب في القدم الواحدة ،

بعكس سائر التنانين ذات المخالب الاربعة . وثانيها التنين السماوي حارس منازل الآلهة . وثالثها التنين الذي يوجه الرياح والامطار ويروي الحقول ويتسبب في بعض الأحيان بالفيضان ، لكن عن غير عمد . ورابعها التنين الارضي الذي ينظف الانهار ، ويعمق البحار ، ويمد يد العون الى البشر ، ليساعدهم في التحكم في مياه الفيضان . أما خامس التنانين فهو حارس الكنوز المحافظ عليها ، وهو قد يصبح شرسا بشعا إذا لم يكن الطارق هو صاحب الكنز نفسه .

ذلك هو التنين ، وهذا العام هو « عام التنين » الذي احتفل الصينيون ببدئه في النصف الثاني من فبراير الماضي .

عن سر عام التنين قال لنا « جيو شيانج » بمكتب الشئون الخارجية : جاء ذكر عام التنين في دليل صيني ، تم تأليفه منذ حوالى ألف سنة ، يحدد للفلاحين أنسب موعد للبذار والحصاد وأيام الزفاف والجنازات . ويتحدث الدليل عن عام التنين فيصفه بأنه « سنة عمياء » بلا ربيع ، ذلك أن العام الذي يسبقه وهو « عام الأرنب » الذي انتهى في ١٧ فبراير الماضي حسب التقويم القمري ـ تمخض عن توأمين ، أو ربيعين ، مما يجعل العام الذي يليه بلا ربيع . . !

وإذا كان الصينيون قد ساروا على طريق جديد لايؤمن بديانات السماء ، فإنهم مازالوا في أعماقهم أسرى الاساطير . وهم يلجأون الى التقويم لاستشارة حساباته الفلكية والجوية التي تم تسجيلها خلال مئات السنين . والاساطير تقول إن الزواج في سنة تضم ربيعين يثمر سعادة وهناء ، بينما الارتباط في عام أعمى يعد من سوء الطالع ، وهي تحذر من أن الذين يتزوجون في عام التنين سيصابون بالتعاسة ، ومن اضطر الى الزواج في ذلك العام فإن عليه أن يتخذ كل الاحتياطات ، لان زواجه مغامرة غير مأمونة العواقب !!

ولان الكثيرين من الشباب أرادوا أن يتفادوا مغامرة الزواج في عام التنين ، فقد تسارعوا خلال عام الارنب للحصول على تراخيص الزواج الحكومية ، وكانوا يصطفون خلال الاسابيع الاخيرة التي سبقت ١٧ فبراير الماضي في طوابير طويلة أمام مكاتب التصاريح ، حتى ينهوا إجراءات الزواج ، ولا يضطرون للانتظار حتى ينتهي عام التنين !

ولاشك أن ازدياد عدد الزيجات خلال العام الماضي قد زاد من قلق المسؤولين عن تخطيط الاسرة ، الذين يخوضون صراعا ضاريا للسيطرة على النمو السكاني . فازدياد حالات الزواج معناها زيادة جديدة في عدد المواليد ، وبخاصة في العامين القادمين . ويزيد من ذلك القلق أكثر أن هناك اعتقادا آخر بأن الاطفال الذين يولدون أو تحمل أمهاتهم في عام التنين ينعمون بالصحة الجيدة والقوة والذكاء والقدرة على العمل الجاد ، وهو أمر يتوقع معه ارتفاع آخر في معدل المواليد ، مما يقض مضاجع الساسة المهمومين بتحديد النسل ، خاصة أن الاحصائيات أكدت أن العام الماضي وحده قد شهد زيادة في عدد السكان بواقع خمسة عشر مليون نسمة ، وهي زيادة أكثر مما استهدفته السلطات .

وكل ماتخشاه الصين وتعمل له ألف حساب هوالمزيد من الانفجار السكاني .

وياله من انفجار في دولة تضم بين جنباتها ربع سكان العالم !! وهو أمر كان أمامنا أن نفكر فيه طويلا خلال جولتنا بين مقاطعات الصين ولقاءاتنا مع الشعب في المدن والقرى والطرقات .

حوار مثير

في شوارع لندن وباريس وروما تستطيع أن تلتقي دائما برسامين وفنانين هواة ، يرسم أحدهم وجهك في دقيقة ، ويقلد آخر لوحة فنان شهير في نصف ساعة ، ويستوحى ثالث منظرا طبيعيا يقدمه لك بالالوان في أقل من ذلك . . !

هنا في بعض مدن الصين ، حيث تذوق الفن والابداع في الرسم والتلوين هواية محببة وبخاصة عند الشباب ، تستطيع أن تسير في الشوارع الحديثة الممتدة بالقرب من الفنادق التي ينزل بها السياح والاجانب ، فتجد معارض ومتاحف جدارية مفتوحة في الهواء الطلق ، وقد علقت اللوحات الطولية على الجدران كل منها بطول أكثر من ثلاثة أمتار وعرض أكثر من متر ، رسمها أو قلدها هواة محترفون . ويمكنك أن تساوم بالطبع وتنجح في الحصول على اللوحة بأقل من نصف الثمن المعروض ، حين يكون معك مرافق يتحدث معهم بلغتهم ويتبادل معهم الهمس ، ليؤكد لك بعد ذلك

التنين هو الرمز البارز لمسيرة الحياة في الصين . . ورسومه محفورة على الجدران والاسوار كما في الصورة العليا . .
بينما الابناء في المدارس يتدربون في جدية منذ الصغر .



أنه نجح في إقناعهم بتخفيض أجر اللوحة بأقل من سعر التكلفة لأنك صديقه أو ضيفه .. وأنه هو الذى سيدفع ثمن اللوحة .. !

وكانت تلك متعتنا لأننا - وزميلي المصور - من هواة الفن واقتناء اللوحات الملونة لاسيما المناظر الصينية التقليدية .. وكان أبرز هذه المتاحف المفتوحة في الشارع الرئيسي بسيشوان على طول رصيف الفندق الكبير الذى نزلنا به .

ولكن .. ليست هذه هى الحكاية .. فالاهم هو أنه قد أتيحت لنا فرصة خلال هذه الجولة المسائية - وليس معنا مرافق أو مترجم - لان نلتقى بشابين اقتربا منا وراحا يساومان من أجلنا ويجيبان على أسئلتنا بالانجليزيه .. وبعد أن تمت الصفقه طلبا منا أن يصحبانا في الطريق ، ليس فقط للشرح والترجمة ، ولكن لانهما يستمتعان بالحديث بالانجليزية ، التي يدرسانها في الجامعة ويتمنيان أن يجدا من يتبادلا معه الحديث والحوار ، لان اتقان اللغة يحتاج الى ممارسة .. وبدت لنا فرصة كنا نتمناها .. فقد كنا نريد ان نجلس مع أبناء الشعب نتحدث ونتحاور بعيدا عن الرسميات والرسميين .. فقلنا لهما إن الحوار يمكن أن يتم بطريقة مشوقة أكثر لو جلسنا مع عدد من الاصدقاء لتبادل الحديث دون أن يكون مجرد حوار على الطريق ، ورحبا بالفكرة .. ودعانا أحدهما إلى بيت أسرته لقضاء السهرة .. كانت الجلسة ممتعة حقا ، فيها من الصراحة ماكنا نتمناه ، وبخاصة أنها ضمت الى جانب رب الدار وروجته أباه وأمه وشقيقته الطالبة في الجامعة .

نساء للبيع

المجاملات في أى حوار تكون بداية لابد منها ، خصوصا أن الصينيين يحبون عادة من يمتدح جمال بلادهم ويتذاكر حضارة أسلافهم ، ويشيد بجهود أجدادهم وإبداعات أبنائهم وبناتهم ، وهنا .. تطل الصراحة بعد انفتاح باب الحوار على مصراعيه .

كانت بداية الحديث ماقرأناه في صحيفة « ديزنهاى » الصينية التى نشرت أن أسواقا لبيع الفتيات قد انتشرت أخيرا الى حد كبير في جهات كثيرة من قرى الصين ، وأن كثيرا من الرجال يشترون الفتيات للزواج منهن وخاصة القرويات ، بسبب هجرة عدد كبير من الفتيات الى المدن .. وذكر الخبر أن متوسط سعر الزوجة يساوى مابين ٨٠٠ و ١٠٠٠ يوان (حوالى ٤٠٠ دولار) .

هنا .. انفتح القمقم .. وانفجرت الطالبة الجامعية عاضبة :

- هل عاد عهد العبودية والرق ؟ ألم يكف المرأة الصينية ماعانت طوال قرون منذ أكثر من ألفى سنة ، حين كان المجتمع المغلق بتقاليده يرفع من شأن الرجل ويحط من قدر المرأة ، مما جعلها تعانى من مرارة الحياة وبؤسها وتعاستها ؟

ودخلت الام وهى تسير ببطء حاملة أوانى الشاى .. وحين سمعت ماتقوله ابنتها تدخلت مقاطعة :

- الواقع أن المرأة العاملة لم يكن لها أى حق أو مكانة في شتى المجالات بما في ذلك الاجتماعية والعائلية .

وأشارت الام البدينه الى قدميها الصغيرتين اللتين لاتكادان تحملانها للسير بشكل طبيعى :

- لقد كانوا الى عهد قريب يضعون أقدامنا ونحن اطفال داخل أحذية حديدية حتى تظل صغيرة جدا .. لقد كانوا يدعون أن ذلك أحد مظاهر الجمال ، ولكن الحقيقة أنهم كانوا يقصدون أن تعجز المرأة عن السير الطبيعى على قدمين قادرتين على حمل جسدها حتى في الطرقات ، ونظل حبيسة جدران الدار تعمل وتشقى كخادمة في خدمة السادة طوال الليل والنهار .. وكانت البنات عبئا على الاباء لأنهم يصبرون على تربيتهن ولاينالهم من ذلك إلا أن يبعثوا بهن حين يكبرن الى بيوت أزواجهن ليعملن فيها ويلدن أبناء يكبرون لأسر غير أسرهم .. وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للامهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لان هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول ، بل لقد كان محرما على النساء أن يخرجن لتقريب القربان الى الأباء والاسلاف والأبشع من ذلك أنه إذا ولد للاسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب فى إعالتهن تركتهن في الحقول .. ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية دون أن يشعر الاهل بشىء من وخز الضمير .. !

قال الاب العجوز :

ـ لاتنس ان الاسلاف نجحوا ـ من خلال حرصهم على عزل البنات في البيوت دون الاولاد ـ في غرس فضيلة العفة عند الفتاة نجاحا كبيرا ، حتى أن بعض البنات كن في بعض الاحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث إذا مسهن رجل بالمصادفة .

ونتساءل : ولكن هذه العزلة لم تكن تفتح الطريق أمام الفتاة للزواج بمن تتمنى أو تحب .

قال رب الأسرة : لم يكن للزواج صلة كبيرة بالحب ، فالغرض من الزواج هو ربط زوجين صحيحين أحدهما بالآخر لكي تنشأ أسرة كبيرة . وهذا الرباط لايصح أن يترك لحكم العواطف القائمة على غير أساس من العقل . ولهذا فلم يكن الزوج الذي تختاره الاسرة لابنتها يستطيع رؤيتها حتى تزف إليه ويسمح له برفع النقاب عن وجهها . ولذلك كانت البنت تدرب على أن تكون رهن إشارة والديها في اختيار زوجها ، وأن تكون حبيسة مطيعة في وقت واحد .

وترد الام وهى تكتم غيظا يكاد ينفجر :

ـ كان الزوج يأخذ زوجته لتعيش معه في بيت أبيه وأمه ، حيث تكدح كدحا في خدمة زوجها وأمه ، حتى يحين الوقت الذى يحررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، بينما الفتاة من الجيل الجديد تختار الزوج الذى تريد وهى تخرج وتعمل ولا يحول شيء أبدا دونها وهى بالتالى لن تقبل العودة الى الرق والعبودية كما يقول الخبر الذي تتحدثون عنه إلا اذا كانت مرغمة .. فلتحمدى ربك يا ابنتى أنك تعيشين في هذا الجيل ولا تثورى عليه ..

المرأة الجديدة

واستردت الفتاة هدوءها وقالت موجهة الينا الحديث :

ـ لست أنكر أبدا أن الفتاة الصينية تتمتع الآن بحرية كاملة مع التزامها بالجد في تصرفاتها واختياراتها . وأن مكانة المرأة قد تغيرت بشكل جذرى ، فهى لم تصبح من أسياد الدولة فحسب ، بل أصبحت قوة مهمة في قضية البناء الاشتراكى في ظل المبادىء الجديدة التى تنص على المساواة بين الرجل والمرأة في فرص العمل والانتاج .

قلت موجها الحديث الى سيدة الدار في ثقة واضحة :

ـ الحقيقة أننا التقينا خلال زياراتنا لمواقع الانتاج والمصانع والمكاتب والشركات بمديرات ومهندسات وعالمات وخبيرات في مختلف المجالات ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد حدث إلا لان النساء يتمتعن الآن بنفس ما للرجل من حقوق . التقينا بالمرأة نائبة للمدير في مصنع الحديد والصلب ومديرة للعلاقات العامة في بكين ،والتقيناها مهندسة ومديرة للتشغيل في مصنع الالكترونيات في شانسى ، وقابلناها طبيبة ونائبة لرئيس العلاج بالوخز بالابر في المركز الطبى بشيان .. ووجدناها مديرة ومشرفة على المركز العلمى والطبى لحماية البندا . كما شهدناها في اجتماع البرلمان (المجلس الشعبى المنتخب) في اجتماعه الاخير الذى اتخذت فيه الكثير من اجراءات الاصلاح وكشف الفساد ومحاربة البيروقراطية ، فكان لها دور كبير في المناقشات الحادة من خلال ٦٣٥ نائبة يمثلن ٢٥٪ من مجمل عدد نواب الشعب .

وسكت قليلا قبل أن أضيف وكأن الحديث مازال مستمرا :

ـ ولكننا في الحقيقة لم نلتق بالمرأة في المدينة كأم ذات أطفال ترعاهم وتحنو عليهم وتستشعر معهم الدفء والأمومة .

قالت الفتاة وكأنها تنبهت الى شيء :

ـ تلك في الواقع هى القضية . وأقولها بصراحة .. أليس من حقى كأنثى أن اتمتع بالأمومة كما يجب أن تكون ، وأن أرضى عواطفى ومشاعر الحنان للابناء ، بينما أنا محرومة من أن أنجب أكثر من طفل حسب القرارات والقوانين ؟ إنى أقولها صادقة أننى ضد هذا التحريم والتحديد .

والتفتت اليها سيدة الدار وقالت في هدوء :

ـ سأقول لك شيئا .. فأنا زوجة ، ولا توجد امرأة في العالم لاتحمل في أعماقها شوقا كبيرا لممارسة الامومة ، فهى تتمنى أن يكون لها مجموعة أطفال ، وعلى الاقل ولد وبنت ، من هنا فإننى لا استطيع أن أنكر ـ ومثلى كثيرات ـ أننا نستشعر قسوة القيود حين نضطر للاكتفاء بمولود واحد ، كما أننا نتلهف الى البقاء في البيت لرعاية أطفالنا وملاعبتهم وإغراقهم بعواطفنا ، ولكننا مع ذلك نكبت الامر في أنفسنا

● رقصتان شعبيتان .. الاولى رقصة القيثار ذى الاوتار الثلاثة لقومية باى تقدم فى المناسبات المحلية .. والثانية رقصة « الفرح والنشاط » التى تجسد سعادة التبتيين بوفرة الحصاد .. والى اليسار طالبة وطالب من قومية « التبت » ومعهما طالبة وطالب من قومية « الي » وفي خلفية الصورة يبدو مبنى معهد القوميات .



تمتاز فتيات القوميات المختلفة بأزيائهن التقليديـة التي يمكن من خلالها التمييز بين كل قومية من قوميات الصين البالغ عددها **٥٦** قومية . . وهكذا وقفت فتاة « القاوشان » في زيها في الحديقة الامبراطورية .



لاننا ندرك أن الاستسلام للطبيعة في هذا المجال يمكن أن يعود على بلادنا بكارثة . . فكان لابد لنا أن نتقبل التحكم في الانجاب وتحديد النسل من أجل صالح بلادنا ، وكفى ما أصابها من التخمة في عدد السكان .

مولود واحد يكفي

كان ذلك في الواقع هو الحقيقة التي تعمل لها الدولة في الصين ألف حساب . . والصورة مثيرة . .

فهل يمكن أن تتصور نفسك مسئولا عن ألف ومائتي مليون انسان . . يكون عليك أن توفر لهم الطعام والاعاشة والاسكان والانتقال والعلاج والرعاية الصحية والتعليمية ؟ هل تستطيع أن تضمن لهذا الجمع الحاشد مختلف إمكانات الحياة أربعا وعشرين ساعة ، نهارا وراء نهار ، وليلا وراء ليل ، وشهرا وراء شهر ، وعاما وراء عام ؟ ! أي عبقرية يمكن أن تفعل ذلك ؟ وأي إنسان يمكن أن يصارع الحياة بكل أثقالها ومشكلاتها وهو مجرد فرد ضمن مئات الملايين من الناس ؟

أسئلة لايستطيع أن يجيبك عنها الا من خاض بالفعل هذه التجربة ، وحمل فوق أكتافه مسئولية السيطرة على الانفجار السكاني ، وتطبيق تنظيم النسل لهذا الزخم الكبير . واحد من هؤلاء المسؤولين وجدنا عنده الاجابة ، إنه هان يونج يان نائب رئيس مقاطعة سشوان التي يبلغ عدد سكانها ١٥٠ مليون نسمة ، (عدد سكان الوطن العربي تقريبا) ، وكانت إجابة المسئول عن أكبر مقاطعة في الصين تقول :

خلال المدة من سنة ١٩٤٩ حتى نهاية عام ١٩٨٥ بينت الاحصائيات أن عدد سكان الصين ارتفع من ٤٥٠ مليون نسمة الى ١١٠٠ مليون نسمة ، بمعدل يقترب من ٢٪ في العام الواحد ، لكن تتبع مسيرة هذا المعدل يبين أن الجهود التي بذلت للسيطرة السكانية منذ السنوات الأولى للتحرير قد تدرج في الهبوط من حوالى ٣٪ إلى ٢,٥٪ في سنة ١٩٧٠ حتى بلغ ١,٤٪ في عام ١٩٧٩

وكان هناك إدراك على مختلف المستويات في أوائل السبعينيات أن المشكلة السكانية تزيد من تفاقم معضلات البناء الاقتصادي على نحو خطير ، مما جعل السيطرة على السكان مدار اهتمام خطة الدولة . وقد أنشئت مراكز خاصة لقيادة الجهود في تخطيط الأسرة ، وأقيمت الدورات الدراسية في كل مكان لرفع وعي القادة والعاملين في التخطيط الاسري ، كما وضعت الأهداف الأصلية والخطوط المرشدة والسياسات المتعلقة بذلك . ويشكل التخطيط السكاني اليوم جزءا لايتجزأ من الدولة . وفي عام ١٩٨٠ حدد قانون الزواج ان على الزوجين واجب ممارسة تخطيط الاسرة ، لتشجيع الزواج المتأخر ، وتأجيل الانجاب .

لكن هل كانت المقارنات مجدية ومقنعة لشعب يتمسك بالتقاليد التي تؤمن بالانجاب المبكر ، وان المزيد من الابناء يزيد من البركات ، وأن الذكر أفضل من الأنثى كما هو الحال في المجتمعات الزراعية التقليدية ؟

الرد يقول :

التغلب على هذه الافكار جزء حيوي من الجهود التثقيفية والدعائية ، والأرقام مقنعة باستمرار ، فقد أظهرت النتائج في احدى التعاونيات بمحافظة شيفانج بمقاطعة سيشوان أن العائلات المكونة من ثلاثة أفراد أو أقل (طفل وعاملين) يصل دخل الفرد فيها إلى ٤٠٠ (يوان) ، ونصيب الفرد من الحبوب ٤٠٠ كجم ، بينما الدخل والاستهلاك للعائلات المكونة من خمسة أفراد أو أكثر (عاملين وطفلين وشخص كبير نسبيا) يصلان إلى ٢٠٠ (يوان) للفرد ، وحوالي ٣٥٠ كجم من الحبوب ، وأن العائلات التي تضم ثلاثة أطفال أو أكثر كانت نستدين بنسبة تصل الى ٨٦٪ . وهذه المقارنات يستوعبها أهالي الريف بسهولة ويسر .

حوافز للاقناع

في مجال متابعة المولود الواحد لابد أن نتساءل : أليست هناك حوافز اقتصاديةإضافية للإقناع العملي ؟ وعرفنا الحقيقة ، فقد وضعت الحوافز الاقتصادية لإنجاب طفل واحد ، لتكون أكثر جاذبية وفائدة . هناك نوعان من الحوافز المالية : ففي المناطق المدنية تقدم للعائلات ذات الطفل الواحد إعانات الرعاية الاجتماعية ، وتتراوح بين ٣٠ و ٦٠ يوانا ، وهذا يتوقف على مكان الإقامة ، وفي الأرياف تختلف باختلاف مناطق العمل . وفي كلا

المنطقتين تقدم العلاوات لكل طفل إلى أن يصل إلى العاشرة أو الرابعة عشرة من العمر .

أما الأمهات اللاتي يتعهدن بإنجاب طفل واحد فتمنح الواحدة منهن إجازة ولادة، تصل إلى ستة شهور . زيادة عن المعتاد ، براتب كامل مدفوع، إذا كانت في جمعية تعاونية . وفي كثير من المناطق تقدم الأولوية للطفل الواحد في دور الحضانة ، وفي الرعاية الطبية ومجال العمل . وبالنسبة للعائلات المدنية ذات الطفل الواحد تقيم في مسكن بنفس مساحة العائلات ذات الطفلين . وفي الأرياف تعطى العائلات ذات الطفل الواحد أرضا لبناء بيت . وقطعة أرض خاصة مساوية لما لدى الأسر ذات الطفلين .

وقد حددت كثير من الجماعات الريفية نظام التقاعد ، وأقامت لذوي الدخل المتوسط بيوتا مريحة لكبار السن ، إذا لم يكن لهم أطفال وهناك جماعات غيرها نضمن لمن ليس لهم أطفال أو لهم طفل واحد أن يتمتعوا بمستوى حياة طيبة . وتقدم الدولة حيثما كان ذلك ضروريا مساعدة مناسبة للجماعات الريفية . ولقد تطوعت ١٤ مليون امرأة متزوجة بالتعهد بإنجاب طفل واحد ويضمن الزوجان بتنفيذ هذا التعهد التمتع بالامتيازات الخاصة من الحكومة في العلاج والتموين والمعاش الإضافي وما إلى ذلك . وقد بلغ عدد الأزواج الذين تعهدوا بإنجاب طفل واحد في بعض المقاطعات بين ٨٠٪ و ٩٠٪ من مجموع عدد الأزواج .

السؤال المثير هو : كيف يستطيع الزوجان التحكم في الا نجاب وتحديد النسل بما لايزيد عن طفل واحد ؟

الاجابة الصريحة التي سمعناها واكدها لنا رئيس الجمعية التعاونية بمقاطعة كوانجهان الريفية أن السيطرة الفعالة تعتمد على تقديم النصائح التقنية والتوجيه حول استخدام وسائل منع الحمل وضمان تقديمها بحيث تكون مضمونة لمن هن في سن الحمل . وتتبنى الصين استخدام موانع حمل فعالة . تتحلى بميزات خاصة تعتمد على الظروف الجسدية والاختيار الفردي ، وتقدم الدولة وسائل منع الحمل بالمجان ، كما يجري الاجهاض الاختياري وعمليات التعقيم الاختيارية . وتمنح البنات اللاتي يقمن بالإجهاض أو بعملية التعقيم مدة للراحة بعد العملية مدفوعة الأجر .

والواقع ان سياسة الولد الواحد تحل الكثير من المشكلات بالنسبة لدولة مثل الصين التي مازالت تواجه مشكلة زيادة السكان الخطيرة ، ويعتبر تحديد نمو السكان بحيث لا يتجاوز ١٢٠٠ مليون نسمة في نهاية هذا القرن مهمة شاقة . وذلك لأن عدد الشباب والنشء يمثل نسبة عالية جدا من مجموع السكان . فقد ولد خلال الأعوام الستة عشر الأخيرة فقط حوالي ٤٢٨ مليون وليد . بلغ قسم كبير منهم عمر الزواج ويتوقع أن ينجبوا في السنوات الاثنى عشرة الباقية من هذا القرن . ولاشك أن تلك التوقعات الرهيبة هي التي جعلت الحكومة الصينية تتخذ سياسة الولد الواحد . وتتحكم بصرامة في الولد الثاني ، وتمنع البتة الولادة الثالثة . ولاننسى ان الحكومة تشجع على ممارسة عملية التعقيم الصناعي وأكثر من ذلك فإن الاطباء والقادة في المقاطعات يبدأون عادة بقبول عملية التعقيم قبل الجماهير مما يزيل مخاوف الناس .

على الرغم من كل ذلك هناك استثناءات تراعي احتياجات المجتمع . فالأسرة في المدينة يمكن أن يسمح لها بإنجاب طفل اخر إذا كان الابن الأول معوقا . وفي المناطق الريفية يسمح بإنجاب ابن ذكر إذا كان المولود الأول أنثى . أما في المناطق التي تعيش فيها القوميات القبلية مثل منغوليا الداخلية أو التبت واليبي التي لا يتجاوز عددها ٦٪ من السكان فتتاح للزوجين فرصة الإنجاب دون معوقات ، باعتبار أنهم أقليات ، وأن حياتهم الشاقة تقوم في الغالب على الرعي والزراعة في المناطق الجبلية البعيدة عن المدينة ، مما يجعلهم يحتاجون إلى كثير من الأبناء ، غير أن هذا ينطبق فقط على القوميات التي لا يتجاوز عدد أفرادها عشرة ملايين نسمة .

الاقليات القومية :

كانت فرصة ذهبية ونحن في شنجدو أن نتعرف على الاقليات القومية الصينية من خلال زيارتنا لمعهد القوميات . فهذه المقاطعة الواقعة في جنوب غرب الصين تضم حوالى ٣٠ قوميةمن بين ٥٦ قومية هي مجموع القوميات التي يضمها الشعب الصيني



مولود واحد يكفي . . وهكذا رضي الأب بابنته الوحيدة يتنزهان معا في الحدائق والمتنزهات . . وعندما يأتي المساء يذهب لقضاء السهرة مع زوجته في المقهى الشعبي . . أما في المناطق الريفية (على الصفحة المقابلة) فالمرأة تعمل في الحقل تحرث وتعزق الأرض . . والأم في بيتها الريفي تعد الطعام . . بينما الصغيرة تلعب وحيدة مع كلبها الصغيرة .

المعهد الذى زرناه والتقينا بمديره وعدد من أساتذته وطلابه يدرس فيه حوالى ٢٧٠٠ طالب وطالبة جاءوا من ٣٠ قومية ، بما فيهم دارسون من قوميات التبت ويى ومياويونان وتشيانج وشوى . . في هذا المعهد يتم إعداد كوادر من الاقليات القومية للمساعدة في البناء الاقتصادى في المناطق التى يعيشون فيها ، وهو واحد من اربعة معاهد مماثلة في مدن اخرى . وعرفنا من مدير معهد جنوب غرب الصين أنه قد تأسس في أول يونيو ١٩٥١ وتخرج فيه اكثر من ٢٠ الف طالب وطالبة تولوا بعد تخرجهم مناصب مختلفة على مستوى المقاطعة ومستوى الولاية ومستوى المحافظة ، وأصبح منهم خبراء في مختلف مجالات العلوم ، وحصل عدد منهم على درجة الدكتوراة في بعثات أرسلوا بها الى بعض الدول الاجنبية .

ونتعرف خلال لقائنا مع الطلاب والطالبات من القوميات المختلفه على كثير من العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية في مناطق تواجدهم ، بعد أن استعرضنا صورا منها خلال عروض قدموها لنا في المعهد ، كما تعرفنا على ألوان أخرى منها في المهرجان التقليدى للقوميات الذى جرى في شنجدو .

عدد ابناء الأقليات القومية يبلغ حوالى ٧٠ مليون نسمة ، بينما الاغلبية العظمى من سكان الصين تتشكل من قومية الهان ، وبذلك فإن نسبة الاقليات تشكل حوالى ٧٪ من العدد الاجمالي للسكان . واكبر الاقليات القومية هى قومية تشوانج (١٣ مليون نسمة) وأصغرها هى قومية هيجة (١٤٠٠ نسمة) وبينها ١٥ أقلية قومية يتجاوز عدد أبنائها مليون نسمة . وعلى الرغم من أن هذه الاقليات القومية لاتشكل إلا نسبة ضئيلة بالنسبة للمجموع الكلى لسكان الصين ، إلا أنها تنتشر فوق مساحة تزيد على ٦٠٪ من مساحة البلاد حيث تتوافر المصادر الطبيعية مثل المعادن والغابات والمنتجات الزراعية والحيوانية . واذا كانت هذه الاقليات تتكاتف كلهامع أبناء قومية الهان الرئيسية لبناء الحضارة الجديدة للصين الشعبية وبنائها الاشتراكى ، إلا أنهم كانوا في الصين يعانون من التمييز القومى والاضطهاد العنصرى مما جعلهم متخلفين في السياسة والاقتصاد والثقافة . ولهذا فقد كان لابد للنظام الجديد أن يوجه سياسته للاهتمام بالاقليات القومية ، والتأكيد على المساواة والتضامن الوطنى ، وممارسة الحكم الذاتى الاقليمى القومى ، وإعداد الكوادر والفنيين من أبناء هذه الاقليات أيضا ، وتطوير الاقتصاد والثقافة في المناطق التى يقطنونها .

الفنون والعادات

عن الحياة الاجتماعية والعادات والتقاليد ومظاهر الثقافة تتبعنا بعضها من خلال أحاديث الطلاب والطالبات الذين التقينا بهم في المعهد من مختلف القوميات .

الصورة الثقافية العامة يؤكدها الاهتمام بفنون التراث الثقافى الصينى العريق . وقد ثبت من تصاميم الاوانى الفخارية الملونة التي ترجع الى اكثر من خمسة آلاف سنة أن الرقص الصينى كان أبرز مشاهد هذا التراث ، حيث تتبدى براعة الراقصات والراقصين المصحوبة بالنغمات الموسيقية الجميلة ، مع أداء متعدد الالوان متألق الرونق والبهاء مازال الكثير منها يعتبر رقصات قومية شعبية تقدم حتى الآن في العروض والمهرجانات والاحتفالات التقليدية .

معظم أهالى الاقليات القومية بارعون في الغناء والرقص . ويغلب أن يقيموا مهرجانات الرقص الشعبية في الاعياد القومية واحتفالات الزواج والمناسبات السعيدة . فعند قوم التبت يحتفلون احتفالا كبيرا في عيد « التطلع الى الثمار اليانعة » وقوم « يي » يحتفلون « بعيد المشاعل » ولدى كل قومية مسمى لاعيادها مثل « مهرجان الرقص » عند قوم « جينغبوه » و « سوق مارس » عند قومية باى و « عيد رش الماء » عند قومية داى . وفي كل مهرجان من تلك المهرجانات يشارك في العرض المئات من الناس كبارا وصغارا ، رجالا ونساء ، في الرقص التعبيرى القومى .

شهدنا رقصة المنغوليين في المهرجان التقليدى للقوميات . الرقصة تستمد حركاتها من الفروسية بتعبير رائع عن الشهامة والشجاعة أما رقصات الداى واليى والياو فيتغنون في رشاقة مع التلويح بالايدى وتنويع الخطوات المنسقة . بينما الرقص الويجورى يتميز بجماله الخاص المتمثل في الدوران السريع المتغير وتحريك العنق تحريكا يبعث على البهجة

والطرب . ويبهر الرقص الكورى المشاهدين بخفته ورشاقته بينما رقص التبت يتميز بروعته وسهولة أدائه .

هذا الرقص الجميل الذى تزاوله القوميات لم يعرف مرقصا ولا مسرحا ، فالناس يمارسونه في بيوتهم ومواطنهم . وفي عام ١٩٥٢ انشئت « الفرقة المركزية للغناء والرقص القوميين » وبدأت تتعهد جمع رقصات القوميات الصينية ودراستها . وتبع ذلك تأسيس منظمات فنية محلية للغناء والرقص القوميين في المقاطعات والمناطق الذاتية الحكم والولايات والمحافظات ، ويتركز أبناء القوميات حيث تنظم الدوائر الحكومية المعينه بين فترة واخرى مهرجانات للرقص القومى . ومع تحسين الرقصات الشعبية وتهذيبها والاهتمام بها ابتدع الفنانون المبدعون ألوانا من الرقص التعبيرى الذي يصور أمورا شتى تحمل أشكالا متباينة من الحياة الاجتماعية لمختلف القوميات .

حرير دود القز :

في مصنع الحرير شهدنا كيف تتم صناعته ونسيجه وتلوينه . قالت لنا المشرفة على التشغيل ان الصين تنتج وحدها نصف كمية الانتاج العالمى . ويعمل اكثر من عشرة ملايين شخص في تربية الديدان وصناعة النسيج . في داخل المصنع لافتات تعلن أنه لايحق للعاملين في تربية الدود التدخين ولا يسمح للنساء بالتجمل بمساحيق التجميل ولا اكل الثوم أو المواد شديدة الرائحة ، ولايسمح بدخول معامل تربية الديدان الا بأقدام وأحذية نظيفة جدا . فالاعتقاد هو أن الدود يهلك من شم الدخان ، ورائحة الخل كما أنه يضج من صوت الرعد ودق الطست والهاون ، وهو لايطيق رائحة الحائض والجنب من النساء فيمنعن من الدخول حتى يتطهرن .

وقد نجح الصينيون طوال قرون بالاحتفاظ بسر انتاج الحرير وتربية ديدان القز . وأصدر الاباطرة قرارات بتعذيب كل من تراوده نفسه أو تغريه عروض الأجانب بافشاء السر حتى الموت . لكن سر الحرير ذاع مع بدء انهيار الامبراطورية وذلك حين نجح عدد من القساوسة المبعوثين من قبل الامبراطور جستنيان باخراج بعض شرانق الدود في عصيهم المجوفة . واحتل الحرير في العصور الوسطى مركزا مهما في جميع عمليات التبادل التجاري . وساهم المسلمون مساهمة فعالة في إدخاله الى الوطن العربى والدول الاوربية التي كانت على صلات تجارية مع المسلمين .

وفي شيان أول عاصمة ملكية في مقاطعة شانسي وقفنا نشهد أول طريق الحرير القديم الذى كان ينطلق من المدينة عبر البقاع المقفرة مخترقا الجبال والصحارى في آسيا الصغرى لينتهى في تركيا او لبنان . ومن هناك كانت القوافل - التى بدأت بحمل الحرير ثم تجاوزتها الى بضائع أخرى شرقية كثيرة - تعبر البحر الأبيض المتوسط الى اوربا . وكان اروع ماتحمله هذه القوافل المنسوجات الحريرية الصينية ذات الرسوم الزاهية التى لقيت الاعجاب الكبير بالحضارة الصينية في نقوش الاوربيين .

بين الجد والاستهانة :

ان الانتاج المتباين الذى شهدنا أمثلته في الصين يؤكد أن الانسان الصينى الجديد يستطيع أن يصنع المعجزات كلما جد في العمل وأخلص في سبيله .

ولكن هذا كله لا يمنع من أن هذه الجدية التي يشتهر بها الصينيون في أعمالهم يقابلها في كثير من الأحيان إهمال واستهانة من بعضهم . وقد أثار استغرابنا ماقرأناه في صحيفة الشعب الصينية وهى تعترف بأن ٣٠ مليون موظف لا يفعلون شيئا أثناء وقت العمل سوى لعب الورق والشطرنج ومشاهدة التلفاز او الاشتراك في سباق الدراجات . وقد أدى مثل هذا الاهمال الى ان بدأت الشركات الحكومية في طرد أعداد كبيرة من عمالها غير المنتجين على الرغم من أن هناك نقاشا علنيا حول مشكلة البطالة الحساسة في البلاد . وبسبب مثل هذه الاستهانة من بعضهم كما عبرت عن ذلك نائبات الشعب في المجلس الوطني ، اضطرت تسعون شركة حكومية الى فصل ثلاثة آلاف عامل من وظائفهم في مدينة شنغهاى وحدها ونقلوا الى وظائف أخرى تختلفه بحيث يتقاضون مرتبات أقل بنسبة ٦٠٪ عن المرتب الذى كانوا يتقاضونه في وظائفهم الاولى ، وهم يعتبرون ذلك نوعا من إعطاء العبرة للعاملين حتى يزداد إنتاجهم مادام الاجر يجب أن يكون على قدر العمل . □



مَن لا يعَرف الصّقــر ... يشويــه

وَصَـل ذات يَوم الى شيَراتون ضيفٌ يَصْطحبُ معَـه رَفيقًا مُجنحًـا ، وَهوصَقــرٌ عزيـزٌ على صَاحبـه وَثـمين جـدًا . وَقـد استَقبلنا ضيفنَـا وَصقـرْه الجَميل بكل رَحَابْ ووفرنَـا لهـُمَا في غرفتهـمَا كُل اسَاليب الراحَـة المُمْكنة لأننـا نعرف معَنى المثَل الخليْجي القائـل "مَن لا يعَرف الصّقـر ، يشويْـه".

وقبـل أن يحين مَوعـد الغـذاء بقليـل ، إستَقل الموظف المشـرف على الخدمَـة سَيارة اجـْرة الى السّوق المحَلي حَيث انـتقى حَمَامتين سَمينَتين وَعَاد بهمَا الى الفنـدق لذبْحهـمَا وتقديمهـمَا طازجتين لِلصّقـر الجَائع .

وبالطبْع ، وَجـد ضيفنَـا في معَامَلة شيراتون متعة وإختـلافا يَجعَـلا فعْـلاً قولنـا أن " في شيَراتون ، أجْـمَل اللحَظات أبسَطهَـا " حقيقـة لاتنكـر. بَل أنّ الصّقـر بَدا في صحَـة مُمتازة ممّا شجّع صَاحبـه السعيـد علىٰ البقـاء لمدة اسْبوع إضافي للتمتع بخدمَاتنـا الفريـدة .

في كل أنحـاء العَـالم ، نفتخـر في شيَراتون بترحيْبنا بكل مسَافـر وَكل غريْبْ يَبْحث عَن الخـدمَة المتميزة وَالضيَافـة الاصيْلة.

Sheraton
The hospitality people of
ITT





بقلم : الدكتور أحمد النعمان

بوريس ريبجنكوف رسام سوفيتي ، ولد في نهاية القرن الماضي ، ومازال يعيش ويرسم حتى الآن .

الا أنه في السنوات الخمس الأخيرة فقد البصر ، ومع ذلك فان عطاءه الفني لم يتوقف !

مع أن « رأسمال » الفنان التشكيلي هو حاسته البصرية ، فكيف استمر بالعطاء ، وهل يمكن للبصيرة أن تسد جوانب الفقد والخسارة للبصر ؟

ليست هذه حكاية من نسج الخيال ، لقد حدث ذلك في موسكو ، مع بداية الثمانينيات ، حيث كان الضوء ينحسر تدريجيا عن عيني بوريس ريبجنكوف وقد داهمته « جيوش » الظلام ، وفقد النظر تدريجيا ، وأصابه العمى تماما مع بداية عام ١٩٨٣ ، وبدأت المأساة ، وبدأ الصراع مع الحياة ، ومن جديد كان « هاملت » يردد السؤال : أكون أو لا أكون ؟؟

وكان أخيرا انتصار بوريس ريبجنكوف ، فكان « هاملت » من جديد !

العمى في موطن فيودوروف !

كان ذلك عام ١٩٨٢ ، اذ جلس بوريس ريبجنكوف على كرسي أمام طبيب العيون ذي الشهرة العالمية فيودوروف ، وبعد دقائق فقط ، أصدر فيودوروف كلمته الأخيرة :

« لا قراءة ، أو كتابة ، أو رسم بعد اليوم ، عليك أن تنسى الابداع مرة ، وإلى الأبد » .

هكذا كان الحكم : عقوبة قصوى ، فما يبقى للفنان الرسام إن هو فقد النظر ؟ لقد قالها البروفيسور فيودوروف بهذه القسوة ، وكأنما ليؤكد من جديد بأنه طبيب وليس قسيسا يخفف آلام الآخرين بالكلمة الرقيقة والموعظة الحسنة .

عام ١٨٩٩ ؟

ولد بوريس ريبجنكوف أواخر عام ١٨٩٩ ، في آخر عام للقرن التاسع عشر ، قرن الأدب الكلاسيكي العظيم .

ومنذ الطفولة تتلمذ على أيدي أساتذة وفنانين معروفين ، أمثال الكساندر دريفين ، ولوبوف بابوفا ، والكساندر شيفجنكو . وكان هؤلاء من الرسامين المعروفين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وما أن أصبح عمره (١٦ - ١٧) سنة حتى أصبح هو أيضا معروفا ، وجذب إليه انتباه نقاد الفن التشكيلي آنذاك .

ولقد اخترت من بواكير أعماله الأولى لوحة « المساء الذهبي » (زيت ١٩٢٤) ، لنرى من خلال هذه اللوحة على الأخص مدى التقنية « الأكاديمية » والشعور الواقعي باللون والظل والنور ، هذه العناصر التي ستحدد مسيرة الفنان قبل أن يفقد النظر وبعد ذلك .

تجربة تجريدية :

إن بوريس ريبجنكوف فنان واقعي ، مجبول على حب الطبيعة ، بكل ما فيها من « هارموني » تناسق الألوان ، وصراع الظل والنور ، غير أن موجة « الفن الحديث » التي اجتاحت روسيا في بداية العشرينيات وتزعمها كل من كاندينسكي وماليفيج شملت كل الفنانين آنذاك ، فجرب بوريس الشاب آنذاك نفسه في لوحة تجريدية واحدة ، ولقد رأيتها في مرسمه اثناء اجراء هذا اللقاء معه ، وهي عبارة عن هياكل عمارة .

ولما شاهد هذه اللوحة « كازيمير ماليفيج » وكان آنذاك يبحث في « مختبره الفني » في مسألة (المربع) قال لبوريس :

« إن في هذه اللوحة جاذبية أرضية كبيرة » .

كان ذلك الحديث في العشرينيات ، وقد صدق ماليفيج ، فبوريس ريبجنكوف ملتصق بالأرض ، ولا يمكن أن يصبح فنانا تجريديا ، ولم يكن يدري آنذاك لا الفنان التجريدي الكبير ماليفيج ، ولا الفنان الواقعي ريبجنكوف ، بأن « هذه الجاذبية الأرضية الكبيرة » هي التي ستساعد الفنان المنكوب بفقدان البصر بأن يقف على رجليه من جديد على أرضية الواقع ، واقع الفن وواقع المصير معا !

٦٥ عاما أخرى

كان حديث « الجاذبية الأرضية » عام ١٩٢٣ ، ومرت السنون ، سنون من السعادة والعطاء والانتاج الغزير ، كانت خلالها عينا الفنان تبحثان تحت أشعة الشمس عن الجميل والأجمل في الطبيعة ، وكانت فرشاته خلالها تعطي تفسيرات انطباعية « للظل والنور » ، وبالتالي لجوهر الألوان ، وكان الفنان ينتقي من آلاف درجات الظل والنور درجة واحدة يسجلها في لوحته ، كانت عيناه كأي فنان تشكيلي أصيل ، هما الحكم بين ما هو كائن وبين ما يجب أن يكون ، كانت عيناه تجدان ما خلف الأشياء شيئا جديدا هو اللوحة ، وتنتقيان من الواقع كنوزا لا تراها ملايين الأعين ، أعين الناس الآخرين .

كانت تلك سنوات السعادة والفرح والعطاء ، ومرت بالفنان سنوات عجاف أيضا ، سنوات الحرب الوطنية العظمى . وقد عمل فنانا ومراسلا في الجبهة ، وعاش حصار لينينجراد (بألف ليلة وليلة) ، ومن جديد كانت عيناه هما الحكم بين



● لوحة «موسكو في ضواحيها» رسمتها زهيرة في مصر عام ١٩٨٥



● لوحة «أم في حصار المخيمات» عام ١٩٨٧



● لوحة «البوشكية» رسمها في سورية عام ١٩٨٧

١٩٢٤



١٩١٤



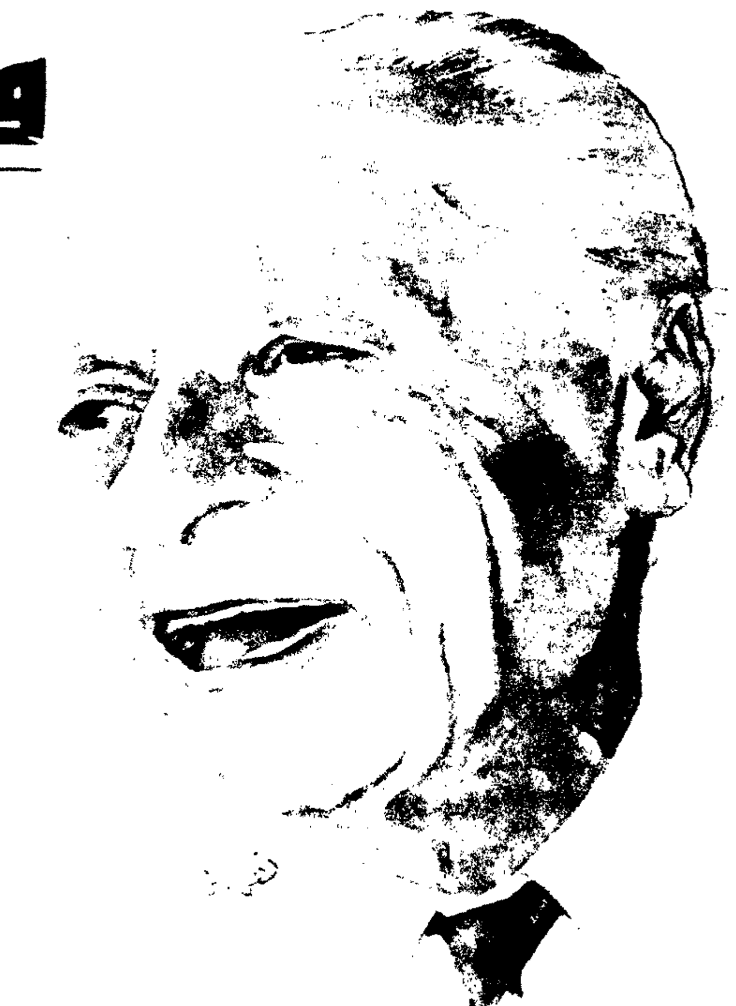
القصيدة

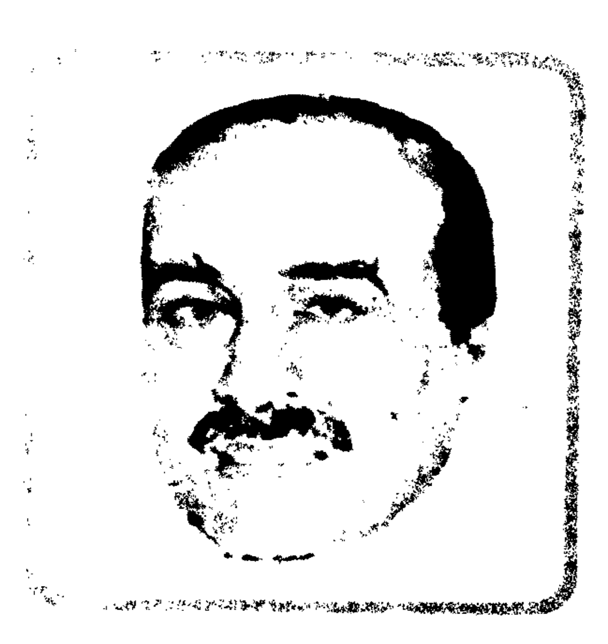
بقلم : أحمد بلحاج آية وارهام

هَلْ أرى وَجْهَهَا كائتلاقِ الندى ... حين تَغْزِلُ رُوحي لَهَا مَوْعِداً ؟
هي تأكُلُ مِنْ جَسَدي كُلَّمَا ... أَيْنَعَ الليْلُ ، وازْوَرَّ عَنْهُ الصَّدَى
خُضْرَةُ نَبْضُهَا وَهَجُ عِطْرُهَا ... وَأنَا الشَوْقُ مَدَّ إليْهَا اليَدَا
صَاعِدٌ في سَنَاهَا انْشِطارِي وفي ... مُقْلَتِي عَطَشٌ يَستَفِزُّ المَدَى
كَمْ يَنَابِيعُ أَسْرارِهَا أَسْرَجَتْ ... في فؤادي السَّكِينَةَ والسُّؤْدَدَا
وَصْلُهَا النَفْيُ يُدْمِي ازْدِهَائي إذا ... شَبَّ في صَحْوَةِ الروحِ أو عَرْبَدَا
لم يكن زَهوها وَرْدَةً للرِّضا ... أَوْ لَهيبًا يُفَجِّرُ صَقْعَ الجَدَا
هي خاصِرةُ للجُنُونِ التَوتْ ... في مِيَاهي وَضَاءَتْ كَطَبْعِ الرَّدَى
أَوْقَدَ الجُرْحُ بوْحَهُ مبتهلا ... علها تصطفي شمْسَه مَعْبَدا
علها تَكْشِطُ الحُزْنَ عَنْهُ فَقَدْ ... مَلَّ هذا الدُّجا سَيدا أَدْرَدَا
كيف أَنْقُلُ زَهْرَ افتتاني إلى ... نجمةٍ قَدْ رأَتْ في دمي عَسْجَدَا ؟ !
كَيْفَ أَزْرَعُ أَلوانَهَا حُلُماً ... في الْيَاسِ الذي يأْنَفُ المَوْرِدَا ؟ !
مات في خَافِقِي طائرٌ والرُّؤَى ... غُرْبَةٌ عَانَقَتْ شَجَرا أَجْرَدَا
كَيْفَ تُخْفِي القصيدةُ أَوْقَاتَهَا ... عن دِمَائي ووقتي بها اسْتَنْجَدا ؟ !
ساهر في تفاصِيلِهَا القلبُ مُذْ ... صَوْتُهَا كان لي في السرى فَرْقَدَا
أَيُّهَا الوقتُ هل التقى وَجْهَهَا ... أم يَدُ الصمتِ تَحْفِرُ لي مَرْقَدا ؟

* كاتب وشاعر من القطر المغربي ـ مراكش

وجهاً لوجه





توفيق يوسف عوّاد و جهاد فاضل

- إنني أحب الكلمة . أما كيف أكتب فكما أحب المرأة !
- كتبت قصصي الأولى بلا وعي تام لأصول هذا النوع بالذات
- أبو الفرج الأصفهاني - في نظري - قاص من الدرجة الأولى
- الفن كاذب في جوهره مهما ادّعى التصدق
- لست من أنصار الشعر الجماهيري . الشعر أرستقراطي من النخبة للنخبة
- شعراء العرب العذريون كذابون !

احتفلت الأوساط الأدبية في لبنان بمرور خمس وسبعين سنة على ولادة الكاتب اللبناني الكبير توفيق يوسف عواد ، وبمرور خمسين سنة على صدور مجموعته القصصية الأولى « الصبي الأعرج » .

توفيق يوسف عواد ، قاص ، وروائي ، وشاعر ، له العديد من الكتب منها في مجال القصة : الصبي الأعرج ، قميص الصوف ، العذارى ، مطار الصقيع . وفي الرواية : الرغيف ، طواحين بيروت . وفي الشعر : قوافل الزمان . وله كتب أخرى سجل فيها أحداثا وخواطر أدبية ، منها : غبار الأيام ، فرسان الكلام . وآخر ما صدر له كتابه « حصاد العمر » الذي يضم بعضا من سيرته الذاتية ، وفيه يمزج الكاتب القصة بالمسرح ، وبالشعر ، وقد كتبه على سمتٍ فريد لم تعرفه كتب السيرة ، فهو ينطلق فيه من ازدواجية الانسان ، من الصراع بين « الأنا » و « الأنا الداخلية » مستعيراً أسطورة شق وسطيح التراثية المعروفة .

ترجمت بعض كتب توفيق يوسف عواد إلى عدة لغات أجنبية منها : الإنكليزية ، والألمانية ، والروسية ، واختارت منظمة الأونسكو روايته « طواحين بيروت » في سلسلة آثار الكُتّاب الأكثر تمثيلا لعصرهم .

وفيما يلي حوار مع توفيق يوسف عواد أجراه « للعربي » في بيروت جهاد فاضل .



* أستاذ عواد : لماذا تكتب ؟ وكيف تكتب ؟ لماذا كتبت « الصبي الأعرج » ؟ ، وما الظروف التي أحاطت بكتابتك لها قبل نصف قرن ؟

- أكتب لأنني أحب الكلمة ، أمّا كيف أكتب فكما أحب المرأة ، والكلمة عندي امرأة . سل العصفور لماذا يغرد ؟ ، أو الضفدع لماذا ينقنق ؟ ، أو سل الريح لماذا تهبّ ؟ ، أو البركان لماذا يثور ؟ ، وكيف ؟ وهو الأصح بالنسبة إليَّ .

« الصبي الأعرج » هو الكتاب الأول الذي ظهر لي سنة ١٩٣٦ ، نشرت محتوياته أو نشر معظمها في مجلة « المكشوف » ، وكانت في ذلك العهد تجمع حولها نخبة من الكتّاب والشعراء ، صاحبها فؤاد حبيش ، لم يكن أديبا كبيرا ، ولكنه كان مولعا بالأدب وعشيرا للأدباء ، وكان قادرا على خلق جوّ لهم في « المكشوف » لم يوفره أحد سواه : انفتاحا ، واندفاعا ، وتشجيعا على النشر ، وكان من الثائرين على القديم ، إذ كان الأدب في لبنان وفي سائر البلدان العربية تقليدا أعمى لهذا القديم ، همّه الألفاظ المنمقة والقوافي الرنانة . كان الأدب في جملته بعيدا عن الحياة وكأنه يعيش على هامشها ، فإذا كتب أحدهم في القصة مثلا أو في الرواية فكتابته سرد تاريخي جاف أو وعظ أخلاقي بارد . مع بعض الترجمات ، غثها وسمينها ، عن الآداب الأوروبية وخصوصا الفرنسية .

والدي وأبو الفرج الأصفهاني

* هل كان لديك وعي - وأنت تكتب « الصبي الأعرج » ومن بعدها « قميص الصوف » و « الرغيف » - بأنك نوعاً أدبياً جديداً ؟ هل اطلعت على أعمال ميخائيل نعيمة في هذا الباب أو أعمال غيره ؟

ـ كتبتُ قصصي الاولى بلا وعي تام بأصول هذا النوع بالذات ، كتبتُها هكذا عفوا ، أو لعله الوعي الباطني المنحدر إليّ من الدم ، كان والدي محدِّثا من الطبقة الأولى ، وقد أتيح لي في « حصاد العمر » أن أشير إلى تأثيره فيّ من هذه الناحية « كانت مجالسه في بيته وعند الآخرين محلاّة دائماً بحديث يستقطب الاهتمام ، فالعيون كلها شاخصة إليه ، والآذان مشدودة إلى سماعه ، إذا روى خبرا أو نادرة أو نكتة فحفْر وتنزيل في الموضوع الذي يعالجه المجلس ، متدفق في السرد ، صائغ في اختيار الكلمات ، خبير في توزيع الأضواء والظلال على شخصياته ، لمّاح في الوصف ، لذّاع في التعليق ، يسوق الحادثة حثا ويحبس لها الأنفاس في الصدور ، حتى إذا انتهت أضاء مغزاها على شرر عينيه إضاءة الأسهم النارية » . كلماته ما تزال ترنّ في أذني ، وشرر عينيه ما يزال يضيء لي الطريق . ومنذ الصغر انكببت على القراءة ، وفي يقيني أنني سأصبح يوماً ما كاتبا وشاعرا . ولعلك تذكر ـ مادمنا في حديث « حصاد العمر » ـ الصراع الذي حصل بين « شق » و « سطيح » ، أعني بين « الأنا » و « الأنا » في داخلي ، عندما طلبت من ابني أن يهدي إليّ في العيد قلم « الكونكلان » جدَّ « الباركر » ، فأهدى إليَ بدلا منه حذاء جديداً . « صحيح أن سطيح وضع حذاءه الجديد اللماع إلى جانبه في الفراش ، ولكن « شق » بات أشقى ليلة في حياته وظلَّ اللحاف يعلو ويهبط وهو يجهش بالبكاء حتى الصباح » . .

نعود إلى القصة والرواية ، تأثرت كذلك بأبي الفرج الأصفهاني صاحب « الأغاني » ، كنت مولعا في صباي باثنين : الأدب العربي القديم ، والأدب العربي الحديث الآتي إلينا من « الرابطة القلمية » في نيويورك : جبران خليل جبران ، ميخائيل نعيمة ، إيليا أبو ماضي ، نسيب عريضة . على أنني كنت أجد لذة لا توصف في قراءة « الأغاني » ، وكان سحرها يطغى عندي على الأدب الحديث على الرغم مما كنت أجد فيه من نبض الحياة وطلاوة التعبير ، ولعلي كنت أستمتع بأخبارها ونوادرها لما اتصفت به من مزايا القصة ، وهي الأقرب إلى نفسي من سائر الأنواع الأدبية . أبو الفرج في نظري قاصّ من الطبقة الأولى ، في براعة سرده ، ووصفه وايجازه ، قد يعترض بعضهم بأنه لم يمارس القصة كصنيع فنّي له أصوله وأهدافه ، ولم يفكر إلا بالخبر أو النادرة ، أنا لا أفرق بين هذا وذاك .

أما « الرابطة القلمية » فكان تأثري بمستشارها ميخائيل نعيمة كبيرا ، أحببت منه « الغربال » في النقد ، وفي الشعر حفظت أكثر قصائده عن ظهر قلب ، قصصه ، قرأت منها آنذاك « العاقر » و « ساعة الكوكو » وغيرهما . وأنا ، مع إجلالي لنعيمة ، أعتقد أنه أجاد في عدة أنواع كتَبَ فيها ، إلا أنه في القصة ـ ما سبق له فيها وما لحِق ـ لم يبلغ المستوى الذي بلغه في سواها .

في ذلك العهد قرأت أيضا بعض قصص محمود تيمور وأخيه محمد تيمور ، وقرأت لابراهيم عبد القادر المازني « صندوق الدنيا » ، وعلى أثر قراءته كتبتُ من هنا ، من بحر صاف ، إلى « السياسة الأسبوعية » في القاهرة ـ وكانت لسان حال الأدباء في الوطن العربي ـ مقالا تصديت فيه لنقده ، ولست أدري كيف نجوتُ من سخريته ، وكان سيدا في الساخرين . وجهت اليه رسالة مفتوحة مخاطبا إياه هكذا : « أخي ابراهيم » ! إن يقدم يافع في الثامنة عشرة على الكتابة إلى أديب كبير كالمازني ، وهو في أوج الشهرة ، وإن يتصدَّى لنقده وإسداء النصح له ، فجرأة أقف عندها اليوم بكثير من الدهشة ، وأطلب لها من المازني ـ في قبره ـ العفو والمغفرة .

زينة . . حَبَلَ بها غضبي

* يلحظ القارىء أن جميع أبطال رواياتك ثائرون ، بم تفسر هذه الظاهرة ؟

ـ لهذه الظاهرة أسباب عديدة ، شخصية وأدبية . شخصية : لكوني نشأت في أجواء الحرب العالمية الأولى ، وهي الحرب التي عرف فيها لبنان الجوع والعذاب والقهر والظلم ، منذ ذلك الوقت نبتت لي أظافر زُرق محددة ، هي التي أمسكتُ بها القلم فيها

بعد وكتبت « الرغيف » بأبيها وأمها ثورة سامي عاصم ، أحد أبطال الرواية الذي قضى حياته ينظم القصائد ويدبِّج المقالات داعيا إلى الحرية والاستقلال ، ثار في النتيجة على نفسه : « ماذا أعمل في هذه المغارة » ؟ (حيث كان مختبئا) وهل القصائد والمقالات قادرة على كسر نير الأتراك ؟! وبعد القبض عليه وسوقه إلى الديوان العرفي هرب من السجن ملتحقا بالثورة العربية . أما زينة ، البطلة الأخرى في « الرغيف » فَمِنْ بنات غضبي . حبل بها غضبي افتقادا للرجال وشماتة بهم .

انقطاع ثم عودة

* قيل الكثير عن فراغ ما في سيرتكم الأدبية ، كتبت ثم تركت الكتابة وانصرفت إلى العمل الدبلوماسي ، ثم فجأة عدت إليها ولكن بعد انقطاع حير الكثيرين وقدموا له تفسيرات شتى ، فما تفسيرك أنت ؟

ـ حياتي الأدبية تنقسم إلى مرحلتين كما أشرتَ في سؤالك . الاولى تمتد من ١٩٣٦ إلى ١٩٤٤ وفيها صدر لي : « الصبي الأعرج » و « قميص الصوف » و « الرغيف » و « العذارى » (وقد أجريت على « العذارى » فيما بعد تعديلا) ، ثم انقطعت عن الكتابة قرابة عشرين سنة ، وعدت إليها في « السائح والترجمان » الصادر سنة ١٩٦٢ ، ثم تلاه « طواحين بيروت » ، و « قوافل الزمان » ، و « مطار الصقيع » و « حصاد العمر » . لم أكتب في فترة الانقطاع في تلك السنوات العجاف ، إلا بعض القطع الصغيرة في جريدة « الحياة » بإمضاء « عبده » وفي غيرها من الصحف ، أنحو فيها نحو « النهاريّات » التي شرعت بكتابتها سنة ١٩٣٣ بإمضاء « حماد » في « النهار » عندما كنت سكرتيرا للتحرير فيها ، وهي عبارة عن خواطر أدبية ، اجتماعية ، سياسية ، وأحيانا شعرية ، وقد اخترت طائفة من هذه القطع وضمَّنتها كتابي « غبار الأيام » .

* لماذا انقطعت عن الكتابة ؟

ـ لا للإغراءات التي قدمتها لي الوظيفة كما ظن بعض الزملاء ، ومنهم الزميل العزيز سهيل إدريس ، أصدر كتابا بعنوان « أصابعنا التي تحترق » ، وكتب دون أن يسميني ودون أن يسمي سواي ، كَتَبَ وعَتَبَ متسائلا لماذا انقطعنا عن الكتابة ؟ وزعم أنني انقطعت لانصرافي إلى ترف الحياة الدبلوماسية . . . ومضى في ذلك بعيداً ، قلت له أنت مخطىء ، فالواقع أنني انقطعت عن الكتابة قبل أن أدخل الوظيفة بسنتين أو أكثر ، وكان انقطاعي زهدا حقيقيا بالأدب وبالفنون إطلاقا ، وبعده جاءني صديق آخر هو سعيد فريحة . سألني في حوار طويل عريض ، صارخ وساخر معا ، أين توفيق يوسف عواد الذي ملأ دنيانا الأدبية ؟ قلت : عمّن تسأل ؟ عن المرحوم ؟ الكاتب فلان مات منذ زمن ، قلتها مخلصا كل الاخلاص ، موقنا ـ بيني وبين نفسي ـ أنني أعطيت كل ما عندي ، وقد دخل في روعي أنني انتهيت ، أما كيف عدتُ إلى الكتابة سنة ١٩٦٣ فلست أدري . كالبركان ـ قلتها لك في مستهل هذا الحديث ـ أو كالحب . للكتابة عندي مواسم كمواسم البراكين والحب ، تثور وتهدأ . أنا لم أكن يوما من الأدباء المتهنين الذين يجلسون في ساعة معينة في النهار أو الليل ، إلى الطاولة ، فيأخذون ورقة وقلما ثم يحكون رؤوسهم : ماذا نكتب اليوم ؟ الكتابة عندي لا تأتي من حك الرأس .

الكلمة كالمرأة

ـ هناك وَلَهٌ ونوع من القداسة في تعاملك مع الكلمة . كتاب القصة والرواية يكتبون عادة بلا مبالاة ، دون التنبه لفنيَّة الكلمة وموسيقا الجملة كيف تنظر إلى الكلمة ؟

ـ الكلمة عندي امرأة كما قلت لك ، وأنا أعاملها كما أعامل المرأة سواء بسواء ، أحب الكلمة ، أراودها عن نفسها ، أقلبها متلمسا مواطن الجمال فيها ، أنظر إلى شكلها وكأنَّ كلَّ حرف من الأحرف

التي تتألف منها عضو له ملامح خاصة وأصغي إلى جرسها ، أتشمم ما علق بها من أنفاس الذين عركوها خلال العصور من كتّاب وشعراء ، وهي كالمرأة ، لعبة يحلو لي أن أدعها ترقص على الموسيقا المتأنية منها ومن جوقتها ، أي من الكلمات التي تتألف منها الجملة ، هذا في الشعر وفي النثر معا ولكن حذار ! حذار من الوقوع في فخ الكلمة ، من انقلاب الآية بينها وبين الشاعر أو الكاتب ، فهي أيضا كالمرأة ذات سلطان وذات إغراء ودهاء ، وكثيرا ما يطيب لها أن تجعل منه لعبتها ، تتحكم به بدل أن يتحكم بها . فإذا خضع لها واستسلم ركبته في النتيجة ، وأدت به إلى الحذلقة وهي من أخطر المزالق ، مثالُ الشاعر ـ الرجل في تعامله مع الكلمة ـ المرأة : المتنبي ، ومثاله في النثر : الجاحظ .

حصاد العمر

* إلى أي درجة بُحْتَ في اعترافاتك في « حصاد العمر » ؟ وماذا بقي في النفس ؟

ـ لو كنت أريد أن أعطي أكثر مما أعطيت في « حصاد العمر » وفي سائر كُتبي لفعلت . تريد مني الآن أن أكشف لك عن أشياء مخبوءة ؟ ما الداعي إلى ذلك وما الفائدة منه ؟ الفنّ اختيار . تجنيب لأشياء وإثبات لأشياء . تضخيم لأشياء وتقليص لأشياء أخرى . الفن ليس أخذاً للأشياء كما هي ، بل هو تسوية لها وإبرازها في شكل جميل في « حصاد العمر » وفي سواه من كتبي فتحت للقارىء أبواباً ، فعليه أن يدخل منها إلى ما شاء من مخارم حياتي . اسأله ـ على كل حال ـ الرفق وألا يظنَّ بي ما لا يظنُّه بنفسه .

زعم روسو ، قبلي وقبل الكثيرين عندما كتب « الاعترافات » ، أنه قال فيها كل شيء ، ولكني بعد أن قرأت كتابه ـ قرأته في الثامنة عشرة ، وعدت إليه في الأربعين ـ وجدت أن الفن هو الطاغي عليه ، والفن كاذب في جوهره مهما ادعى الصدق . ليس الفنان متهما مطلوبا منه أن يُقسم على الانجيل أو القرآن على قول الحقيقة ، كل الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة . ولا تنس ، ياسيدي أن الانسان يعيش في الكذب ، في كثير من الكذب ، لا في الكتابة فقط بل في حياته العادية ، الكذب ملحُ خبزنا اليومي . في الشعر ، خصوصا كثير من التكاذب بين الشاعر والكلمات ، كالتكاذب بين الرجل والمرأة في الحب :

« تقولين في الوصل ما لستُ قائلا
وأسمعُ منها ما يحيّر ذاتي
أصدّق ما تملي عليّ فهل ترى
تصدق ما أملي أنا كلماتي »

أحبك حتى يسيل الدم

* ألاحظ من قراءتي لآثارك نثرا وشعرا اهتماما بالغا بالمرأة ، المرأة أخذت حيزا كبيرا من هذه الآثار ، وفي حياتك أيضا ، كيف تعاملت مع المرأة ؟ هل نظرت إليها من حيث هي حس وجسد ، أم أن هناك أبعادا أخرى استرعت انتباهك ؟ الملذات الروحية مثلا .

ـ المرأة هي الحياة ، وأنا رجل يتهالك على الحياة . المرأة عندي أنثى قبل كل شيء آخر . الطبيعة البشرية ، بل الطبيعة كلها تقوم في كائناتها الحية على الجاذب الحسي ، والملذات الروحية ملازمة عندي للملذات الجسدية . المرأة جسد وروح لا ينفصلان . والعلاقة الصحيحة بين الرجل والمرأة ، أي الحب ، علاقة جسدية وروحية معا . أمّا إذا كنت تعني الحب الأفلاطوني والحب العذري فأنا غريب عنهما . أنا أسخر من الحب الأفلاطوني ولا أؤمن بالحب العذري إلا أن يكون قسرا . شعراء العرب العذريون كذابون .

أدخلُ هنا في بعض التفاصيل وأقدم اليك مثالين : في قصيدتي « وراء الحب » التي مطلعها : « أحبك حتى يسيل الدم » ، وقصيدتي « أسطورة الصدفة » التي مطلعها « تسكنين لياليّ عارية كالشمس » ، ما يلقي كثيرا من الضوء على نظرتي إلى المرأة وبالتالي إلى الحب . في الاولى أغني ملذات الحب الجسدية . أبني لعشتروت هيكلا عابقاً ببخور الشهوة . ولكني لا أعلي أبراجه إلا لأهدمه في النتيجة على رأسها :

« أحبـك حـتى أراك بـنـاء
يُهـدم أو وثـنـا يُـرجـم
وحـتى أعـافـك شـيئـا حـقـيـرا
فـما فـيـك حـسـن ولا مـغـنـم
ويـبـقـى لـروحـي فـم يـتـلمس
مـا لا يمَـل ولا يـتـخـم »

وفي القصيدة الأخرى أغني الملذات الروحية إذا شئت . التفاح المستحيل ، « التفاح الذي بلا خطيئة » . تفاح الأفلاطونيين والعذريين . على أني ، هنا وهناك ، لا أصف إلا جوعي الذي ليْس له شبع ، وعطشي الذي أريد له ارتواء وهو لا يرتوي . أنا أسعى إلى ضالتي المنشودة . إلى « ما يهديني إلى قرار حنيني » . إلى « ذلك الشيء » الذي يسعى اليه النحّات في « السائح والترجمان » . لا يجده في هذه المرأة ولا في تلك ، لعله واجده في أخرى . فينتقل إلى الأخرى . حتى إذا أحرجه السائح صاح به : « أما قلت لك إني أحب حتى الخيانة » .

الشعر كلمات . . كلمات

* كتبت نثرا وكتبت شعرا . وقصائد متفرقة . . فما الذي صرفك الى القصة والرواية ؟

ـ الأدباء معظمهم ـ تقريباً ـ يبدأون بالشعر ، تكاد لا تستثني منهم أحداً . كيف ملتُ نحو القصة ؟ لست أدري . ولعل شيطاني في القصة والرواية أقوى من شيطاني في الشعر ! نظمت الشعر وأنا في الرابعة عشرة ، ثم لم ألبث بعد مزاولتي القصة والرواية أن تركته إلا بعض قصائد من وقت لآخر هي التي يضمها « حصاد العمر » ، وفي الستين عدت إليه في « قوافل الزمان » وكأنني أثأر من تركي إياه ، إذ انصرفت الى النظم على مدى أربعة أشهر ، كل يوم قصيدة أو اثنتان أو ثلاثة . ولم أكتب في هذه الفترة حرفا في النثر . والقصائدُ المشارُ اليها ، وكلٌ منها ذات بيتين ، عبارة عن خواطر مبعثرة ، « أسهم نارية » ، مواقف تجاه الكون ، وعلى قارئها أن يقرأ ما بين السطور ، وأن يكون عارفا بأسرار الكلمات ، فلكل كلمة سرُّها ، كما لكل امرأة سرُّها .

« وذات سحـر عـلى سـر أعـاشـرهـا
جـنـيـة مـن بـنـات الـلـيـل رقـطـاء
بـغـى بهـا الـقـوم تـأتـيـهـم عـلى كـره
حـتى أتـتـني ولانـت فـهـي عـذراء »

الكلمة في الشعر يجب أن تعود عذراء على الرغم من مرور آلاف السنين عليها وتكرارها ملايين المرات ، وهذا هو الفرق بين المجدِّد والمقلد . الكلمة تحت قلم المقلد مومس تفوح بالنتن مهما طلاها بالمساحيق .

والشعر كلمات كما يقول فرلين ، تأليف بين كلمات . جاءه صديق ذات يوم وقال له : أريد أن أنظم قصيدة ولكني أبحث عن موضوع . فأجابه فرلين : ومن قال لك إن الشعر موضوع ؟ الشعر كلمات ـ كلمات ـ وبالكلمات ينتقل الشاعر الى دنيا غير الدنيا التي يعيشها كل يوم . الى العلاقة الحميمة بينه وبين نفسه ، بينه وبين الكون ، بينه وبين الله ، بينه وبين الحياة والموت .

أنا لست من أنصار الشعر الموجه الى الجمهور ، الشعر أرستقراطي ، وهو من النخبة الى النخبة ، قد تعثر في القصيدة الموجهة الى الجمهور على بيت أو بيتين من الشعر ، أما ما سوى ذلك فنثر أكثر منه شعراً . حتى القصائد غير الموجهة الى الجمهور لا يمكن أن يكون كل بيت فيها شعراً ، ففي بعض أبياتها نثر . لماذا ؟ هذا عائد الى الطبيعة البشرية . لا تستطيع الطبيعة البشرية أن تركز التركيز التام على شيء، والشاعر لا يستطيع أن يحتفظ بالجو الشعري على مدى عشرين أو ثلاثين أو خمسين بيتا من قصيدة . □

ـ إن السعادة في الحكمة ، ولا سعيد في الدنيا الا العاقل الحكيم . (أرسطو)

أمراض نسائية غامضة :

آلام الحوض عند المرأة

بقلم : الدكتور علي مبارك

هناك كثير من الحالات المرضية الطارئة التي تحدث عند المرأة ، والتي يحار في تشخيصها ، وطريقة علاجها كل من الطبيب الجراح والطبيب الباطني ، واختصاصي الأمراض النسائية . فكل ينظر للحالة من خلال تخصصه ، والأمثلة كثيرة ، منها « آلام الحوض عند المرأة » التي تعتبر من الأمراض النسائية الغامضة . فما هي أسبابها وما علاجها ؟

إن الأمراض النسائية الغامضة تُكوّن الغالبية العظمى من أسباب تردد السيدات على عيادات الأمراض النسائية ، كما جاء في تقرير للطبيب البريطاني (ن . موريس) المنشور في أحد أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٥٨ . وقبل ذلك كان الدكتور (هـ . تيلور) قد صرح (في عام ١٩٥٧) بعدم الاطمئنان من جانبه لكل الاجراءات العلاجية لمثل هذه الحالات ، وأكد أن التسرع الذي يقود بعض الجراحين لعلاج هذه الحالات بالجراحة إنما هو خطأ كبير يرتكبه هؤلاء . وقد تأكد قوله هذا بعد ذلك بسنوات عندما دخل التنظير البطني حيز الممارسة الطبية،وشاع استعماله في مثل هذه الحالات فأدى إلى تقليص الأعداد الكبيرة التي كانت تعالج بالجراحة . ففي إحصائية الدكتور (ب . جيلبرانت) في بريطانيا أوضح أن ٣٧٪ فقط من هذه الحالات قد ثبت أن أسبابها في الحوض ، أما الحالات الباقية فلم يعثر لها على سبب للآلام في الحوض . وأيد ذلك الطبيبان (مورفي) و (ج . فليونجر) من استراليا ، وإن كانت تعزى إلى بعض عوامل نفسية في ٨٤٪ من الحالات كما جاء في دراسة أخرى للباحثين (دوللي ، وجوميري) نشرت في عدد آخر من أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٧٧ . ولقد أثارت هذه الدراسات اهتمام الأطراف الأخرى .

العوامل النفسية لا تكفي

إلا أن السؤال عن سبب الألم بقي دون جواب ، إذ لم يعثر أي من الباحثين عن هذه العوامل النفسية التي تشبه في كثير من الحالات الآلام الناتجة عن أعراض عضوية طارئة حادة . وراح بعض الأطباء مثل (هـ . تايلور ، س . دانكون) يفسرون هذه الظاهرة بأنها ناتجة عن احتقان حاد في الأوعية الدموية بأنسجة الحوض،لكن هذا التفسير لم يتفق مع آراء

الباحثين الآخرين لعدم توفر الأدلة العلمية على وجود تلك العوامل النفسية ، على الرغم من أن المؤتمر الرابع والعشرين لأمراض النساء والولادة المنعقد في بريطانيا قد أكد هذه الظاهرة .

وقد شملت هذه الأسباب النفسية أيضا ٨٩٪ من حالات الأطفال الذين يحولون إلى المستشفى بأعراض آلام أسفل البطن (كما جاء في دراسة للدكتور (دودج) نشرت في أحد أعداد المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٧٧) ، ويبدو من التحليل النفسي لهؤلاء المريضات أن شكاواهن هذه ما هي إلا لجلب انتباه الآخرين وكسب عطفهم لإمرار بعض الرغبات . وهذه الظاهرة تنتشر بين النساء أكثر من الرجال بنسبة (٢ : ١) ، وغالبية النساء في هذه الدراسات يتصفن بالانطواء والعصبية وعدم القدرة على تكوين صداقات اجتماعية أو التمكن من حل المشاكل الجنسية المختلفة . وهذا النوع من النساء يتأثر بسهولة من التوترات النفسية التي تنعكس بشكوى آلام الحوض ، مما يضطر الطبيب الجراح لإجراء عملية جراحية استكشافية بفتح البطن ويخرج منها بإزالة الزائدة الدودية غير الملتهبة في كثير من الأحيان .

والسؤال المطروح لدى غالبية الأوساط الطبية هو : لماذا لم ينجح معظم العلاج لآلام الحوض لدى النساء ؟ . وقد يكون الجواب أنه في الحالات التي لا يجد الطبيب سببا عضويا لشكوى المريضة ، ويعوزه التفسير المقنع لاستفسار المريضة عن أي سبب عضوي لآلامها ، يلجأ في آخر المطاف للأسباب النفسية مبررا فشله في علاج ناجح . ولهذا لجأ الكثير من الأطباء للعلاج بالتحليل النفسي ، والتركيز على استنباط الأسباب النفسية ، وتحليلها ، وتفنيدها مع المريضة . ففي دراسة عشوائية قام بها مجموعة من أطباء مستشفى (سانت ماري) بلندن عام ١٩٨١ على مجموعة من السيدات وجد أن هذا النوع من العلاج قد قلل إلى حد كبير من نوبات آلام الحوض التي يشكين منها . وقد أثبتت هذه الدراسات أن العلاج الجراحي غير مقنع في مثل هذه الحالات ، ما لم يثبت أن سبب الآلام في الحوض مرض عضوي يحتاج إلى عملية جراحية لاستئصاله . ثم قدمت نفس المجموعة دراسة أخرى نشرت في عدد آخر من المجلة الطبية البريطانية عام ١٩٨٦ تذكّر الأطباء الذين تصادفهم حالات آلام الحوض أن يضعوا في اعتبارهم حالات معينة قسموها إلى سبع مجموعات .

الأولى تتعلق بالحالات التي لها علاقة بمشاكل الحمل كالاجهاض ، والحمل خارج الرحم ، ووجود بعض أورام ليفية ، وآلام غامضة في الرحم نفسه .

والثانية تتعلق بمضاعفات الدورة الشهرية كعسر الطمث ، وبعض الآلام المتعلقة بوقت حصول التبويض .

والثالثة تتعلق بالالتهابات المزمنة في الحوض .

والرابعة بأعراض المسالك البولية كالتهاب المثانة ، وحصاة المسالك البولية .

والخامسة بأعراض الأمعاء الغليظة من تقرحات ، إلى نتوءات ، أو أورام سرطانية .

والسادسة بالأعراض المتعلقة بالأجهزة التناسلية كالتواء بعض الألياف والأكياس وسقوط الرحم وجدران المهبل وأمثالها .

أما القسم الأخير فهو المتعلق بأعراض الجهاز الهيكلي كانزلاق الغضروف أو إحدى الفقرات .

الأسباب المحتملة

بعد هذا العرض المفصل لآراء مختلف الأطباء في آلام الحوض استعرض الأسباب المحتملة في كل الحالات . وقبلها أود أن ألقي نظرة تشريحية على حوض المرأة ومحتوياته .

فالحوض هيكل عظمي مكون من التحام عدة عظمات متناظرة الشكل تكون غلافا عظميا يحيط بفراغ تملؤه الأجهزة التناسلية الداخلية وبعض المسالك البولية والهضمية .

فالرحم عضو عضلي مكانه وسط الحوض ، مائل إلى الأمام حيث يتصل به البوقان (قناتا فالوب) من الجانبين فيؤديان إلى المبيضين المتواجدين في جانبي الرحم . وأمام الرحم المثانة البولية ، وخلفه إلى

الشمال قليلا يوجد المستقيم ، وتشغل الفراغات فيه بعض لفائف الأمعاء الدقيقة والقولون .

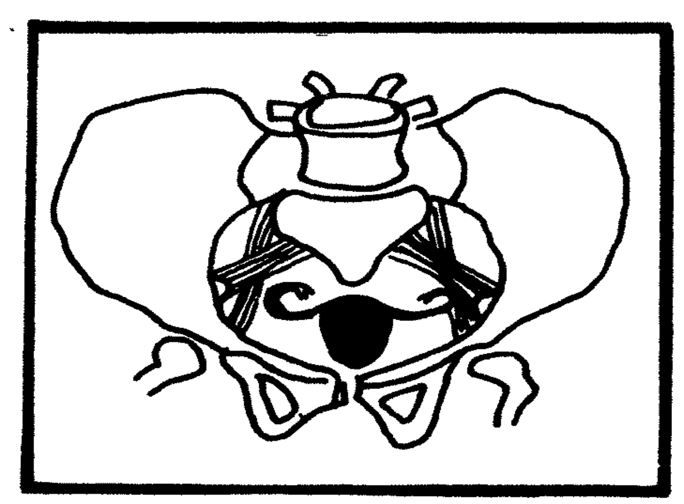
ومن هذه الصورة التشريحية يتبين لنا أن التقسيمات السبعة المذكورة أعلاه قد شملت كل هذه الأعضاء وأنسجتها . ومن هذه الأعضاء والأجهزة ينتقل الألم بواسطة مجموعة من الأوتار العصبية المتشابكة إما إلى النخاع الشوكي أو يتجاوزه إلى المراكز العصبية العليا . وقد تتمثل هذه المجموعات العصبية في مساحات معينة من الجسم أو الجلد بحيث يظهر فيها بعض الاحساس بالألم التابع من أحد الأعضاء الداخلية . ويستطيع الطبيب أن يعرف موطن الألم عندما تشير السيدة إلى مكان الاحساس به خارجيا ، فمثلا عندما تضع السيدة راحة يدها على البطن أسفل السرة في الوسط قد يدرك الطبيب أن مصدر الألم هو الرحم ، أما إذا كانت الاشارة الى جانبي أسفل البطن فقد يكون مصدر الألم البوقان والمبيضان وهكذا .

والألم بكل أنواعه إحساس غير مريح ، وفي كثير من الأحيان يصعب على المريضة وصفه بدقة ، ومع ذلك بالامكان تقسيم آلام الحوض عند السيدات إلى قسمين :

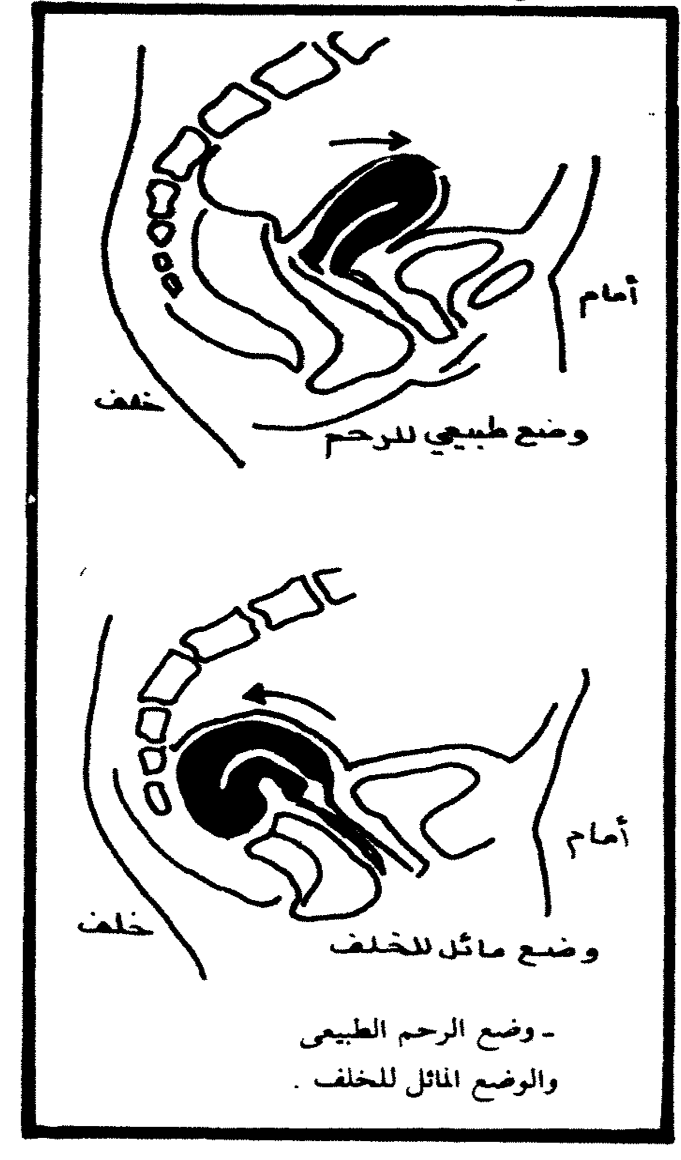
آلام الحوض الحادة :

هذه أكثر وضوحا في صورتها وفي تشخيصها ، وغالبا ما تكون حالات طارئة ، تحتاج إلى انتباه وتركيز من الطبيب المعالج الذي يجب عليه أن يستعرض جميع ما ذكر من حالات الأقسام السبعة المذكورة أعلاه ، بغرض التشخيص التفريقي ، حتى يتمكن من إيجاد السبب الأساسي لهذه الآلام الحادة .

ويجب أن يضع في اعتباره أن من الحالات الحادة ما يحمل خطورة عالية تهدد حياة المريضة ، فيحتاج إلى قرار سريع وإجراء جراحي عاجل . والحالات الحادة عند النساء لا تقتصر أسبابها على إصابات الأجهزة التناسلية فقط ، وإنما تتعداها إلى الأعضاء ، والأحشاء ، والأنسجة الموجودة ضمن الحوض كما ذكرنا . وباستعراض بسيط لمختلف مسببات هذه الآلام الحادة ندرك مقدار الصعوبة التي يواجهها



ـ الهيكل العظمى للحوض ومكان الرحم والانابيب فيه وكذلك بعض الاربطة الليفية .



ـ وضع الرحم الطبيعي والوضع المائل للخلف .

الطبيب الفاحص للوصول إلى التشخيص الصحيح . وبعودة أخرى لاستعراض المجموعات السبعة نركز على الحالات ذات الخطورة العالية ، مثل احتمالات الحمل خارج الرحم الذي يعّرض المريضة لخطر الوفاة بسبب غزارة النزيف الدموي الداخلي ، ما لم يعجل الطبيب المعالج بإجراء عملية جراحية طارئة لاستئصال السبب ، وتعويض كمية الدم المفقودة . وبدرجة أقل من الخطورة تعامل حالات الاجهاض ، وحالات التواء أكياس المبايض ، والأورام الليفية .

وتتدرج الحالات الحادة إلى الأقل خطورة مثل الالتهابات المتعفنة ، وانفجار بعض أنواع التكيسات الدموية ، أو تجمعات قيحية في الأعضاء أو حتى تسرب بعض سوائل الطمث من التجويف الرحمي إلى فسحة الحوض البوقيني . وبالمقارنة هناك حالات مشابهة في خطورتها ليست لها علاقة بالأعضاء التناسلية ، كالتهاب الزائدة الدودية ، وانسداد الأمعاء والتوائها أو انفجار وعاء دموي في الغشاء الصفاقي . كما أن حصاة الحالب المتحركة ، وبعض التهابات المسالك البولية أيضا تسبب آلاما حادة ، ولكنها لا تشكل خطورة على المريضة .

إن معظم الحالات الحادة تنتهي فورا إلى تدخل جراحي عاجل لفتح التجويف البطني ، والتأكد من التشخيص ، وإجراء ما يلزم ، وفي حالة غموض التشخيص تفتح البطن للاستكشاف ، ثم يعمل اللازم بعد العثور على السبب المباشر ، ويحدث كثيرا أن يفتح الطبيب الجراح البطن لتشخيص معين كالحمل خارج الرحم ، ثم يفاجأ بوجود حالة أخرى كالتهاب الزائدة الدودية ، أو انفجار وعاء دموي ، أو غيرها . وحديثا يستعمل في كل المراكز الطبية المنظار البطني لتنظير تجويف الحوض ، والتأكد من التشخيص قبل اللجوء الى فتح البطن .

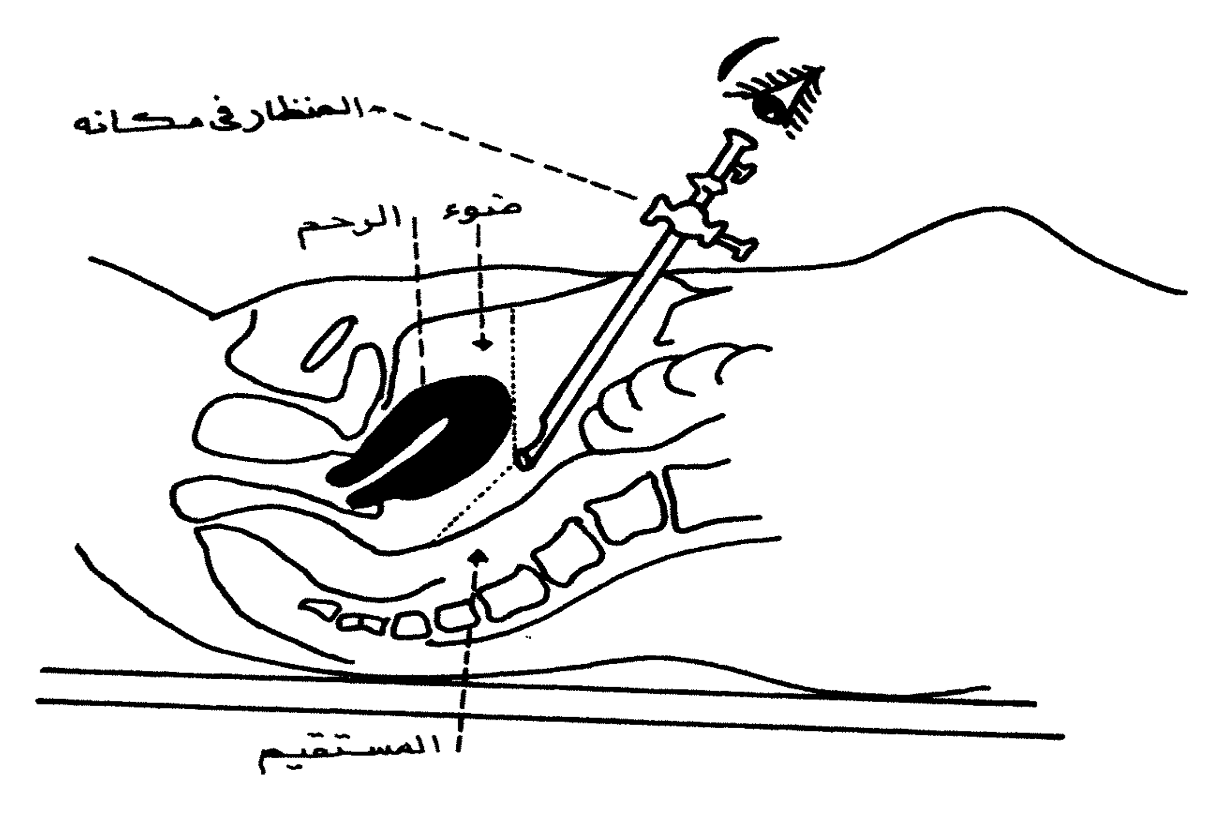
آلام الحوض المزمنة :

إذا كانت الأعراض الحادة كما شرحت سهلة التشخيص ، ومن ثم العلاج الفوري الفاعل ، فإن المشكلة غير ذلك في الحالات المزمنة ، فهذه الحالات تشكل الجزء الغامض والصعب من كل جوانبه : مسبباته ، ووصفه ، وتشخيصه ، وعلاجه ، مما يخلق إشكالات جمة للطبيب المعالج ، فكثيرا ما يجد نفسه أمام لا شيء عدا شكوى المريضة ، ويحار في إيجاد الجواب المقنع لتساؤلاتها وشكواها . وهذه الآلام أكثر شيوعا عند النساء من الرجال الذين يندر أن تحدث عندهم هذه الحالات .

ولتحديد أسبابها يمكننا ـ للتبسيط ـ تقسيم هذه الآلام حسب ترددها ، وزمن حدوثها ، إذا اعتبرنا مواعيد الدورة الشهرية مؤشرات زمنية ثابتة عند المرأة ، فمنها ما يكون متقطعا بتردد ثابت ، وعلى سبيل المثال الآلام التي تحدث في منتصف الدورة الشهرية مع انطلاقة البويضة من المبيض ، وقد يسهل على الطبيب تشخيصها من مجرد وصف المريضة لها ، وزمن حدوثها . وسببها هو تسرب كميات من الدم ، والسوائل الأخرى المحيطة بالبويضة إلى الحوض مما يهيج الأنسجة فيه .

ونوع آخر من الآلام يصاحب نزول الحيض في اليوم الأول ، ويسمى « عسر الطمث » ، ويتميز بآلام انقباضية شديدة تشمل أسفل البطن ، وتمتد إلى أسفل الظهر ، ومرة أخرى يسهل على الطبيب تشخيصها من الوصف زمن حدوثها ، إلا أن نوعا آخر منها يبدأ قبل نزول الحيض بأيام ، وتختلف طبيعته عن الأول ، فهو يسبب آلاما ثقيلة غير محددة الموقع تشعر بها المريضة في الحوض كله .

هذه الحالات من الآلام المزمنة في الحوض قد تمثل النوع المتميز والسهل ، أما القسم الآخر فهو الذي يحدث بتوقيت غير منتظم ، وليست للآلام علاقة متزامنة مع الدورة الشهرية ، فمثلا السيدة المصابة بالتهاب الحوض المزمن لا تستطيع إعطاء صورة واضحة عن نوعية الآلام ، كما أنها لا تستطيع تحديد مكانها ، كما في حالات الآلام الحادة ، سوى أنها تذكر شعورا بآلام ثقيلة في منطقة العجان (المهبل) عند الملامسة الجنسية ، وهذه الآلام قد تكون نتيجة وجود أورام معينة في الحوض أو تكيسات قيحية ، وربما يكون الرحم مائلا إلى الخلف بخلاف وضعه الطبيعي المائل إلى الأمام .



ـ طريقة التنظير البطني .

التصاق الأعضاء ووضع الرحم

ربما يواجه الطبيب ظاهرة التصاق الأعضاء بعضها ببعض نتيجة التهابات حادة سابقة في الحوض ، مما يصعب معها التصرف . إن من أبغض المضاعفات لدى الجراح هي تكوّن هذه الالتصاقات ، وبخاصة بين الأمعاء الدقيقة والأعضاء التناسلية ، مثل المبيضين ، والرحم ، والبوقين . ويجب التروي في اعتبار هذه الالتصاقات سببا أساسيا للآلام ، لأنها قد لا تكون كذلك ، ولن ينفع قطع هذه الالتصاقات طالما أصبح السبب مزمنا في الأنسجة . أما إذا وجد أن الرحم مائل إلى أي جهة من الجهات ـ غير الأمامية ـ فيلجأ إلى إجراء جراحي لاصلاح وضعه ، وإعادته لطبيعته . وهذه الحالة تسبب في أكثر الأحيان آلاما في أسفل المنطقة القطنية من الظهر ، وتشكو السيدة أيضا من آلام عميقة أثناء الملامسة الجنسية . كما أن الطبيب الحاذق قد يستنبط من خلال الكشف المهبلي اليدوي ـ بتحريك الرحم إلى الجانبين ـ أن شعور السيدة بالألم قد يكون سببه تمزقات سابقة بأربطة الرحم ـ وهي أنسجة ليفية وترية قوية ـ من جراء صعوبة في حالات ولادة سابقة . ولا يمكن التأكد من هذه الظاهرة بمجرد الكشف المهبلي ، إذ قد يتطلب متابعة باستعمال التنظير البطني لاستكشاف الحوض وبخاصة هذه الأربطة ، ومع ذلك فلا يوجد علاج فاعل لمثل هذه الحالات سوى المسكنات . ولا يعتقد كثير من الأطباء بأن العلاج بالموجات الحرارية ناجح كذلك . وعلى ذكر مضاعفات حالات الولادة الصعبة والعسرة نذكر منها الكثير ، فتعدد حالات الولادة أكثر من أربع مرات دون أن تترك السيدة فترات معقولة بين الحمل والآخر ، قد يؤدي إلى ارتخاء الرحم وسقوطه .

وهناك حالات أخرى تجري فيها عملية استئصال الرحم . لشكوى مزمنة في الحوض . فإن الشكوى

والآلام غير المتميزة ستبقى مصدر ازعاج للمريضة ، وبعض الأحيان يتضخم المبيضان المتروكان دون استئصال في مثل هذه العملية ، مما يسبب آلاما شديدة في الحوض قد تحتاج إلى عملية فتح بطن ثانية لاستئصال المبيضين .

وقبل أن ننتهي من هذا الجانب من أسباب آلام الحوض لا بد من الاشارة إلى بعض السيدات اللواتي يضعن لولب منع الحمل ، فبعضهن يتعرضن إلى نوبات من آلام الحوض في أوقات مختلفة ، بسبب تقلصات عضلات الرحم الرافض لوجود جسم غريب بداخله ، وقد تكون هناك أسباب غير مباشرة قبلها - كالتي سبق ذكرها - ولا تهدأ هذه الآلام إلا بإخراج هذا اللولب من جوف الرحم لتبحث السيدة عن وسيلة أخرى لمنع الحمل .

إلى هنا تكون الأسباب المؤدية إلى الآلام المزمنة في الحوض متعلقة بأعضاء الجهاز التناسلي ، ولكن هناك حالات تكون أسباب الآلام فيها غير متعلقة بها ، فهي ليست حالات نسائية ، إلا أن مكان الشعور بها يعطي هذا الانطباع ، وقد تراجع المريضة عيادة الجراحة العامة أو الطبيب الباطني أو طبيب الأمراض النسائية ، وقد يتداخل العلاج بين هذه التخصصات . إذن ما حالات آلام الحوض غير المتعلقة بالأعضاء التناسلية وما أسبابها ؟

أسباب أخرى

أوضحت في البداية تشريح الأعضاء الموجودة في فراغ الحوض ، ومنها الأمعاء الدقيقة ، والمستقيم والقولون ، هذا بالاضافة إلى أن هيكل الحوض يتعرض إلى ضغط كبير من الجسم كنقطة ارتكاز ومفاصل . وهذا الوضع قد يكون مصدرا لآلام مقلقة في الحوض ، وقد تختلط آلام الحوض المزمنة هذه بآلام أسفل الظهر التي تشكل عبئا آخر ، سواء على المريضة نفسها أو على الطبيب المعالج ، وقد يصعب أحيانا التفريق بين هاتين الحالتين . ولهذا نعود مرة أخرى لاستعراض بعض الأسباب ، كالاحتقان الحاصل في أنسجة الحوض الرخوة ، أو حدوث نوع من الدوالي فيها ، على الرغم من أن الدلائل على حدوثها غير أكيدة . إن تعليل هذه الحالات بالأسباب النفسية قطعا أشبه ما يكون « بشماعة » يعلق عليها بعض الأطباء عجزهم عن إيجاد سبب عضوي مباشر لآلام الحوض هذه . ففي دراسة أجريت عام ١٩٧٠ ونشرت في المجلة الدولية للطب النفسي ، على مجموعة من السيدات اللواتي يشتكين من آلام مزمنة في الحوض ، وجد أن الاضطرابات والصدمات العاطفية لمدة طويلة ، والمصحوبة بنوع من فقدان العلاقات الاجتماعية ، أدت إلى حدوث حالات من الاكتئاب العميق ، والقلق النفسي ، وبعض نوبات من الهستيريا ، بالاضافة إلى التردد المستمر على عيادات الأمراض النسائية للشكوى من آلام الحوض المزمنة . وقد تركز علاجهن على جلسات متكررة للتحليل النفسي ، ومن ثم الانتهاء إلى العلاج النفسي ، مما يخفض إلى حد كبير من شكاواهن من آلام الحوض .

ويختلف الحال في علاج الحالات المتسببة عن أمراض عضوية ، فعدا عن العملية الجراحية للاستئصال التي يجب أن تجري بعد التأكد التام من التشخيص ، هناك طرق أخرى تستعمل فيها العقاقير المسكنة والمهدئة ، بل حتى المنومة أحيانا . تذهب بعض المراكز إلى استعمال علاج الوخز بالابر الصينية لاعتقادهم في فاعليتها لشفاء كثير من الأمراض ، منها آلام الحوض المزمنة ، اعتمادا على ما يذكر من أنها تؤدي إلى افرازات مختلفة من المواد الكيماوية والهرمونية في الجسم ، تساهم في تسكين هذه الآلام ، لكن بعض المراكز الأخرى لا تعتقد بذلك مطلقا بل تعد هذا النوع من العلاج ذا تأثير نفسي فقط .

هكذا نأتي إلى خلاصة القول بأن الآلام المزمنة في الحوض عند السيدات ، قد تعد من الأمراض الغامضة التي قد لا يهتدي الطبيب إلى سبب مباشر لها ، فيحار في اختيار طريقة العلاج المؤثرة ، فيلجأ إلى طرق مختلفة تنحصر بين الجراحة وبين أساليب التنويم المغناطيسي ، وقد لا يجد الطريقة الفاعلة أبدا وتبقى السيدة « زبونة » مزمنة لعيادات الأمراض النسائية . □





قضية

فكر السادة وثقافة التابعين

بقلم : الدكتور مصطفى النشار

لم يزل الخلاف دائرا حول « إلى أي مدى نأخذ عن الغرب ، وبأي قدر نتمسك بالثقافة العربية » وبين الاتهام بالتغريب أو المواجهة بعدم قدرة الثقافة العربية على مسايرة التطور العصري الذي نعيشه .

حول هذه القضية وجذورها وأبعادها يثور الخلاف والنقاش ، ويناقش الكاتب هذه الأفكار .

لقد قر في أذهاننا منذ مطلع العصر الحديث أننا لكي نلحق بركب الحضارة لابد أن نساير الغرب ، سواء مسايرة تامة أو نحاول التوفيق بين ما ننقله عنه من مناهج وفلسفات وبين عناصر تراثنا الفكري الإسلامى الأصيل . ولست أشك في مدى إخلاص دعاة ذلك ، فهم حاملوا مشاعلنا ومن أناروا أمامنا طريق التقدم في وقت كانت فيه حلقة الإظلام والتعتيم علينا محكمة ، ومازلنا إلى اليوم نؤمن بأهمية أن نتبعهم وأن نبدد ماتبقى أمام أعيننا من غشاوة وقتامة حتى نرى أنفسنا بصورة أفضل ، ومن ثم نرى الغرب في صورته الحقيقية

وكل ما سأحاوله هنا هو أن أستكشف أعماقا أبعد لعلاقتنا بالغرب وعلاقة الغرب بنا .

فمنذ أن ظهرت على وجه الأرض أمة اليونان واستطاعت بذكاء شديد أن تبلور فكرها الخاص من خلال ماجمعته من فكر حضارات الأمم السابقة لها والتي كانت آنذاك في طور تفسخها وانهيارها ، منذ ذلك التاريخ قدم اليونانيون أنفسهم للعالم على أنهم هم المبدعون للفلسفة والعلم والآداب والفنون ، فمنهم كان هوميروس وهزيود من الشعراء ، ومنهم كان طاليس وفيثاغورس وبارمينيدس وبروتاجوراس وديمقريطس وسقراط وافلاطون من الفلاسفة ، ومنهم كان ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيدس من كتاب المسرح . . الخ . ومن ثم فقد تصوروا ، بل وعاشوا مقتنعين بأنهم هم سادة العالم وأحراره ، وأن مَنْ عداهم من شعوب وأمم وقبائل ليسوا إلا

برابرة وعبيداً ، فهم ـ أي اليونانيون ـ وحدهم من يصلحون للتأمل والفكر والقيادة السياسية والعسكرية ، ومن عداهم من أمم الشرق لايصلحون إلا للرق والعبودية . وقد تناسوا آنذاك أن منهم من كان أجيراً ومرتزقا عند ملوك مصر القديمة ، ولم يكن ذلك بالتاريخ البعيد ، فقد كان آخر عهدهم بذلك في عصر الدولة الحديثة وعصر ابسماتيك الاول مؤسس الأسرة الصاوية في عام ٦٦٤ قبل الميلاد .

ولقد كان لفيلسوفهم وعالمهم أرسطو فضل ترسيخ تلك الصورة على أنها إعجاز يوناني غير مسبوق في ميادين الحضارةكافة . وقدم منطقه على أنه كما بدا له أحيانا ولتلاميذه وشراحه دائما هو المنطق العام لضبط الفكر الإنساني .

كما قدم فلسفته على أنها الفلسفة التي يجب أن يعتنقها كل البشر ، وقدم علمه على أنه العلم الذي يجب أن يتفهمه ويبرهن عليه ويستكمله ويسير على نهجه كل العلماء .

العقل والسيف

وإن كانت تلك المعجزة الفكرية قد اكتملت لدى ارسطو نظريا ، فإن تلميذه الاسكندر الأكبر قد فرضها واقعا ملموسا بانتصاراته العسكرية التي جعلت امبراطوريته تمتد من شواطيء البحر الأبيض المتوسط حتى تخوم الصين والهند . وعلى الرغم مما يقال من حلو الكلام عن عظمة الاسكندر بأن خلقه كان الدعوة إلى الاخاء والمساواة بين بني البشر ، وأن دينه كان التوحيد ، وأن هدفه كان صهر الحضارتين الشرقية والغربية وتكوين دولة عالمية واحدة ، على الرغم من كل ذلك فقد كان الاسكندر يحمل نفس عنصرية اليوناني الفكرية التي فاقت أحيانا عنصرية أستاذه ، فقد كان يفضل ذلك التفوق الفكرى للأمة اليونانية والحفاظ على كل ما حققه من مجد سياسي وعسكري ، فهذا هو الاسكندر يكتب رسالة لأرسطو ـ نشرها بلوتارخ في الجزء الثاني من كتابه « السير » ـ يقول له فيها : « إنك لم تحسن صنعا بنشرك كتبك في نظريات الخطابة ، إذ ما الذي بقي لنا مما نمتاز به على الآخرين إذا أتيحت تلك الأشياء التي تخصصنا في معرفتها للجميع ؟ إني أؤكد لك أنني أوثر أن أمتاز على الآخرين بمعرفة ماهو ممتاز بكل اتساع في قوتي وامتداد لسلطاني » .

ولعلنا قد أدركنا من هذه الكلمات المباشرة للاسكندر أنه لم يكن يستهدف ـ كما هو شائع ـ نشر الفكر اليوناني في الشرق بقدر ما استهدف التعرف على هؤلاء « البرابرة » وضمهم إلى دولته ، وليقضي على ما بقي في حوزتهم من تميز فكري ، ولا ضير في أن يتشكل أحيانا تشكلا « تكتيكيا » بعاداتهم وتقاليدهم ، فيرتدي ملابسهم أحيانا ، ويتقرب إلى آلهتهم أحيانا أخرى ، ولاضير في أن يتزوج منهم ، ويوصي قواده بالزواج منهم أيضا . لقد كان كل ذلك وسيلة لغاية أبعد ، هي تأكيد سيادة الجنس اليوناني الغربي فكرا وعقيدة .

ولشد ما أعجب بعرب الجزيرة العربية العظماء الذين أنار الدين الجديد عقولهم وحرر أخلاقهم وجدد هممهم ، فحملوا لواء حضارة فتية جديدة ، أساسها الإيمان الحق بإله واحد ، وبالأخوة والمساواة العالمية (فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى) ، ولم يكن ذلك مجرد إيمان نظري بشريعة إلهية ، بل عاشوها حياة حقيقية وسلوكا لا يعرف التشكيل الكاذب ولا النفاق ولا الخبث . وسرعان ما سادوا العالم قولا وعملا بقوة الإيمان قبل قوة السلاح ، واشتقوا لأنفسهم طريقا حضاريا جديدا ، وأصبح العصر عصرهم ، فالفكر فكرهم ، والعلم التجريبي علمهم ، والمجتمع السياسي الحق أساس دولتهم الكبرى ، وأخلاق القرآن حياتهم .

وسرعان ما أقبلوا على فكر هؤلاء الإغريق فنقلوه ثم شرحوه وفهموه فهضموه وبعد الشراح ظهر المبدعون ، ففي الفلسفة ظهر الغزالي بعد الفارابي وابن سينا ، وظهر ابن خلدون بعد ابن رشد ، وفي العلم ظهر جابر بن حيان والحسن بن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وغيرهم . ووجد رجال الفقه والقانون الذين نقلت أوربا تشريعاتهم وقوانينهم . . ووجد رجال السياسة الأفذاذ كعمر بن الخطاب

ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما ، ووجد العسكريون العباقرة كخالد بن الوليد وطارق بن زياد . . الخ . وكذلك كان الشأن في مختلف العلوم والفنون والآداب .

عصر الإزدهار الإسلامي

وإن كان الحال في العصر الوسيط قد تغير من جانبنا وصار المسلمون بحق هم سادة العصر ومعلميه دون تعال ودون عنصرية ، فإن الغربيين ظلوا على عنصريتهم وعنجهيتهم القديمة ، فقد نقلوا عن الإسلاميين مانقلوا ، وأنكروا ، وأخذوا منهم ما أخذوا ولم يظهروا لذلك أثرا ، فإن أردت أن تبحث عن اسم أحد التجريبيين العرب في مؤلفات فرنسيس بيكون فلن تجد ، وإن حاولت أن تبحث عن اسم أبي العلاء المعري في كوميديا دانتي الإلهية فلن تجده ، وإن تصورت أنك يمكن أن تجد اعترافا بالتأثير من جانب أي قانوني أو سياسي غربي ، أو لدى أي عالم فيلسوف فأنت واهم !!! فهم لايعترفون لأحد بأي فضل ، ولايذكرون غيرهم إلا حينما يكون وسيطا كابن سينا وابن رشد ينقلون من خلاله فكر أسلافهم .

لقد تصوروا أنهم صانعوا عصر النهضة الأوربية الغربية بإبداعاتهم هم فقط وببعض ما أحيوه من أفكار أسلافهم من اليونانيين ، وأنهم لم يستفيدوا شيئا من المسلمين أو من الشرق ، اللهم إلا بعض شروح لارسطو أو لجالينوس ، وإضافات طفيفة لابن حيان وابن الهيثم ، وقد ظلوا في نظر أنفسهم هم سادة الفكر وقادة العالم إلى التنوير والانتقال من عصر الظلام ـ العصر الوسيط كما ينظرون إليه ـ إلى عصر العلم التجريبي والفلسفة العقلانية الحديثة . وليست الحضارة الغربية بكل مظاهرها إلا سليلة للحضارة الغربية القديمة (الحضارة اليونانية) .

وشيئا فشيئا ، وكما فعل أجدادهم ، طمسوا الحقيقة الناصعة ، حقيقة العصر الإسلامي الوسيط المبدع الرائد ، وجعلوها باهتة قاتمة . ومرة أخرى صوروا لأنفسهم وللعالم أنهم صانعو مجد الإنسان الحديث وحدهم ، وأنهم يملكون من بين بني البشر قدر البشرية كلها ، فلابد أن ينصاع العالم لهم وأن تسلمهم البشرية قيادها . إنهم ما يزالون السادة وماعداهم من التابعين ، إنهم يملكون وحدهم الفكر والابداع ، وغيرهم يستورد ما يصدرونه له من نفايات المدنية وتافه الثقافة وأحط الأخلاق حتى يتشكل الجميع بنموذج غربي زائف .

وقد تحقق لهم ما أرادوا إلى حد كبير ، فلم يعد الشرقي شرقيا بأصالته ، ولا العربي عربيا بعروبته ، ولا المسلم إسلاميا في إسلامه ، لأن كلا فقد الارتباط بجذوره ، وأصبح كريشة عالقة بالهواء تدفع بها رياح التغريب إلى أي اتجاه تشاء . فالجميع قد رضي لنفسه الاتباع بدلا من الابداع ، حينما رضي لنفسه الثقافة بدلا من الفكر ، والمدنية بدلا من الحضارة .

وبدأ عصر التبعية

وقد برع الغربيون بمؤسساتهم ومستشرقيهم في غزونا ثقافيا بعد أن غزونا عسكريا واقتصاديا ، وبعدما تيقنوا أن ذلك الغزو الثقافي هو أشد أنواع الغزو فتكا وأطولها أمدا . نجحوا في غزونا بكل وسائل دعايتهم ، واعتمدوا في ذلك ليس على فكرتهم عنا فحسب ـ وهي فكرة أساسها أنهم المبدعون ونحن التابعون ـ بل على فكرتنا نحن عن أنفسنا ، وهي لم تعد مختلفة عن الأولى ، لأنه قد قرّ في أذهاننا ـ كما قلت في البداية ـ أنه لامفر من أن نتبع الغرب إن أردنا أن نتقدم .

وعلى ذلك فقد أصبحنا نقبل منهم كل شيء دون رؤية وتدبر ، فإن ظهر هناك أديب من الدرجة العاشرة وأعطوه جائزة نوبل لأسباب سياسية أو ما شابه ذلك نقلنا كل أعماله وقلدناه ، وإن ظهر هناك مذهب فلسفي جديد سارعنا إلى ترجمته وأصبح « موضة » نتمثلها ونقيم أنفسنا بمقدار ما نقلنا عنه أو بمقدار ما استطعنا تمثله منه ، أو بمقدار استطاعتنا التشدق بمصطلحاته الافرنجية .

ولا يظنن أحد أنني من دعاة الانعزال ، ورفض كل ماهو غربي ، فهذا أبعد ما يكون عن قصدي الآن ، بل كل ما في الأمر أنني أردت أن أدلل على أننا لانقيم أنفسنا إلا بما نتمثله من الغرب وبمعايير

الغرب . وفي هذا يكمن الداء ، داء التبعية .

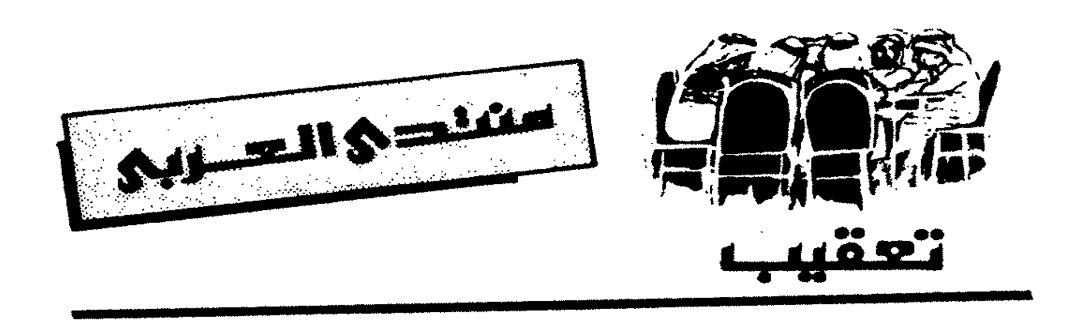
وهو داء لو تعلمون خطير ، ونتائجه أكثر خطورة ، فنحن لم نعد ننظر لأنفسنا على أننا أهل للإبداع ، بل أصبحنا ننظر لأنفسنا على أننا عاجزون عن مجاراة الغربيين في كل شيء ، فما بالك بالخروج عليهم .

إن المفكر المبدع إن ظهر في مجتمعنا حاربناه ، ولم نعطه فرصة النمو والإبداع في حرية واستقلال عن النموذج الغربي ، بل واتهمناه بالتخلف والنكوص .

وإن ظهر لدينا عالم فذ اتهمناه بأنه ربما سرق من الغرب ، وضيقنا عليه الخناق حتى يهجرنا إلى حيث يجد كل الرعاية في الغرب ، فيصبح إنتاجه ملكا لهم ، ويصدر باسمهم ، وأحيانا ما يخطيء الكثيرون ويتصورون أنه القدر ، فقد كتب علينا في ظل هذا التقدم العلمي الرهيب للغرب أن نظل تابعين لا مبدعين .

ولكن الحق أننا قد حملنا القدر ما لا ذنب له فيه ، وما أشفقنا على أنفسنا من حمله . إن رحلة الألف ميل كما يقال تبدأ دائما بخطوة . وأول الخطى هي أن ننفض عن أنفسنا غبار التبعية بعد أن نخرجه من أدمغتنا وأوصالنا ، وهنا يجب أن يكون دور المفكر الرائد المستقل الذي إن درس الفكر الغربي لا يتشكل به ولا يلبس عباءته ، دور العالم المرتبط ببيئته العاشق لها الذي إن اطلع على النظريات الغربية أو درس في جامعات الغرب عاد إلى تلك البيئة ليستخرج منها أقصى أمكانياتها ويعيد تشكيلها من جديد إن كان ذلك ممكنا ، دور الأديب الذي إن اطلع على أدب الغرب لاينبهر بأشكاله أو بمضامينه ، بل يكون انبهاره بما تزخر به بيئته الشعبية الأصيلة من موضوعات ومضامين قل أن يوجد مثيلها في العالم .. إلخ .

فهل نحن فاعلون أم سنظل ندور وندور في تلك الدائرة المفرغة التي أرغمنا على دخولها أو أدخلنا أنفسنا فيها ؟! □



كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم ؟

في العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨ من مجلة (العربي) تحدث الدكتور عبدالكريم أبو شويرب في مقاله « كيف نتعامل مع الطفل بطيء التعلم » عن أسباب صعوبة التعلم فردّها إلى الطفل نفسه في صحته الجسدية والنفسية وذكائه وشخصيته ، وإلى المدرسة والمنزل ، ثم خلص إلى الحديث عن دور المعلم والطبيب في العلاج .

لا شك في أن الدكتور عبدالكريم قد أورد معلومات قيّمة في هذا المجال ، يجب على المربي الالمام الجيد بها إذا كان يريد لعمله التربوي أن يعطي نتائجه

الجيدة ، ولكنني أريد أن أضيف : من الطفلُ بطيءُ التعلّم ؟ وهل يختلف هذا عن الطفل « المتخلف دراسيا » ؟

إن البطء في التعلم هو الأساس الذي يعتمده عدد من المربين في الدلالة على فئة من الأطفال ينخفض ذكاؤهم قليلا عن المتوسط ، وهذا يعني أن الطفل بطيء التعلم هو الذي يكون ذكاؤه أقل من المتوسط ، دون أن يكون معاقاً عقلياً بالضرورة ، أما الطفل المتخلف فهو الطفل المقصّر تقصيراً ملحوظاً في تحصيله المدرسي بالنسبة للمستوى المنتظر من طفل متوسط في مثل عمره ، والتأخر المؤقت البسيط (كالتأخر في امتحان الأسبوع مثلاً) لا يقوم دليلاً على وجود تخلّف .

وعلى الرغم من وجود بعض الاختلاف بين الباحثين في مقدار الدرجة التي يجب أن يبلغها التقصير ليكون ملحوظاً وذا دلالة ، وليوصفَ صاحبهُ بالتخلف ، فإن الاتجاه السائد يقول : « تطلق كلمة التخلف بمعناها الاصطلاحي على أولئك الذين لا يستطيعون ـ وهم في منتصف السنة الدراسية ـ أن يقوموا بالعمل المطلوب من الصف الذي يقع دونهم مباشرة » ، وعلى هذا يوصف ابن السنة الثامنة بالتخلف حين لا يستطيع أن ينجح نجاح المتوسط من أبناء السنة السابعة في أسئلة يتضمنها اختبار للتحصيل لأبناء السابعة .

فكلمة التخلف المدرسي إذن تشير إلى فئة من الأطفال من مستوى معين ومنخفض في التحصيل ، ولا تعنى فى الأصل فئة من الأطفال يوصف أفرادها بهذا الوصف بناء على مستوى الذكاء لديهم . ويكون التخلف على شكلين رئيسين :

١ ـ التخلف العام : وهو التخلف الظاهر عند التلميذ بالنسبة لكل المواد الدراسية . وهنا نستطيع أن نميز بين فئتين : فئة يكون مستوى ذكاء أفرادها دون المتوسط وفي حدود ما يسمى بالبليد المتوسط أو البليد (وفق تصنيف المتخلفين حسب درجة الانخفاض فى الذكاء) ، وفئة يكون مستوى ذكاء أفرادها متوسطاً ، أو أعلى منه بقليل ، والفئة الأولى هي الغالبة .

٢ ـ التخلف الخاص : وهو التقصير الملحوظ في عدد قليل من الموضوعات الدراسية ، كأن يكون التخلف في الرياضيات مثلا « دون سائر المواد ، ويمكن أن نميز هنا بين فئتين أيضا » فئة مَنْ يكون ذكاؤهم دون المتوسط وفي حدود البليد المتوسط أو البليد ، وفئة مَنْ يكون ذكاؤهم متوسطا « أو أعلى من ذلك بقليل ، والفئة الأولى هي الغالبة أيضاً » .

يتبين مما تقدم أن إطار الاستناد في دلالة اصطلاح (التخلف) هو غير إطار الاستناد في دلالة اصطلاح (البطء في التعلم) ، ولكن واقع الحال أنّ أكثر ما يحدث لبطيء التعلم أن يكون متخلفاً ، وأن بعض المربين يؤثر عدم استعماله كلمة (التخلف) في الحديث عن الطفل المقصّر ، ويفضل استعمال كلمة (البطء في التعلم) للاشارة إلى أن سير الطفل في تعلّمه أقل سرعة من سير المتوسط . . ومهما كانت نقاط الانطلاق في الاصطلاحين فالغالب أننا لا نكون أمام فئتين متميزتين ، وأن الطفل بطيء التعلم لا يستطيع أن ينافس المتوسط في ذكائه ، فإذا فعل ، كانت الغلبة للمتوسط في أكثر الحالات وفي ما لا يقل عن ٧٥٪ منها . ولكن هذا ـ قطعاً ـ لا يعني أن هؤلاء الأطفال سيكونون فاشلين في الحياة ولا يتقدمون في التعلم ، ولهذا فإن التربويين الموضوعيين لا يقيمون خطّاً واضحاً وثابتاً بناء على نتائج اختبارات الذكاء للتفريق بين المتخلف أو البطيء التعلّم من جهة والسويّ من جهة أخرى ، لأنه يمكن إعداد طرق تعليمية معينة يستطيع الطفل البطيء التعلم أو المتخلف من خلالها تعلّم العديد من الموضوعات المدرسية كالقراءة والكتابة والحساب والرسم والموسيقا ، كما يستطيع القيام بأداء معظم الأعمال التي يؤديها الأطفال الأسوياء دون ضغط أو تردد ، ويجب في هذه الحالة أن يكون عدد التلاميذ في الصف الواحد قليلاً ، كما يجب تأهيل المعلمين الذين يمارسون تعليم هذا النوع من الأطفال بحيث يُلمّون بالتقنيات المخصصة لمساعدتهم . □

حيدر عمر
سوريا ـ عفرين



من صور الجذوة والخمود في فكر المسلمين

بقلم : الدكتور راشد المبارك

حرية التفكير والإبداع من أهم الشروط والقواعد التي تبنى عليها الحضارات ، ومحاصرة الفكر أو تهديده أو قمعه يؤدي إلى خمود جذوة الإبداع والابتكار لدى الشعوب ، ومن ثم يفضي إلى التخلف الذي تدفع الأجيال القادمة ثمنه .

هاتان النتيجتان المهمتان استنتجهما الكاتب من خلال دراسته لماضي الأمة الاسلامية وحاضرها ، بإبداعاتها الفكرية والعلمية ، وهما تستوجبان الاهتمام والمناقشة .

إن البحث في التاريخ الفكري للمسلمين ، أي الحديث عن الفكر مقيدا بنسبته إلى مفكري المسلمين ، أولئك النفر الذين صاغوا التاريخ العقلي والحضاري فيما وصل إلينا من تراث ، موضوع ينطوي على قدر كبير من التعقيد والتشعب ، يتعذر معه الأمل في رسم صورة كافية الدلالة على طبيعته في رقعة صغيرة أو وقفة قصيرة كهذه ، وكل ما يطمع فيه ـ في هذه الوقفة ـ هو إلقاء نظرة على بعض الشواهد الشاخصة في ذلك المسار التي تمثل نقطا على منحنى ليست كافية لرسمه لكنها تكفي للدلالة على ميل ذلك المنحنى واتجاهه .

والمقصود بالجذوة هنا هو عنفوان الفكر في استشرافه الذكي للمقاصد والغايات ، والتعامل مع الأحداث ، واتخاذ المواقف ، وفي الكشف عن قوانين الكون وسننه ، وفي فهم روح النص وبواعثه ، والنفاذ عند الاقتضاء من منطوق النص وظاهره إلى مفهومه ومراميه . وعلى ذلك يكون الخمود هو مغايرة ما تقدم أو التناقض معه .

وما نعنيه بالفكر هو القدرة على الاستفادة القصوى من طاقة العقل لتجلية ما يستكن من المدركات ، أخذاً في الاعتبار أن العقل هو ملكة التحليل والتعليل المميزة بين الخطأ والصواب .

الفكر صانع للحدث :

تعريف الفكر بالمفهوم السابق قد لا ينطبق على التعريف المعجمي له انطباقا تاما فقد جاء في اللسان:

الفكر : إعمال الخاطر . وقال في الصحاح : الفكر التأمل . وعرف قاموس اكسفورد الفكر بالنشاط العقلي أو قوة التعليل . كما عرفه قاموس وبستر Webster بأنه القدرة على التفكير . لكنه يتفق مع

مفهومه من منظور فلسفي أشار إليه ديكارت عندما جعله دالا على الوجود (أنا أفكر إذن أنا موجود) ، ونظرية ديكارت التي تبدو مبالغة في تقدير أثر الفكر ليست سوى صياغة محتشدة للحقيقة القائلة ان الفكر صانع للحدث وسابق عليه،وأن الحدث كان جنينا تمخض عنه الفكر . والعلاقة بين الحدث والفكر هي أن الأول يصنع بوقوعه إثارة وتحريضا للثاني لتوسيع دائرة عمله . والأحداث الصانعة لتاريخ البشر جاءت نتيجة لأمرين : مدد نزل من السماء ، أو فكر نبت من الأرض حوّل الإيمان بالأول والاقتناع بالثاني وهو المدد أو الفكر من عالم المخيلة إلى حيز الواقع ، أي من وجود بالقوة إلى وجود بالفعل .

وباستثناء الأحداث الكونية ـ ومنها النبوات ـ فإن جميع المذاهب والدعوات والعقائد والقوانين والفروض والنظريات وعمليات الهدم المادي والبشري في التاريخ عمل من أعمال الفكر ، وليس من الممكن أن يكون للبشر حضارة ، بل أن يكون لهم تاريخ ، دون فكر صاغ هندسة الحدث أو وضع بذرته ، فهو بذلك الراسم لمسار التاريخ في وهاده وقممه .

الفكر لا يتعامل إلا مع نفسه :

خارج نطاق النظرية النسبية يعرف الرياضيون الزمن بأنه المتغير المطلق ، أي المتغير الذي لا يعتمد في تغيره على سواه ، ويجعل هيجل الحرية ماهية العقل ، وهو يعني بذلك استقلال العقل التام . وإذا كان الرأي الأخير يسقط أثر الخبرة والتجربة في التأثير على مواقف العقل وتوسيع دائرة عمله . فإن الفكر بالتعريف السابق ـ وهو غاية ما يصل إليه العقل من استقلال ـ هو الأقرب إلى أن يكون المتغير المطلق ، لذلك فهو أظهر الأشياء في مختبر الإدراك ، إذ لا يمكن إثباته أو نفيه ولا مجاملته أو تجريحه إلا بوسيلة فكرية ، بل إن مشروع إخضاع الفكر للمختبر هو عمل من أعمال الفكر أو صورة من صوره ، أي أنه مشروع فكري ، إلا أن كون الفكر كذلك لم يمنحه حصانة من الوقوع في الخطأ ، ذلك أن الفكر قد يستهويه الضلال أحيانا أو يغويه ، لكنه حين يصنع ذلك أو يقع فيه يخرج من نطاق الفكر الكلي ويقع في حيز الفكر الجزئي للفرد أو الجماعة ، ومع ذلك فإن لهذا الفكر الجزئي حضورا ومشاركة في صنع الحدث وصياغة التاريخ . ولعل هذه الحقيقة هي بعض المآخذ على مقولة هيجل أن العقل يحكم العالم .

وسواء جاءت هذه النظرة انعكاسا أو تأثرا بقوانين نيوتن في الحركة أو لم تكن كذلك ، فإن الخطأ ليس في اعتبار أن العقل ـ وهو أصل الفكر ومنشؤه ـ قوة تؤثر في التاريخ وقد تصنعه ، لكن الخطأ في القول أن التاريخ يتخذ مساراً عقلانيا ملتزما باشتراط العقل ومطالبه ، ذلك أنه يلزم من المعطيات قدر أكبر ، ومن صحبة التاريخ مدى أطول ، لكي يمكن القول ان المحصلة النهائية لاتجاه الحركة في مسار التاريخ تتخذ مسارا عقليا . ومع ما تقدم من أن الفكر قد يخطيء أو يضل فإنه من المؤكد كذلك أن لا سبيل لمحاسبة الفكر أو تقويمه إلا بالفكر نفسه ، وإذا كان الفكر ـ أي الجزئي منه ـ يقع في الخطأ في بعض الحالات فهو الوحيد الناقد لهذا الخطأ المصحح له في كل الحالات . إن الفكر ناقد نفسه ، إنه يرفض التعامل مع وسيلة غير فكرية ، فالترغيب والترهيب ليسا مما يدخل في دائرة التعامل معه أو المعالجة له ، وكما أن « القلب لا يدخل في ولاية الفقيه » كما يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله فإن الفكر لا يخضع لعصا المؤدب . ولعل البشر لم يعرفوا في تاريخهم محاولة عقيمة أو مشاعر غير متحضرة أو جهدا مهدورا أشد أو أفجع أو أكثر تبددا من مشاعر أو محاولة أو جهد من يسعى لخنق الفكر أو الحجر عليه أو مصادرته أو فرض الفكر المضاد عن طريق سوط الجلاد أو عصا المؤدب ، إنه ليس قارئا للتاريخ ذلك الذي يظن أنه يمكن التعامل مع الفكر لتأكيده أو الدفاع عنه أو إسقاطه بوسيلة غير فكرية ، لذلك فإن من أكثر الأشياء جدارة بالدراسة والتأمل تلك الظاهرة الفريدة في التاريخ الحديث المتمثلة في أمرين :

الأول : أن واقعا قام على فكر جاء هادما ما قبله ، لم يجد وسيلة لحماية نفسه إلا بحبس الفكر المغاير أو تجريمه أو الحجر عليه بكل الوسائل والأشكال المانعة لتداوله أو تسربه ، ومنها الستار الحديدي والأسلاك الشائكة والمدافع المنصوبة على الأبراج ، على أن هذا الواقع الممثل لأعنف مقاومة للفكر ، والخوف منه ، والعجز عن مواجهته ، قدم أقوى دلالة على قدرة

الفكر واختراقه وتخطيه للعوائق واستعصائه على الاضطهاد .

الثاني : أن النظرية الجدلية التي قال بها هيجل وتأثر بها ، وأصلها الفكر الماركسي ، لم تجد شاهدا على صحتها أقوى من الواقع الشيوعي نفسه ، فمما تعنيه النظرية الجدلية أو تتضمنه أن المذاهب والنظريات والأفكار التي يمكن أن تقوض واقعا قد تقادم تؤول إلى الشيخوخة والهرم بعد أن تفرغ ما تحمل من شحنة بناء أو هدم ، وتتحول إلى حطام يعوق الحركة ، وتحول بما أعطت لنفسها أو كسبته من قداسة دون النقد والتقويم وتصير مانعا من التطور والقدرة على التعامل مع الظروف والمعطيات الجديدة التي قدم تجيء وليدة للمذهب الجديد نفسه ، فإذا اصطدمت بالفكر الرافض الذي لا يحكمه انسياب التيار اضطرت في محاولة لحماية نفسها إلى مواجهته بالقسر والإكراه . والتاريخ لا يحتفظ بأمثلة كثيرة على أن نظرية أو مذهبا استثمر أصحابه نضوب عطائه منذ لحظة ولادته فاضطروا لحمايته وفرضه بالإكراه كما حدث للنظرية الماركسية .

عود على بدء :

في محاولة البحث عن الجذوة والخمود أو مواقع الضعف والقوة في فكر المسلمين تبدو للباحث ظواهر جديرة بالتأمل لما لها من صلة بطبيعة الموضوع وأبعاده .

الظاهرة الأولى : هي أن مادة فكر لم تكن ذات تكرر ، بل ليس لها ورود في أكثر ما وصل إلينا من التراث الجاهلي شعره ونثره . ومع الإدراك التام أن عدم ورود هذه المادة لفظا لا يعني انتفاء ورود مدلولها أو إعمال هذا المدلول ، إلا أن ذلك لا يكفي لإسقاط الدلالة في تلك الظاهرة أو استشكالها ، مادامت اللغة هي وعاء الفكر مكتوبا أو ملفوظا .

الظاهرة الثانية : تكرر ملفت للنظر لمادة فكر بلفظه أو بمعناه في القرآن ، حيث وردت هذه المادة بصيغة الماضي أو المضارع في نحو ثمانية عشر موضعا ، وجاءت الدعوة إلى النظر بمعنى الفكر والتأمل في أكثر من أربعة وثلاثين موضعا .

الظاهرة الثالثة : تكرر وصف أعلام المسلمين ـ في العصور المتأخرة نسبيا ـ بالفقيه والأديب واللغوي والكاتب والشاعر والمؤرخ والطبيب والحافظ ، أي وصف كل فرد بما ظهر من صفاته وغلب عليه . ولم يحدث أن وصف شخص بصفة المفكر .

الظاهرة الرابعة : وجود آلاف من الكتب التي وضعت في الفقه واللغة والحديث والعقائد والكلام والفلسفة والتصوف والعلوم الطبيعية ، وكلها من أعمال الفكر ، إلا أنه لم يعرف شيء ذو بال من المؤلفات وضع لمعالجة الفكر من حيث هو فكر أو عن تاريخه (من الواضح أن ذلك لا يشمل العصر الحديث) .

الظاهرة الخامسة : وضع مصنفات عديدة عرفت باسم الطبقات ، مثل طبقات الفقهاء والكتاب والوزراء والأطباء والمحدثين والشعراء والحفاظ ، ولم يعرف مؤلف كتب عن طبقة ذوي الفكر . ولا أظنه يبطل صحة الاستشكال في الظاهرة الثالثة والخامسة أن الفكر صيغة مشتركة وملازمة لكل الأعلام ومن ألف عنهم من الطبقات، ذلك أن كثيرا من أولئك الأعلام ومن سلكوا في طبقات تجمعهم صفة أو صفات أخرى مشتركة مثل الحكمة أو الفقه أو الشعر أو الفلسفة ، فلم يمنع ذلك أفراد كل طبقة بما غلب عليها وتميزت فيه ، والمقصود هنا هو التميز في الفكر لا القدر المشترك منه . ومع ذلك فإننا نرى أنه إذا كانت الظاهرة الثانية واضحة الدلالة على غايتها فإننا لا نعتقد صواب استنتاج تصور قاطع الدلالة من الظواهر الأخرى ، ولكنها ظواهر جديرة بالتأمل لمن يريد دراسة التاريخ الفكري للمسلمين لمعرفة مواطن الضعف والقوة في الماضي استفادة منها في الحاضر .

قبسات من الجذوة :

يظهر العنفوان الفكري للمسلمين في مجالين متميزين .

الأول : تعامل مع الأحداث والظروف يحسن إدراك الحاضر ، كما يستشرف آفاق المستقبل واحتمالاته ، أدى هذا التعامل إلى حفظ كيان الدولة وامتداده وتطوره أو أثر في هذا الحفظ والامتداد .

الثاني : حسن تمثل لما جاء به الإسلام وتفاعل معه أثمر الموروث الفكري والحضاري فيما وصل الينا من تراث .

ففي المجال الأول يستطيع الباحث رسم خريطة بينة المعالم لهذا المجال من مواقف للمسلمين في فجر الإسلام وضحاه منها :

- موقف أبي بكر عند وفاة الرسول (ص) وهو الموقف الذي تضعف فيه العزائم وتضل فيه الأحلام ، وموقفه من مانعي الزكاة منفردا بهذا الرأي وإصراره عليه ، وموقفه في انفاذه لجيش أسامة إلى خارج الجزيرة والمدينة محاطة بالمرتدين .

- مواقف عمر من إيقاف حد القطع في سنة الرمادة ومن تقسيم أرض السواد ومن المؤلفة قلوبهم وفي امتناعه عن الصلاة في كنيسة القيامة وفي تدوينه للدواوين .

- تعريب عبدالملك للدواوين وسكه للنقود .

- مضمون رسالة الرشيد إلى ملك الروم وهي أقصر رسالة عدد كلمات وأبلغها معنى .

- استجابة المعتصم لنداء المرأة المأسورة في عمورية . ومظهر الانفعال والارادة المغلف لهاتين الحادثتين لا يجوز أن يحجب عنا البذرة الفكرية المستجنة فيهما ، فالعاطفة والإرادة هنا ليستا سوى المؤثر الذي نقل الحدث من مجال الفكر إلى حيز الواقع ، فهما موقف من وجود وليستا إحداثا له .

وفي المجال الثاني يمكن للمرء رسم صورة تدل عليه من الأمور التالية :

١ - توجه جماعي إلى إيقاظ العقل - من حيث هو مناط التكليف - في قراءته لكتاب الكون وفهم نواميسه ، وفي فهم النص فيما يستصحب الظروف والبواعث والغايات .

٢ - اخلاص للحق سقط معه وبسببه كل إيثار للانتصار للذات أو التعصب للرأي .

٣ - سمو في العقل والخلق انتفى معه اتهام الناس في بواعثهم ونياتهم فيما يصلون إليه من رأي قام على اجتهاد .

٤ - رحابة أفق اتسعت للعديد من الأفراد والجماعات وإن اختلفوا في رؤيتهم وتفسيرهم للأحداث والنصوص .

- اعمال العقل :

جاء تأصيل هذا الأمر وتأكيده في القرآن بصورة ملفتة للنظر كما تقدم في صدر هذا البحث وجاء عمل النبي في مواقف كثيرة دالا على ذلك كإعجابه (ص) بفهم معاذ بن جبل عندما أراد بعثه إلى اليمن . وفتيا كثير من الصحابة في حياة الرسول وارشاده للمخطيء منهم وتأييده للمصيب . ولم يعرف أنه كف أحدا من أصحابه عن ذلك .

كما تمثل فهم الصدر الأول لذلك واتباعهم له في أمور منها :

- نشوء المدارس المتعددة في الفقه والعقائد والحديث والفلسفة وعلم الكلام ، ومحاولة معرفة السنن الكونية وأسرار المادة بدراستها . وما اشتملت عليه دراسة الفقه من ثروة فكرية أصلت مناهج الاستدلال والاستنباط والرأي والقياس والاستصحاب والاستحسان . وفي هذا الجانب يحسن لفت النظر إلى ذلك المدرك اللطيف الذي لا يخلو من مغزى في تسمية علم مصدري التشريع واستنباط الأحكام منها بالفقه ، والفقه بالشيء غاية ما يصل إليه الإدراك المتأني في فهمه بعد الإحاطة بما يتعلق به .

الإخلاص للحق :

بلغ المسلمون الأوائل من الإخلاص للحق والشغف به أفقا تلاشى فيه أي أثر للتعصب للرأي ، أو تغليب الانتصار للذات ، وصارت « الحكمة ضالة المؤمن » قانونا أخلاقيا في التعامل مع الأشخاص والآراء والاجتهادات . وتمثل الأئمة الأربعة لذلك نموذجاً من دروس الأخلاق سواء في موقف أحدهم من الآخر مع اختلافهم فيما يصلون إليه أم في إلحاحهم على الناس بعدم الأخذ باجتهادهم ما لم يتبين للآخذ وجه الحق فيه .

كما شف عما تقدم موقف مالك في منعه لأبي جعفر المنصور من حمل الناس على الموطأ ، وموقف الإمام أحمد من الأئمة الثلاثة ، واستقلال الشافعي بمذهب خالف فيه مالكا وقد كان تلميذا له في كثير مما وصل إليه ، ولم ير الأول أو الثاني في ذلك ما يخل بما بينهما من اجلال ، ولم تمنع الحسن الأشعري أربعون عاما من الأخذ بمذهب المعتزلة والجدال عنه من رجوعه عن ذلك المذهب بعد أن تبين له وجه الخطأ فيه . ومما يدل على ذلك المستوى العقلي والخلقي ما يجتمع في المسجد الواحد كجامع البصرة وما يماثله من المساجد في حواضر البلاد الإسلامية من حلقات تمثل المذاهب

المختلفة في الرأي والاجتهاد ، وما حمله أبو جعفر المنصور وهو الخليفة السني الفقيه من اجلال لعمرو ابن عبيد المعتزلي ورثائه له بعد وفاته . ولم يعرف خليفة رثى شخصا غيره . وقد اتسع هذا الأفق ليشمل المخالف في الدين والاعتقاد . قال خلف بن المثنى ما معناه شهدنا نفرا في البصرة يجتمعون لا يعرف مثلهم علما ونباهة : الخليل بن أحمد (سني) والحميري الشاعر (شيعي) وسفيان بن مجاشع (خارجي) وصالح بن عبدالقدوس (شاك متحير) وابن نظير المتكلم (نصراني) وابن رأس الجالوت (يهودي) ، وكانوا يجتمعون ويتحدثون في مودة لا تعرف منهم هذا الاختلاف الشديد في الديانات . ولم يعرف أن أحدا ممن يقتدي برأيه في عصرهم رأى في ذلك خروجا على الدين أو ترخصا فيه ، بل لعلهم رأوا في ذلك فهما لقوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم » وهذه الآية من سورة الممتحنة وهي مدنية نزلت قبل الفتح بزمن يسير أي بعد أن أعز الله الإسلام ، كما رأوا فيه تأسيا بعمل النبي (صلى الله عليه وسلم) في استضافته وفد نصارى الحبشة ، وإنزاله لوفد نصارى نجران في المسجد ، وفي معالجته الكريمة لقضية حاطب بن بلتعة ، وتغليبه لحسن الظن على سيئة في مسألة تعتبر خيانة عظمى بلغة هذا العصر .

بعد ذلك سيجد المرء من المتعذر أن يعزو إلى الصدفة ظهور الشخصيات المتميزة في العلوم التجريبية والبحتة في هذا العصر أو مجيئهم ثمرة له . وأن يكون لمجالات المعرفة المختلفة في الطب وعلم النبات والحيوان والسياسة والأخلاق حظ غير قليل من الاهتمام .

من رماد الخمود :

الصورة التي تبينا اشراقها فيما سبق من صفحات ، تلاها كثير من رماد الخمود سببه قصور نظر ضاق معه مجال الرؤية ، وتعصب للرأي صنع كثيرا من البغضاء ومنع الاستفادة من الرأي المخالف مهما كان حظه من الصواب ، وتقليد بلا بصيرة أصاب ملكات العقل والفكر بما يشبه الشلل .

فلقد أدى قصور النظر إلى ضيق في مجال الفهم والإدراك تعذر بسببه التفريق بين الثوابت والمتغيرات واختلطت قداسة النص لدى كثير من الناس ببشرية التفسير لذلك النص وإدراك مرماه ، واعتبر رأي الشيخ أو المتبوع في تفسير نص ما أو فهمه هو الأمر الوحيد الممكن والمحتمل والأكمل لمدلول ذلك النص ، وصار أي منفذ آخر للاجتهاد في التفسير والاستنتاج خروجا عن الإجماع أو نوعا من الابتداع ، وخفي في ضباب هذا الفهم إدراك أن هذا التوجه يجمل ما وصل إليه الأقدمون ـ مع التقدير له ووجوب الاهتداء به والاستفادة منه ـ في فهم النص وتفسير الحدث هو الصورة المثلى والممكنة لعطاء الإسلام ومعالجته للمشكلات والأحداث ، كما خفي أن ذلك مخالفة لما دعى إليه السلف فيما أثر عنهم من أقوال وأفعال تقدم بعض الأمثلة عليها .

وازدحم تاريخ المسلمين بعد انحسار الموجة الأولى بصور من التعصب للرأي سدت منافذ الرؤية لأي جانب من جوانب الحق يكون عليه الطرف الآخر ، وصارت كل فئة تعيش في أسوار محصنة عن اختراق الآراء الأخرى أو نفاذها . مارس هذا التعصب وتحمس له الأفراد والجماعات ، ولقد مورس في مجال النظرية إلى حد قال معه أحد الفقهاء : « كل آية أو حديث تخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ » ينسب هذا القول لأبي الحسن الكرخي من فقهاء الأحناف ، ومورس في مجال التطبيق إلى حد أن المعتزلة أرادت فرض مذهبها على مخالفيها بقوة السلطان . وأثمر هذا المناخ صداما بلغ حد الاقتتال بين أصحاب المذاهب التي تجمعهم الأصول ، ولحق أذى كثير بأئمة فضلاء بسبب آرائهم الفقهية المتعلقة بالفروع . يحفل التاريخ بصور المصادمات بين أصحاب المذاهب وحتى من ليس بينهم اختلاف إلا في اليسير من الفروع مثل مصادمات الشافعية والحنابلة . وقد حوصر الإمام الطبري ورمي منزله بالحجارة حتى صارت أكواما حول بيته ، وأبطل بعض أتباع مذهب الصلاة بإمامة تابع لمذهب آخر .

التقليد

لعله لم يعرف تاريخ المسلمين شيئا أوصلهم إلى ما هم عليه إلى وقتنا الحاضر مثل التقليد بلا بصيرة

والاتباع بلا مساءلة ، وليس المقصود بالتقليد هنا أن يستفيد المرء ممن هو أكثر منه علما وأوسع دراية ، وأن ينتفع برأي من سبق فيما يأخذ ويدع ، ولكن التقليد المذموم هو ذلك الموقف الذي يتعطل معه العقل فلا يعمل والفكر فلا يستشكل ويجعل جهل المسلم بأوامر دينه ومواهبه وكأنه مطلب يجب أن يؤصل ، وكف العقل عن فهم وتدبر ما جاء به قانونا عاما لابد أن يسود ، فيصبح الفرد عالة على سواه حتى في معرفة الفروض من عباداته والضروري من معاملاته ، فلا غرو أن تكون نتيجة ذلك هي اندفاع التابع في أحكامه ومواقفه بعامل عزم القصور الذاتي لا بتوجيه العقل البصير . وكان لهذا الاندفاع نتيجة أخرى لعلها أخطر ما اجتنه بذرته من انبات ، فقد تحول التقليد بالتتابع من تقصير أو قصور يقع فيه فرد أو أفراد إلى عرف تأخذ به أمة صاغ مسارها الجماعي وحدد مجالات ما تهتم به وتتطلع إليه .

ولقد صرف هذا التتابع الذي حكمه قانون الاندفاع كل اهتمام الأمة أو جل هذا الاهتمام إلى وجهتين : الأولى : فن صناعة الكلام . والثانية : الإغراق في مسائل من الفروع كتبت فيها مئات المؤلفات من المتون والشروح والحواشي والمطولات والمختصرات والتعليق .

صناعة الكلام :

لم يكن عرب الجاهلية أوفر الناس حظا في المعارف الفلسفية أو الاجتماعية أو العلمية ،لكنهم كانوا يشعرون بتفوقهم في جانب واحد هو صناعة الكلمة . استنفدوا جهدهم النفسي والفكري في إجادتهم لها ، والتفوق فيها ، والمباهاة بها . وكانت تقام الأعراس وتنحر الجزر إذا ظهر في القبيلة أحد المتفوقين في هذه الصناعة ، كما تقام الأسواق في الفترات المختلفة من الزمان والمواقع المختلفة من المكان لعرض ذلك الانتاج للاستعلاء به والانتصار ، وعلقت نماذج منه في أقدس محل يتوجهون إليه بتعبدهم . وإذا كان ذلك مفهوما في العصر الجاهلي للأسباب السابقة فإنه سيبقى غير مبرر ولا مفهوم أن يستمر هذا التوجه بنفس الدرجة من الاهتمام والممارسة في الدولة الإسلامية ، حيث فتح الإسلام للعقل والقلب آفاقا جديدة لم تفتح من قبل ، وامتزج المسلمون بامتداد دولتهم بثقافات شعوب أخرى وحضاراتها لولا سيطرة نزعة الاتباع بلا اشتراط والتقليد بلا مساءلة . وإذا كان لا يجوز التفريط في هذا الموروث أو إهماله فإنه يجب كذلك أن يكون الحرص عليه لكونه وعاء ومظهرا لفكر الأمة ، وتعبيرا عن شخصيتها النفسية والعاطفية ، لا لأنه الوعاء والمحتوى والمظهر والجوهر والوسيلة والغاية ، ولكن ذلك هو ما حدث لدى كثير من الناس حيث صار هو القصيدة التي ألهت بني تغلب عن كل مكرمة .

لقد وقف عقل الفرد العربي « بقفا نبك » وقوفا طال به حتى أصابه بما يشبه الشلل المعجز عن الحركة إلى الآفاق الأخرى من المعرفة والابتكار ، واحتلت « قفا نبك » وأخواتها في عقل الفرد وإحساسه ومشاعره مكانة تقرب من القداسة ، وصارت قراءة هذه المعلقات ـ وما يماثلها ـ وحفظها وشرحها والتعليق عليها واستنباط معجزاتها البلاغية هي أهم ما يقدم للذهن من غذاء . وأصبح على كل فرد أن يدجن أو يروض مداركه وإحساسه وتذوقه لكي يدرك ويشعر ويتبين السمو الحضاري والعقلي والبياني في مثل : « . . تقول وقد مال الغبيط بنا معا : . عقرت بعيري . . . » ، ومثل « فظل العذارى يرتمين بلحمها .·. وشحم . . . » .

لقد تحول فن صناعة الكلمة إلى حقل مغناطيسي هائل جذب إليه الفكر والوجدان ، ورأى الناس فيه أبعد ما يتطلعون إليه من آفاق ، وتوجه لإجادته والتفوق فيه معظم طاقات العقل ووظائفه ، وأصبح هو الوثيقة التي يجتاز بها كل الحدود والمواقع والحصون إلى صدور المجالس وعطاء السلاطين وكراسي الوزارة ، ونتج عن ذلك أن كتب في هذا الجانب أثقل ما تنوء به المكتبة العربية من أحمال ، وأن يكون أضخم الكتب التي عرفها تاريخ التأليف كتاب « صبح الأعشى في فن صناعة الانشا » . وقد بلغ هذا الحقل المغناطيسي الجاذب من القوة حدا لم يسلم من التأثر به رجل مثل الجاحظ في عنفوانه العقلي ، وهو الذي قيل عنه أن كتبه تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، حيث يظهر هذا التأثر في مثل قوله : « . . . فأما الهند فإنما لهم معان مدونة ، وكتب مخلدة ، لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف ،

ولليونان فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق بكي اللسان غير موصوف بالبيان . وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأي ، وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكر ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعاني ارسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » (البيان والتبيين) . وما نظن أنه سيغرب عن ذهن الجاحظ ـ لولا شدة تأثير ذلك الحقل الجاذب ـ أن السبب الذي فضل به العرب هو إلى الهجاء أقرب منه إلى المدح . ولعل ذلك يفسر أن العرب ترجموا ونقلوا عن اليونان مالهم في الفلسفة والمنطق والهندسة والطب والفلك ولكن لم يعرف أنهم اهتموا بنقل أثر واحد في صناعة الكلام .

في مثل هذا الجو المشحون بالكلف بالكلمة والمبالغة في الانصراف إليها تستوقف المرء ظاهرة أخرى هي أن ما وجه لتجلية الإعجاز البلاغي في القرآن من ذلك الجهد نصيب غير موفور . وسيبقى من الأشياء الجديرة بالدراسة والتحليل أنه لم يكتب في مدى ثلاثة عشر قرنا عن الإعجاز البياني في القرآن ، وهو المعجزة الأولى فيه ، سوى عدد قليل من الكتب ، لا يبلغ أصابع اليد الواحدة ، على حين كتبت المئات في فروع الفقه ومعالجة الحديث وطرقه واسناده وتاريخ رجاله ونقد هؤلاء الرجال ، أي ما يعرف بالجرح والتعديل ، مع أن الداعي إلى الأول أوجب ، والحاجه إليه أشد بسبب عجز الخلف الذي باعد بينهم وبين السليقة اللغوية حاجزا الزمن والامتزاج بالأمم الأخرى ، فلم يكن لدى الكثير منهم ملكة فطرية تمكن من إدراك أسرار البيان الذي كان مناط الإعجاز . ولعلنا نجد فيما كتبه بعض المتأخرين مثل سيد قطب رحمه الله عن التصوير الفني ومشاهد القيامة في القرآن ، وما يوفق إليه الشيخ متولي شعراوي من لفتات ظاهرة الدلالة على الإعجاز فيما تكشف عنه الكلمة والجملة القرآنية ما لا نجد مثله في أكثر ما كتبه القدماء من المفسرين .

الإغراق في الفروع :

إذا كانت صناعة الكلام قد شغلت مساحة كبيرة من اهتمام الأمة ونشاطها العقلي فإن مساحة أخرى مساوية أو مماثلة شغلتها ظاهرة أخرى تتجلى في أمرين :

أ ـ إغراق شديد في مسائل شكلية من فروع الفقه لا يتفق ما صرف إليها من جهد مع شموخ الإسلام وسمو مقاصده .

ب ـ صرف كثير من جهد العقل ونشاطه لوضع مسائل وحلول قامت على افتراض احتمالات لا يمكن أن تقع أو تصورات يتعذر أن تحدث وجاء بعضها ثمرة لخيال مريض حيث بلغ حدا من الإسفاف يأباه وقار العقل وسمو الوجدان .

النتائج والمقدمات :

إذا كان قصور النظرة والتعصب للرأي أديا إلى النتيجة الحتمية لهما من انقسام المسلمين إلى فرق تعادي كل واحدة الأخرى ، وتفترض فيها سوء القصد والباعث ، وتحمل كل فئة شحنات متفاوتة من التوجس والحذر والريبة تجاه الفئات الأخرى سدت أي منفذ للحوار ومطارحة الحجة لجعل ما يتفق عليه رباطا بين الأمة يجب أن يحرص عليه ويقدر ، وما يختلف فيه رأيا تجتهد فيه الأفهام فتعذر .

فإن الاندفاع الجماعي إلى المتابعة بلا روية قد صرف الاهتمام والتوجه عن فروع من المعرفة ، ومجالات لعمل العقل وعطائه جديرة بأن تولى أكثر مما أعطيت من اهتمام . إن الواضح من الإسلام أنه إطلاق للعقل لا حجر عليه ، وإعمال له لا تعطيل لوظائفه ، فقد جاء القرآن دعوة إلى قراءةكتاب الكون ، وتأمل أسراره وسننه ، وحث الفرد إلى التأمل داخل نفسه وخارجها ، للوصول إلى تعامل أفضل مع بني جنسه ، وفهم أتم لوحدات الكون وطبيعة المادة ، ولكن الاندفاع إلى الوجهتين السابقتين ، وشدهما للنصيب الأكبر من اهتمام الفرد والجماعة أسفر عن انحسار واضح في الجوانب الأخرى ، وتكونت نظرة دونية إلى من يشغل نفسه بمجال من المعرفة غير الوجهتين السابقتين ، وانعكست هذه النظرة إلى واقع وممارسة . فليس من المصادفة أن رجلا مثل سيف الدولة الذي يهب المئات والآلاف من الدنانير لقصيدة تقال يرى أن أربعة دراهم في اليوم كافية لمطالب الفارابي ، وأن يعاني

الكندي ظروفا ألجأته إلى اعتزال الناس،وأن يقضي الحسن بن الهيثم بقية عمره كاسبا قوته من نسخ الكتب . ولعلنا نجد في ذلك المناخ التفسير لحقيقة كئيبة وهي أن ما وجه من جهد إلى المجالات الأخرى التي لا تدخل في صناعة الكلمة مثل الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، لا يتناسب مع ما تقتضيه طبيعة هذه المجالات . وأن نرى العلوم التجريبية والنظرية تكاد تبتديء وتنتهي بالأوائل من واضعيها ، وأن يكون كتاب أبي يوسف في الخراج أهم ما وضع في بابه . لقد أبتدأت الكيمياء وانتهت - أو كادت - بجابر بن حيان ، ولم يعرف عمل وازى عطاء الخوارزمي في الجبر ، ولم يتقدم علم البصريات تقدما يذكر بعد ابن الهيثم . إن ما توصل إليه جابر وكشفه في الكيمياء مثل تحضير حامضي الكبريت والأزوت . ووصوله إلى الترسيب بالتبادل الأيوني ، وتنبهه إلى مدرك النسب المحددة أو المضاعفة « الذي سماه الميزان » ، وتأصيل الخوارزمي لعلم الجبر والاستفادة منه بالتطبيق ، وما أثبته ابن الهيثم من تعليل الإبصار وانتقال الضوء واتخاذه مسارا مستقيما يمكن أن يكون كل ذلك حجرا ضخما تنداح عنه دوائر واسعة لو ألقي هذا الحجر في وسط من طبيعته مرونة الحركة والامتداد . إلا أن المناخ السابق عمل عمله ، فضاقت هذه الدوائر بدل أن تتسع ، واضمحل أكثرها بقانون التداخل مع غيرها من الأمواج . وقد صور هذا الواقع أحد الأعلام المشتغلين بهذه الجوانب من المعرفة بقوله : « . . . إن هذا العلم ، أي الفلسفة - والعلوم الطبيعية جزء منها في ذلك الوقت - أندر من الكبريت الأحمر ، ومن ظفر بشيء لم يكلم الناس إلا رمزا فإن الملة قد منعت من الخوض فيه ، ولا تظن أحدا من الأندلس كتب فيه شيئا فيه كفاية ، فقد قطعوا أعمارهم في علوم أخرى ولم يقدروا على أكثر من ذلك . . » (قصة حي ابن يقظان لابن طفيل) .

لقد أدى ذلك الحقل المغناطيسي الجاذب إلى ما حل بالمعارف الأخرى من ركود ، وصار كثير من الناس يرى الاشتغال بها إهدارا للجهد ، وظن بعضهم في الكيمياء نوعا من الشعوذة أو السحر ، وسلك المؤرخ الذهبي في طبقاته المشتغلين بالكيمياء في سلك المنجمين والسحرة والمشعوذين . وتحدث ابن خلدون في مقدمته عن جابر بن حيان بقوله : « . . . ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وأكثر الكلام فيها (يعني السحر) ، وفي صناعة السيميا وهي من توابعها ، لأن إحالة الأجسام من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العملية . . . » .

وما كان لابن خلدون أن يقع في هذه الركاكة العقلية لو جاء بعد جابر من وسع دائرة عمله ، واستفاد مما حضر من مواد بالتطبيق . لقد وقع ابن خلدون ، ومن قبله في ذلك ، لأنه لم يقدر لقيمة الكشوف الكبرى التي وصل إليها أولئك المتفوقون أن تعرف ولمنهجهم التجريبي أن يبعث إلا بعد قرون من الزمان حيث كتب فرانسيس بيكون كتابيه New Atlantis والأرجانون الجديد ، وقام لافوزييه بتحليل بعض المركبات ، ووجه دالتون النظر إلى قانون النسب المضاعفة والبناء الذري للمادة . وبعد أن بعثت أعمال ابن الهيثم في الضوء في تحليل نيوتن لمركباته وكشف هنجنز الطبيعة الموجية له . □

الحياء المؤمن

في رأي علماء الشريعة أن الحياء عبارة عن خلق باعث على ترك القبيح . يقول الزمخشري : إنه انكسار وتغير يعتري الانسان من تخوف ما يعاب به أو يذم . ويقول الجرجاني : إنه انقباض النفس من شيء ، وتركه حذرا من اللوم فيه ، وهو نوعان : نفساني وهو الذي خلقه الله تعالى في النفوس كلها كالحياء من كشف العورة بين الناس ، وإيماني هو أن يمتنع المؤمن عن فعل المعاصي خوفا من الله تعالى .



بقلم : منير نصيف

كان قلبها يحترق ، وكانت تبكي ، ولكن لم ير أحد الدموع التي كانت تمتلىء بها عيناها القرمزيتان الواسعتان ، فقد كانت تبكي وحدها بعيدا عن الناس ، حتى إذا جاءت اللحظة التي تقف فيها على المسرح ، سارعت تجفف آثار الألم الذي يعتصر قلبها ، ووقفت أمام الجمهور تبتسم وترقص مع احزانها . إنها ايزادورا دانكان الفنانة التي دخلت التاريخ . فمن هي هذه المرأة ، وما قصتها ، ولماذا نعود إليها الآن ؟!

في باريس صفقوا لها ، وفي ميونخ تغنوا بفنها الجديد ، وفي موسكو رشحوها لأكبر جائزة في الدولة ، ولكن عندما عادت إلى بلدها في امريكا وقفت تواجه حملة شرسة لم تحتملها ، فأسرعت تلملم حطام قلبها الذي أدمته المأساة التي عاشتها. وأرادت أن تهرب منها ، وحزمت أمرها ، وتركت الأرض التي أنجبتها ، وبكت ، ولكن الجميع في هذه المرة رأوا دموعها ، لأنها لم تستطع أن تخفيها . ورحلت ايزادورا عن الأرض التي أنجبتها ، ولم تنظر وراءها .

ومنذ بضعة أشهر مضت ، ولأول مرة منذ رحيل ايزادورا عن هذا العالم قبل أكثر من ستين عاما قرأ العالم حكاية ايزادورا كما رواها التلميذ الذي تعلم في مدرسة ايزادورا ثم أصبح أستاذاً بعد ذلك بسنوات طويلة ، ولكنه لم ينس أن يسجل صورة الفنانة التي تأثر بها في مذكراته الخاصة التي ظلت نائمة في درج مكتبه القديم . ولم يكن هذا الرجل سوى سير فردريك اشتون مدير معهد الباليه الملكي بكوفنت جاردن .

طفولة تعسة !

في مدينة سان فرانسيسكو بالولايات المتحدة الأمريكية ولدت ايزادورا ، في أواخر القرن التاسع عشر ، في عام ١٨٧٨ ، وكانت أصغر اخواتها . كانت ، كما كتبت هي فيما بعد ، تحمل في رأسها الصغير ذاكرة قوية تختزن الصور التي كانت تمر بها في هذه السن المبكرة من حياتها على الأرض وسط أسرة فقيرة تعسة .

ماذا كانت ترى ، وأي تجربة تلك التي مرت بها في سنوات حياتها الأولى ؟ صاحب العمارة التي تسكن فيها أسرتها يطرق الباب بعنف طالباً ايجار الشقة



ايزادورا ترقص
مع احزانها . .
فراشة حزينه . .
ولكن بلا دموع !

الذي تأخرت والدتها عن دفعه ! ثم تلك الرحلات التي كانت الأسرة الصغيرة تقوم بها في ظلام الليل .
- إلى أين نحن ذاهبون يا أمي ؟
- إلى بيت لا يعرف أحد عنه شيئا .

وتستقر الأسرة في البيت الجديد ، أو الشقة التي انتقلت إليها سراً ، وتمضي بضعة أشهر ، حتى إذا تراكم الايجار ، وعجزت الأم عن دفعه ، حزمت أمرها وتسللت هي وأطفالها إلى شقة أخرى في حي آخر ، وهكذا !

ولكن السؤال الذي كان يحيرها ، والذي لم تستطع أن تجد له جوابا ،هو : أين أبي ، فقد كانوا يشفقون عليها من الصدمة إذا عرفت الحقيقة ، فقد كانت ايزادورا ماتزال طفلة .

النغم الحزين

أين ذهب أبوها ؟ لقد هجر أسرته قبل أن تصل هي إلى الدنيا التي قست عليها ، بنفس القدر الذي أصبحت فيه معها سخية ولكن لفترة قصيرة ، وعادت بعدها لتغرق في آلامها وأحزانها .

ووقفت الأم وحدها ترعى أسرتها الصغيرة ، فهؤلاء الأطفال لابد أن يعيشوا ، ولكن كيف ، راحت تفكر بسرعة ، وتعمل بسرعة أكثر ، إنها تعشق الموسيقا ، فلماذا لاتجمع أطفال الحي وتعلمهم كيف يعزفون نغم الحياة ؟ وكانت الأم هي أول مدرسة تعلمت فيها ايزادورا اللحن الذي رقصت على أنغامه ، بعد ذلك بسنوات طويلة . وقد كان لحناً جميلا في بداية رحلتها مع الحياة عندما كبرت وأصبحت فتاة رائعة الجمال !

ولكن دروس الموسيقا وحدها لم تكن تكفي نفقات الأسرة ، فاضطرت الأم أن تتجه إلى حياكة الملابس للأطفال ، وكانت ايزادورا الصغيرة واخواتها يحملنها إلى الأصدقاء والجيران ، ويعدن في نهاية اليوم بما جمعن من أثمانها !

ثم كانت المفاجأة عندما دخلت الأم يوما ،

فوجدت ايزادورا أو « دوريتا » ، كما كانت تناديها ، ترقص وحدها لقد أعجبتها احدى المقطوعات التي كانت تعزفها أمها ، فراحت ترقص ، وكانت ترقص وحدها بلا موسيقا ، وكانت رقصاتها من تصميمها هي على الأنغام التي امتلأت بها أذناها الصغيرتان . ووقفت الأم بدهشة ترقب ابنتها الصغيرة ، وهي تغني ، وترقص ، ثم تتوقف لترد تحية « الجماهير » الذين امتلأت بهم الغرفة الصغيرة .

ـ أين هم ، إنني لا أرى أحدا غيرك ؟

ـ انهم في كل مكان يا أمي ؛ غدا سوف أصبح راقصة كبيرة !

فلما بلغت العاشرة ، فوجئت الأم يوما بصغيرتها « دوريتا » وقد تركت مدرستها وجمعت حولها الأطفال الصغار الذين كانت امها تعلمهم الموسيقا لتعلمهم هي فن رقص الباليه !

أشواك الحياة

وبدأت الطفلة تكبر ، وأصبحت فتاة جميلة ، وشاهدها أحد المنتجين السينمائيين وهي ترقص بمدينة شيكاغو الأمريكية ، فقدم لها عرضاً للعمل معه ، ووافقت على العرض .

سافرت لإتمام لقائها الأول بالمنتج ، ولكنها أدركت على الفور أنها ابتعدت عن الطريق الذي بدأت تسير فيه ، فتركت التمثيل ، وعادت إلى حلمها الصغير الذي كبر معها ، وراحت تمشي في الطريق الطويل الذي امتلأ بالأشواك . كان وخز الشوك قاسيا ، وكانت تتألم ، ولكنها صمدت . وكان الجمهور وحده هو الذي يبكي وهو يراها تتألم .

مع رودان

لقد فشلت ايزادورا في السينما ، ولكنها نجحت على المسرح . وفي باريس بعد أن تركت أحزانها وراءها ، وحملت حقيبة ملابسها الصغيرة ، ورحلت عن البلد الذي ذاقت فيه مرارة الحرمان . جلس الفنان الكبير رودان يرسم أول لوحة لها ، بعد أن شاهدها ترقص . وكتب يقول : « لقد أخذت ايزادورا عن الطبيعة قوة ، ولكنها ليست موهبة تلك التي أضفاها عليها كل ما هو جميل ورائع من حولها ، بل إنها العبقرية التي تتمتع بها ، والتي انطلقت من داخلها ، فجعلت منها أجمل وأعظم راقصة بالية » .

ولكن حياتها الخاصة المضطربة ما لبثت أن أضفت غيوما وسحبا سوداء على النجاح الذي حققته الراقصة الجميلة ، فقد وجدت ايزادورا نفسها عاجزة تماما عن الجمع بين عواطفها وعملها الفني . ولكنها كانت تعلم أيضا أنها لا تستطيع أن تعيش دون حب ، ولا أن تستمر في ممارسة هذا الفن الذي تعلمته إلا إذا أحست بأن قلبها قد خفق بالحب .

وفي بودابست في عام ١٩٠٢ أحبها ممثل مجري ، وخفق قلبها بحب هذا الطارق الجديد ، ولكنها ما لبثت أن أكتشفت أنها لا تستطيع أن تهجر الرقص ، كما أراد هو ، لتتفرغ للزواج وحده ! وقررت ايزادور أن تهرب من حبها ، ومن بودابست المدينة التي أحبتها وخفق فيها قلبها لأول مرة . ولكن إلى أين تذهب ؟ وتوقفت قليلا وهي تجمع حطام القلب الذي جرحه هذا الطارق الغريب ، ثم ما لبثت أن حملت بقايا ملابسها الجميلة التي صنعتها بيديها وانطلقت إلى بلغاريا . ولم تكن تدري حتى هذه اللحظة أنها على موعد مع حب جديد ، ففي العاصمة صوفيا التقت بالأمير فرديناند . وقال وهو يمد إليها يده مصافحا بعد أن جلس في مقصورته يرقبها وهي ترقص : ليس عندي أجمل وأثمن من الفيلا التي أمتلكها على شواطيء ايطاليا ، إنها ملكك منذ هذه اللحظة ! وقبلت ايزادورا الهدية ، وأثارت علاقة الأمير براقصة البالية فضيحة في البلاط الملكي !

وسافرت إلى ايطاليا ، وعاشت في الفيلا الأنيقة التي تشرف على البحر بضعة أسابيع ، ولكنها ما لبثت أن ملت الحياة هناك .

الطفل الأول

وتركت ايطاليا ورحلت إلى برلين في المانيا ، وراحت ترقص وترقص ، ولكنها في هذه المرة لم تصبح حديث الناس فحسب ، بل أصبحت أماً لأول



ايزادورا .. أو المرأة التي تنتمي الى العالم كله !

طفل أنجبته من الرجل الذي مد إليها يده طالبا الزواج منها . وكتبت بعد ذلك بسنوات تصف مشاعرها تجاه هذا الرجل الذي أصبح أبا لطفلها « ديردر » ، قالت : لقد رأيته من قبل ، رأيته كثيرا في أحلامي ، رأيته وأنا أرقص على المسرح . لقد كان يختلف عن كل الذين التقيت بهم وعرفتهم ، فقد كان شابا بسيطا لا يملك سوى مرتبه الصغير . لقد أحسست وأنا أتحدث إليه أنه ينتمي إلى نفس المدرسة التي تخرجت فيها ، وهو أيضا لم يكمل تعليمه ، فقد كانت هوايته الوحيدة هي صناعة « الديكور » على المسرح الذي أحبه ، دون أن يفكر مرة واحدة في أن يقف عليه ليقول شيئا ، لقد كان عمله كله يجري قبل أن ترفع الستارة !

وكان الشاب المحظوظ هو جوردون كريج ، والد « ديردر » الذي وضعته في عام ١٩٠٦ . وفي مدينة ميونيخ وصلت ايزادورا إلى القمة .

وجمعت ثروة ، وتوقع الجميع أن يروها في محلات المجوهرات الثمينة والملابس الفاخرة والفراء النادرة التي امتلأت بها اسواق ميونيخ . ولكن شيئا من هذا لم يحدث . وقد فوجئوا بها وهي تبني مدرسة في المانيا ، ثم وهي تتبنى عشرين طفلا من أبناء الفقراء الذين أدخلتهم مدرستها وراحت تعلمهم الفن الذي أعطته كل حياتها . وكانت تقول : « إنني أريد لهؤلاء الأطفال عندما يكبروا أن يصبحوا أساتذة في إدراك معنى الحياة ، وأن يتعلموا كيف ينشرون الحب والجمال فوق هذه الأرض الحزينة !

كلهن ايزادورا

وعاشت ايزادورا سنين من أجل تحقيق الهدف الذي شيدت له هذه المدرسة ، حتى وهي بعيدة عنها ، ولقد كانت مدرستها والأطفال الصغار الذين تحتضنهم ، هم كل شيء في حياتها ، فكانت تجمع المال وترسله إلى المدرسة ، وعندما كبر الأطفال وبلغت الفتيات منهم مبلغ النساء أصبحت كل واحدة منهن ايزادورا أخرى ، وأصبحت الفرقة التي تكونت منهن تحمل اسم « عشاق ايزا » ، وفي بريطانيا بل في أوربا كلها من اقصاها إلى أقصاها ، وفي الاتحاد السوفيتي بعد ثورة أكتوبر وقف الألوف يصفقون لعشاق ايزا ، أو عشاق الباليه .

وجاءت ايزادورا إلى موسكو ، جاءت كما تجيء العاصفة التي تجتاح كل شيء أمامها ، وكان صيتها قد سبقها إليها منذ سنوات . أما هي فقد كانت تعلم أن روسيا هي مهد الباليه « الكلاسيكي » . وعلى أكبر مسارح موسكو ، وفي ملابسها البسيطة الجميلة راحت تعرض رقصاتها بصحبة موسيقا شوبان وبتهوفن وجلاك . وجاءت راقصات روسيا الشهيرات ، وفي مقدمتهن « انا بافلونا » التي قالت بعد أن رأتها ترقص : « إنها أول راقصة باليه ترقص الموسيقا ، ولا ترقص على أنغام الموسيقا ! » وعندما طلبوا منها أن تشرح لهم ما ذهبت إليه في هذا الوصف الجديد قالت : « لقد نجحت ايزادورا في أن تجعل النغم يرقص مع خطواتها وحركاتها على المسرح ! » .

ويقسو القدر

وتركت موسكو وعادت إلى المانيا مرة أخرى ، ولكنها في هذه المرة لم تعد تمضي ساعات نهارها وحدها ، كما كانت تفعل بعد أن ألحقت ابنها الصغير

بالمدرسة ، فقد التقت بالرجل الذي أصبح الزوج الثاني في حياتها ، التي كانت ترفض أن يشاركها فيها أحد بعد أن أصبحت أما لعشرين فتاة وشابا ، أعطتهم كل ما تعلمته من تجارب الحياة الحلوة التي عاشتها بعيدا عن الجانب المظلم منها . وأنجبت ايزا من زوجها الثاني طفلا سمته « باتريك » . ولأول مرة أحست ايزدورا بالسعادة التي كانت تحلم بها ، وهو إحساس بدأت تعيش معه منذ اللحظة التي غادرت فيها المستشفى الذي وضعت فيه طفلها الثاني ، وهي تصعد درجات سلم القصر الذي أعده لها زوجها الثري « باريس سنجر » ، وارث مصانع « ماكينات » الحياكة . ولم تكن أبهة القصر هي سر سعادتها ، ولكنه ذلك الشعور الذي احتواها وهي ترى مظاهر الثراء من حولها ، لأنها لن تصبح في حاجة بعد اليوم لجمع المال من الناس للانفاق على مدرستها ، وعلى أطفالها الصغار والكبار . وعاشت ايزادورا في هذه السعادة ثلاث سنوات ، ثم جاء اليوم الذي غرقت فيه في بحر من الأحزان . كان يوما جميلا من أيام الربيع عندما صمم زوجها سنجر على أن يصطحبها هي وطفليها الصغيرين وأطفالها الكبار إلى الريفيرا الفرنسية لقضاء عطلة وسط زهور الربيع ، ووقف الزوج يقول وهو يحاول إقناعها بقبول دعوته : « أريد أن أراك ترقصين وسط زهور باريس ، أريد أن أستمتع معك بنغم الحياة » وذهبوا جميعا معه ، وبعد يوم من وصولها إلى باريس طلبت من المربية الالمانية التي كانت تعنى بأطفالها أن تأخذ « ديردر » و « باتريك » إلى فرساي ! . فذهبوا في سيارتها الخاصة التي أهداها إليها زوجها ، ولكن السيارة تعطلت في الطريق عند منحنى صغير بالقرب من نهر السين ، ونزل السائق وفتح غطاء المحرك ليحاول إصلاح العطب ، وفجأة بدأت السيارة تتحرك ، فلقد نسي السائق أن يشد كابح السيارة اليدوي ، ومضت السيارة في طريقها مسرعة على الطريق المنحدر ، ثم سقطت في مياه النهر وبداخلها المربية والطفلان الصغيران ، فضاعت كل الآمال والأحلام للأم التي أسعدت الملايين وقضت كل عمرها تبحث عن السعادة حتى وجدتها ثم ابتلعتها مياه السين !

جنازة أحلامها

وفي مساء ذلك اليوم الحزين عندما حملوا إليها طفليها وقف المئات من طلبة الفن وطالباته يحملون باقات الزهور البيضاء ، وعندما سارت ايزادورا في جنازة حلمها القصير وقفت تتلفت حولها وتقول ، وقد زاغت عيناها بين الألوف ، الذين جاءوا يشاركونها مأساة قلبها الذي عصره الحزن والألم : « اريد أن أبدو أكثر شجاعة ، لا بأس من الحزن في داخلي ، فلن يراه أحد ما دمت قادرة على أن أحبس دموعي . إنني أحاول أن أجعل من الموت أيضا شيئا جميلا . أريد أن أساعد كل أم فقدت طفلها في هذا العالم الحزين ! » .

واحترقت ايزادورا

ولكنها كانت في داخلها قد انتهت ، فلقد احترقت ايزادورا حزنا على رحيل طفليها ، وبدأت رحلة أخرى ، ولكنها هذه المرة كانت بلا هدف . لم تترك مدينة واحدة في الشرق أو الغرب لم تزرها ، ولكنها لم تعد ترقص ، فلقد ماتت « الفراشة » التي امتلأت صفحات الكتب بفنها . ثم قامت الحرب العالمية الأولى ، وفجأة وجدت ايزادورا نفسها تقف عند كل شارع ، في كل مكان ، وسط كل حطام ، تنبعث منه موسيقا المارسيليز ـ نشيد الثورة الفرنسية ـ والنشيد الوطني الفرنسي . وفي ابريل من عام ١٩١٩ ، وعلى مسرح « المتروكاديرو » في باريس ولأول مرة بعد المأساة التي كانت تعيش معها كل لحظات حياتها وجدت « ايزادورا » نفسها ترقص وترقص ، وكانت ترتدي فستانا أحمر من لون الدماء ، ولقد كانت حركاتها على المسرح ترجمة حية لما تحمله في داخلها من مشاعر وأحاسيس حزينة ، ولكنها مع هذا لم تبك . لقدوقفت بعد أن انتهى دورها على المسرح ترقب المتفرجين وهم يجففون دموعهم .

الشاعر المجنون

ومرت بضع سنوات ، وتزوجت ايزادورا للمرة الثالثة . وكان الرجل الذي اقتحم عالمها الحزين في هذه المرة هو الشاعر الروسي « سيرجي إيسنين » ، وكان يصغرها بأكثر من خمسة عشر عاما . كان سيرجي نجما في الاتحاد السوفيتي ، يكفي أن تقع عليه الأنظار في أي مكان لتلتف حوله جماهير المعجبين بشعره . ولكنه ما كاد يتزوج ايزادورا ويظهر معها في الأماكن العامة حتى أحس بأنها قد سرقت منه كل الأضواء . وبدأ يحقد عليها ، فلم يكن يتصور أن رقص الباليه يمكن أن يدفع وراءه تلك القصائد الرائعة التي كان يتغنى بها الشعب الروسي قبل أن يلتقي بايزادورا . أما هي فقد قالت يوما عندما حارت في تفسير أسباب غيرته وحقده : « كنت أظن أنني تزوجت رجلا اشتراكيا ، ثم اكتشفت أنه ما زال يعيش رأسمالية القياصرة ! ».

الوداع يا حبيبتي

كان الشاعر سيرجي قد بدأ يضع بيده التفاصيل الأخيرة للخطة التي رسمها للتخلص من حياته . وفي فندق « انجلتير » بمدينة لينتغراد ، وفي نفس الغرفة التي أمضى فيها شهر العسل مع المرأة التي أحبها ، مع ايزادورا ، شنق سيرجي نفسه . ولم ينس أن يقطع شرايين معصمه ، قبل أن ينفذ حكم الإعدام في الشاعر العاشق المجنون سيرجي ايسنين . وعندما اقتحموا غرفته قرأوا آخر قصيدة كتبها ، وكانت أقصر واروع قصيدة كتبها في حياته . قال في مطلعها : « الوداع يا صديقتي الحبية ، الوداع ، أنت ما زلت في قلبي ، وستعيشين فيه بعد أن يتوقف . إلى اللقاء يا حبيبتي » ، وكانت القصيدة مكتوبة بالدم الذي نزف من شرايينه . أما الصديقة التي كان يعنيها فلم تكن سوى ايزادورا التي سولت له نفسه يوما أن يقتلها !

لقد كان يحبها إلى درجة العبادة ، وقد ترك لها الثروة التي جمعها من قصائده التي امتلأت بها خمسة مجلدات ، وكانت ثروة تزيد على ثلاثمائة ألف روبل . وكانت هي في حاجة إلى كل روبل منها ، فقد أصبحت فقيرة . وكانت كل ثروتها هي تلك الثياب التي كانت تكتنف جسمها وهي ترقص على المسرح ، ومع هذا فقد رفضت أن تأخذ روبلا واحدا من الثروة التي أعلنت المحاكم السوفيتية أنها من حقها . وراحت تبيع ثيابها وتعيش من ثمنها . ثم اكتشفت أن أم سيرجي وشقيقتيه يعشن في بلد لا تبعد كثيرا عن لينتغراد ، التي شهدت مولد حبها للشاعر الكبير ونهايته ، وعلمت أنهن يعشن في فقر مدقع ، ولا يملكن من حطام الدنيا شيئا أكثر من ذكريات الأيام الحلوة التي كن يعشن فيها مع سيرجي ومع قصائده التي تغنى بها الناس . فتنازلت عن الثروة التي تركها زوجها لأمه وشقيقتيه . وكتبت لهن تقول : « لقد علمتني حياة سيرجي ما الحياة ! أنا قانعة بما أخذته منه قبل رحيله ، أما هذا المال فأنتن أحق به مني ، يكفيني أن أعيش مع الكلمات التي خطها بدمه قبل أن يذهب . فقد اكتشفت معها أنني فقدت الرجل الوحيد الذي أحبني » وحزمت ما تبقى لها من أشياء صغيرة تحمل بعض الذكريات ، وتركت لينتغراد إلى مدينة نيس في فرنسا . وقد ماتت هناك في صيف عام ١٩٢٧ ، في نفس المكان الذي نبت فيه مجدها . □

البيع والصبر : باع رجل ضيعة ، فقال للمشتري : أما والله لقد أخذتها ثقيلة المؤونة ، قليلة المضغة ، فقال : وأنت والله أخذتها بطيئة الاجتماع سريعة التفرق ، واشترى رجل من رجل دارا . فقال : له المشتري : « لو صبرت لاشتريت منك الذراع بعشرة ، فقال وأنت لو صبرت بعتك الذراع بدرهم » .



الجديد في العلم والطبّ

إعداد : يوسف زعبلاوي

لا تكثر من أكل القرنبيط ؟



● يبدو أن زهرة القرنبيط توشك أن تصبح معيناً للتغذية لا ينضب ، فقد كانت موضع أبحاث وتجارب مكثفة في كل من جامعة كورنل ومحطة التجارب الزراعية في جنيف في ولاية نيويورك ، واستهدف بعض تلك التجارب مضاعفة ما تحتويه الزهرة من مادة الكاروتين ، وذلك بواسطة أساليب التلقيح الزراعي . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت زهرة غنية جداً بالكاروتين ، أغنى من الزهرة التقليدية بهذه المادة المغذية بنحو مائة مرة . وغني عن البيان أن الكاروتين لا يلبث أن يتحول إلى فيتامين « أ » لدى دخوله الجسم .

ومن طريف ما يذكر أن الزهرة الجديدة ذات لون برتقالي ، وهي قليلة السعرات الحرارية ، وغنية جدا بالألياف التي ينصح بها الأطباء للجهاز المضمي . أضف إلى ذلك كله احتفاظ الزهرة الجديدة بما عرف عنها من غنى بالفتامين ج « vit . c . » والبوتاسيوم والحديد ، هذا إلى جانب كونها عضواً في أسرة الملفوف « الكرنب » وبالتالي عامل كبح طبيعي للسرطان .

■ ■ ■

الهندسة الوراثية والأمراض العصبية المستعصية

● اكتشف فريق من علماء البيولوجيا ـ زوج وزوجة ـ العاملين في جامعة كاليفورنيا في سان فرنسيسكو الجينة التي تحكم مجال فاعلية البوتاسيوم في جسم الإنسان ، وهي الفاعلية التي تسهم في حدة إشارات الأعصاب واستمرارها في جسم الإنسان وأمثاله من المخلوقات .

والطريف أن العالمين كانا يبحثان عن جينة أخرى ، تسبب الرجفة للذباب الرجاف ، لكنهما عثرا على جنية البوتاسيوم بمحض الصدفة . ومضى العالمان يبحثان عن هذه الجينة المهمة في مخلوقات أخرى غير الذباب ، وأعلى منه في سلم الكائنات . وقد وجداها في الفئران ،الأمر الذي يجعل وجودها في جسم الانسان مرجحاً . ولا يخفى ما يترتب على اكتشاف هذه الجينة في أجسامنا ، فهو باب يُفضي إلى التحكم في عدد من الآفات العصبية التي يعاني منها البشر ، ولربما الشفاء منها أيضاً وذلك عن طريق التنسيق أو « التوضيب » الجيني **Genetic regulation** وقد تشمل تلك الآفات فيا تشمل الصرع والشلل وما إلى ذلك .

واسطة جديدة لمنع الحمل

أقرت وكالة الغذاء والدواء في واشنطن واسطة جديدة من وسائط منع الحمل ، وكان ذلك في أواخر شهر مايو الماضي (١٩٨٨) .

أما الواسطة الجديدة فهي مبدأ عمل القبعة العنقية « Cervical Cap » كما يسمونها ، وعملها لا يتعدى العرقلة أو منع المنويات من الوصول إلى الرحم ، فهي من المطاط أو البلاستيك ، وتبلغ ١,٥ بوصة ، وهي معدة لكي تشفط فتلبس عنق الرحم بإحكام . فالقبعة العنقية إذن تشبه إلى حد كبير الغشاء أو الحجاب الحاجز ، فهو غشاء من مطاط رقيق ، بعرض ٣ بوصات ، ذو حافة مرنة ، يوضع بين عظمة العانة « pubic » وجدار الفرج ، إلا أنه يكتسب الإحكام بفعل الشد لا المص ، ويتخذ شكل القبعة بعد تركيبه ، وتستوي الواسطتان أيضا في الاعتماد على مادة كيماوية مضادة للمنويات « Spermicide » وفي الحاجة إلى طبيب أو قابلة لوضع القبعة أو الحجاب في المكان المناسب .

ويؤكد الكثيرون أن القبعة العنقية تتميز عن وسائط منع الحمل القديمة وكذلك عن الغشاء الحاجب .

■ ■ ■

عقار الاكيوتين بين التشجيع والتحذير

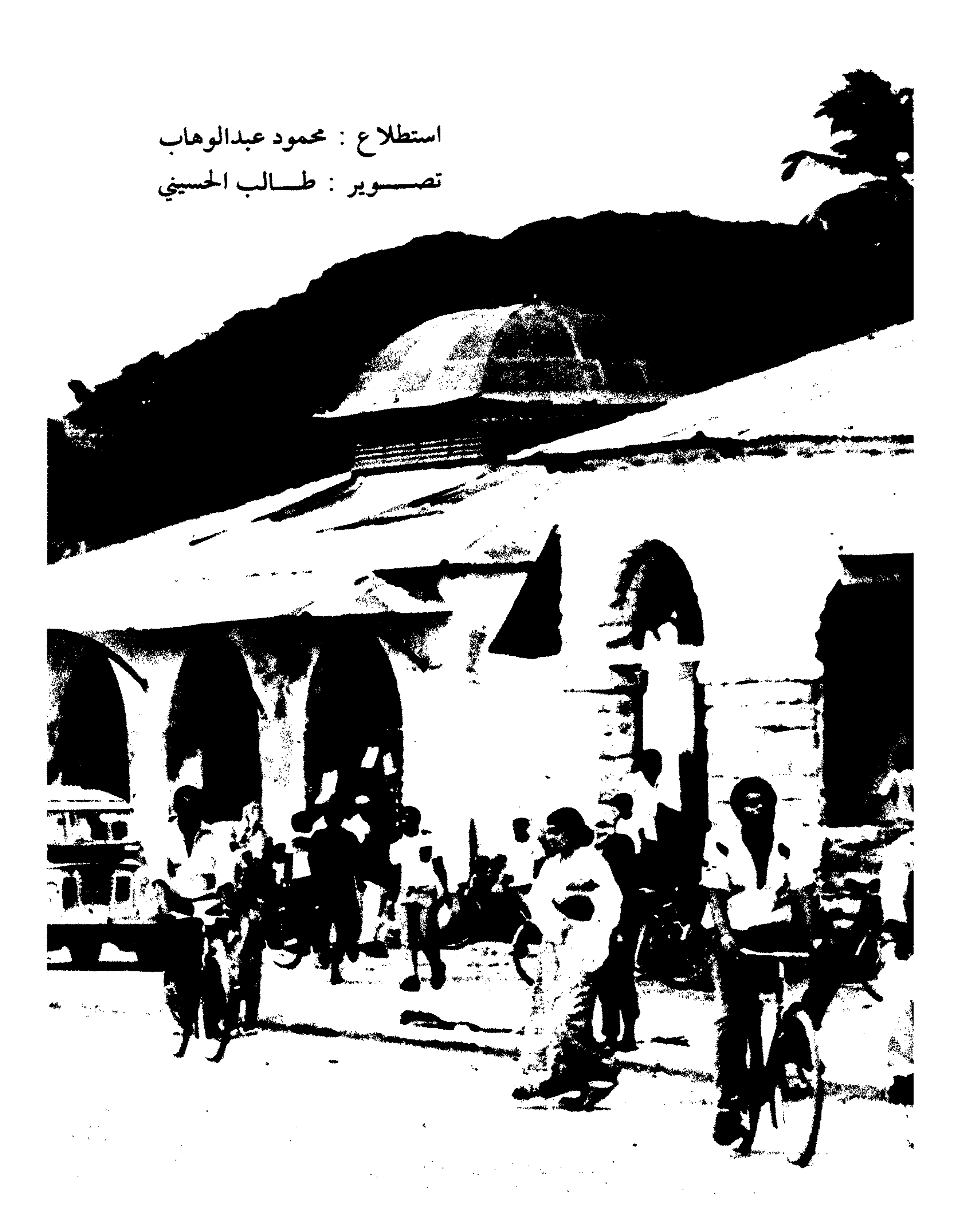
سبق أن تحدثنا في هذا الباب عن عقار الاكيوتين Acutane وعن فاعليته العجيبة في معالجة حب الشباب المزمن . كان ذلك قبل نحو خمس سنوات ، وعقب إقرار العقار وترخيص إنتاجه وبيعه من قبل السلطات المعنية العليا في أمريكا ، أي وكالة الغذاء والدواء . F . D . A . والعقار من صنع شركة لاروش السويسرية العالمية .

وقد فوجئنا في مطلع شهر مايو ١٩٨٨ بأخبار تطعن في سلامة العقار ، وتنسب إليه آثاراً جانبية خطيرة ، فقد أكد تقرير سري لا يرقى الشك إلى نزاهته أن الاكيوتين يؤدي إلى الإصابة بعاهات وراثية مستعصية ، وأن مثل هذه العاهات ـ كتلف المخ مثلا ـ قد تصيب الأجنة إذا تناولت العقار الأمهات أثناء حملهن بتلك الأجنة ، ويؤكد التقرير الذى أعده الباحثون المتخصصون في وكالة الغذاء والدواء السالفة الذكر أن عدد المواليد الذين أصيبوا بمثل تلك العاهات نتيجة لتناول الأمهات للاكيوتين أثناء فترة الحمل قد بلغ حوالي ٩٠٠ ـ ١٣٠٠ مولود .

وجاء تعليق شركة لاروش على ذلك التقرير مؤكداً ما أورده التقرير إلى حد كبير ، فقد أقرت من حيث المبدأ ولم تخالفه إلا في الأرقام ، فالمواليد الذين أصيبوا بعاهات وراثية بسبب الاكيوتين لايزيد عددهم على الستين ، وذلك وفق الاحصاءات التي أجرتها الشركة بطرقها الخاصة .

والجدير بالذكر أن الاكيوتين واسع الانتشار ، وقد جاوز عدد الذين يستعملونه نصف مليون نسمة ، أكثرهم من النساء . □





استطلاع : محمود عبدالوهاب
تصـــوير : طـــالب الحسيني

« كان الزقاق شديد الضيق ، وفجأة انعطف إلى ميدان واسع ، يتفرع منه عدد من الأزقة . في قلب الميدان جلس رجل وضع حوله مجموعة مقاعد خشبية ، وموقداً لصنع القهوة العربية ، وحوله جلس الرجال . ألقينا السلام بالعربية ، فهب رجل عجوز واقفا واحتضنني بشدة ، وظل يربت على كتفي ، وأجلسني بجواره ، وطلب لي القهوة ، وأخذ يسألني : هل أنت من عمان ؟ قلت : لست من هناك ياشيخي . سألني : هل زرتها ؟ قلت له : نعم وعندما حاولت أن أسأله عن اسمه وصناعته وأحواله ظل يقاطعني بإلحاح صبي ، ويطلب مني شيئا واحدا ، أن أصف له عمان ، بشوارعها ، ومبانيها ، ونخيلها . وأغمض عينيه وهو يستمع إلي ، وعلى خديه سالت دمعتان ، وتمتم : ربي لا تمتني قبل أن أرى وطني . وفاضت مشاعره .

حتى قبل أن تهبط الطائرة في مطار زنجبار كان قلبي يخفق بشدة ، فلم تكن مشاعري محايدة أبدا تجاه هذه الجزيرة الرائعة الجمال الفقيرة .

زنجبار مملكة العرب القديمة ومفتاح الشاطيء الشرقي لأفريقيا ، زنجبار حيث اللسان عربي ، والتاريخ عربي ، والتراث الحضاري عربي ، والحكم عربي حتى قبل ٢٤ عاما فقط قد مضت .

عشرون دقيقة قطعتها الطائرة من دار السلام عاصمة تنزانيا لتصل بنا إلى زنجبار ، وعلى الرغم من أننا قد حصلنا على تأشيرة دخول لدولة تنزانيا في مطار دار السلام الدولي ، واجتزنا إجراءات الحجر الصحي ، إلا أننا فوجئنا عند وصولنا زنجبار بأننا نعيد إجراءات الدخول والحجر الصحي مرة ثانية ، وكأننا ننتقل من بلد إلى بلد ، ولسنا داخل دولة واحدة .

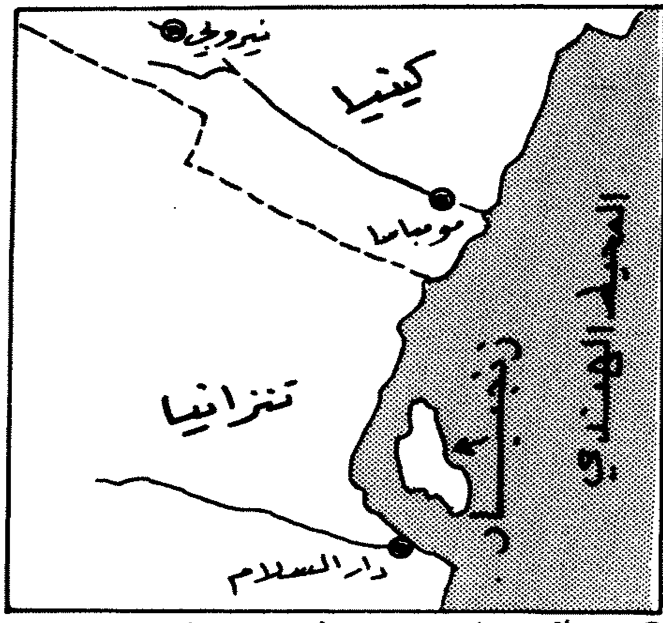
فور خروجنا من المطار واجهتنا لوحة مكتوب عليها (مرحبا بكم في زنجبار) بالعربية والانجليزية والسواحلية . وبين التاريخ القديم وإجراءات الدخول التي تكررت والأسطر العربية تتلخص الرحلة وتاريخ الجزيرة التي كانت موطنا عربيا ثم ضاعت .

بـــر الزنج

تقع جزيرة زنجبار سياسيا ضمن إطار دولة تنزانيا ، أما جغرافيا فهي تقع على الساحل الشرقي لأفريقيا ، وتبلغ مساحتها حوالي ١٦٠٠ كم مربع ، وعدد سكانها حوالي ٣٠٠ ألف نسمة .

وزنجبار في اللغة كلمة عربية محرفة عن كلمة « بر الزنج » وتجمع الكتابات التاريخية والآثار أن العرب ـ وتحديدا العمانيين ـ قد بسطوا سيطرتهم على الساحل الشرقي لأفريقيا منذ القرن الأول الميلادي ، فقد امتد نشاط العرب التجاري إلى ساحل افريقيا الشرقي حتى الهند ، وأقاموا المدن الزاهرة ، وكانت الموانيء المنتشرة على طول الساحل محطات ومرافيء للسفن العربية التي تخترق المحيط في طريقها إلى الهند .

ويدلل المؤرخون على ذلك بأن عمان عندما



● خريطة زنجبار . . جزيرة في مواجهة الساحل الشرقي لأفريقيا . . الطريق الى وسط أفريقيا ، ومن هنا كانت أهميتها الجغرافية .

استعصت على بني أمية ، فوض عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي في بسط نفوذ بني أمية على عمان ، وبعد جولات طويلة أرسل الحجاج جيشا عرمرما فآثر سلطانا عمان سليمان وسعيد ابنا عبدالجلندى أن ينقذا أهلها وجيشهما. فأخذا أهلهما ومن تبعهما من قومهما إلى أرض الزنج (زنجبار) .

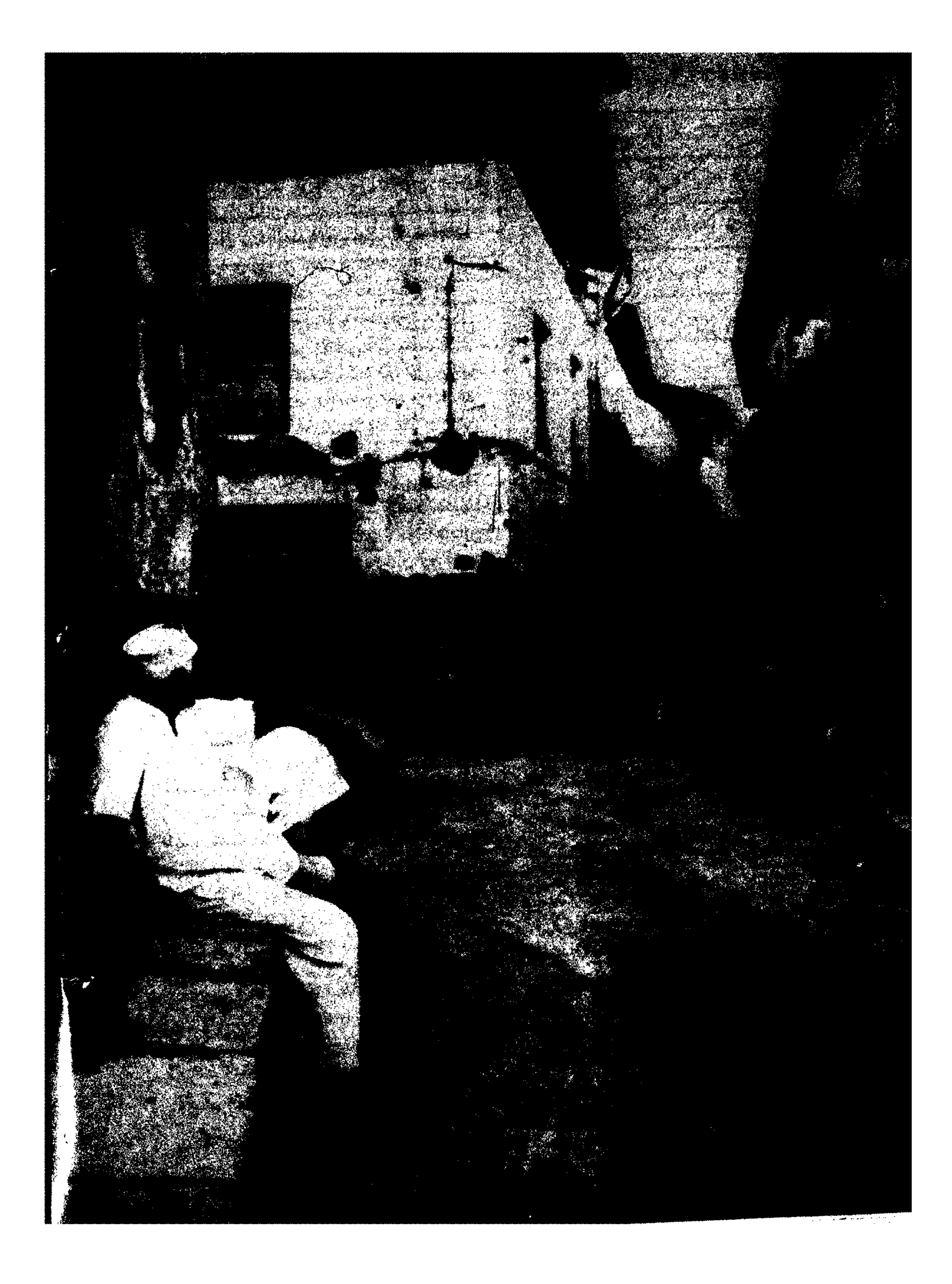
ويقول المؤرخ الدكتور عبدالمنعم عامر إنه : « يستحيل منطقا أن يخرج سلطانا عمان من بلدهما إلى بلد لا يعرفان به ، ولكن المنطقي أنهما ينتقلان إلى أرض بها وجود عماني كثيف يأمنان فيها على حياتهما ودينهما ، وإذا كانت هذه الواقعة في القرن السابع الميلادي فمعنى ذلك أن هناك تاريخا يمتد إلى زمن لايقل عن ثلاثمائة ، وقد يبلغ خمسمائة عام إذا استندنا إلى الآثار الموجودة » . وقد خضعت زنجبار تاريخياًلسلطنة حكام عمان ، سواء عندما حكمها اليعاربة أو آل بوسعيد . وكان سلطان عمان يمتد إلى ممباسا وماليندي ومقديشيو وأسمرة ومدن كثيرة حتى وسط افريقيا . وقد ظلت سيطرة العمانيين على زنجبار وساحل شرق أفريقياقرابة ألف عام ، وكانت ممالك شرق افريقيا كثيرة الثراء والازدهار . ويقدر « وندل فيليب » استنادا إلى وثائق أوربية أن إنتاج الذهب الذي كان يقدمه ساحل شرق افريقيا قارب نصف مليون جنيه استرليني سنويا في وقت ما من زمن الوجود العماني ، بالاضافة إلى عائدات بيع المحصولات الرئيسية كجوز الطيب وجوز الهند والقرنفل والقصب ، وبجانب هذين المصدرين المهمين كانت هناك تجارة الرقيق .

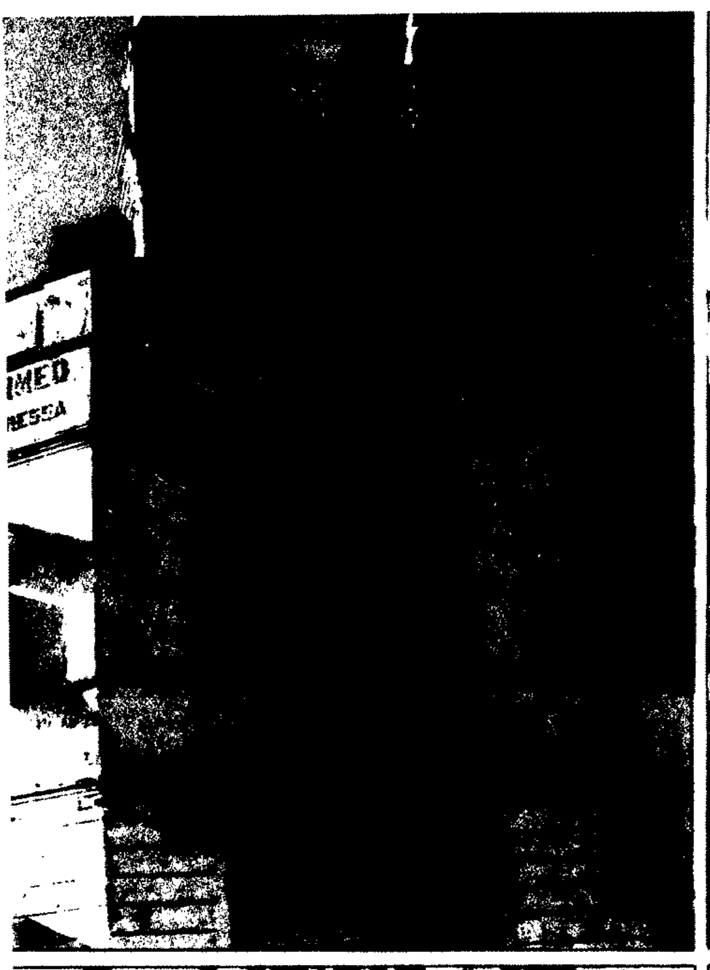
ولم تنقطع السيطرة العمانية على زنجبار وشرق أفريقيا إلا فترات قصيرة عانت فيها مناطق النفوذ العماني من رحلات الاستكشاف البرتغالية ثم من الاستعمار البرتغالي ، إلى أن طرد الامام سلطان بن سيف البرتغاليين من عمان ثم بعد ذلك من ساحل شرق افريقيا .

لؤلؤة المملكة

كان النظام المستقر أن زنجبار وساحل افريقيا الشرقي تابعان لسلطان عمان الذي كان يحكم من عمان ، ويفوض ولاة على زنجبار وبقية ممالك الساحل مقابل ضريبة سنوية . وفي عام ١٨٢٨ ميلادية قام السلطان سعيد بن سلطان بزيارة إلى جزيرة زنجبار ، وعندما وصل إليها استهواه جمالها وطيب مناخها مقارنة بهجير عمان ، فجعل من الجزيرة مقره الرسمي وعاصمة لمملكة يحكم منها عمان وساحل افريقيا ، وأصبحت زنجبار منذ ذلك التاريخ عاصمة لمملكة عمان . وسرعان ما تعاظمت وتكثفت هجرات العمانيين إلى الجزيرة ملتحقين بسلطانهم . وإلى السلطان سعيد يعود الفضل لأنه أول من زرع شجر القرنفل في الجزيرة على الرغم من معارضة الأهالي ، لتصبح زنجبار اليوم أكبر مصدر للقرنفل في العالم كله .

وقد ازدهرت زنجبار منذ ذلك الحين ، فمهدت الطرق ، وأقيمت القصور والمنازل والدور والمساجد ، وأصبحت نقطة التقاء أشراف الساحل الشرقي الافريقي والعمانيين ، فالكل يذهب إلى عاصمة المملكة ومقر السلطان ولؤلؤة الممالك ، وتضاءلت بجانبها المدن الأخرى الزاهرة مثل ممباسا وماليندي وكلوه . وهذا ما كان .











● السلوك الاجتماعي تعبير عن الثقافة السائدة .. وفي زنجبار .. في الشوارع الضيقة والأزقة يخرج الناس وقت الأصيل للجلوس أمام البيوت أو في الساحات المتسعة .. وتبدأ جلسات السمر والثرثرة [illegible] .. جلسات [illegible]

الشوارع الحانية

الطريق من المطار إلى قلب المدينة رائع الجمال ، أشجار جوز الهند السامقة الرفيعة على الجانبين ، وخلفها تختبيء أشجار القرنفل بزهورها الحمراء . سائق السيارة يرتدي الإزار العماني ، والطاقية العمانية . اقلنا إلى فندق « بواني » ، وكلمة بواني لفظة افريقية لكلمة عماني . عاملة الاستقبال تتصف بالبشاشة . عندما نظرت في جوازات سفرنا تهلل وجهها : عرب ومسلمون ؟ قلنا : نعم . وحاولت أن أحدثها بالعربية ، فلم تعرف إلا كلمة « سلام عليكم » . قالت بأن اسمها « رحمة » ، وهي لا تعرف إن كان أهلها عربا خالصين أم خليطا من العرب والأفارقة . انطلقنا إلى شوارع المدينة ، المدينة مصممة على نهج المدن العربية القديمة ، شوارع رئيسية بينها مناطق سكنية ، أي أن هناك شارعا رئيسيا عاما يوازيه شارع آخر ، وبين الشارعين كتلة من العمارة ، وعندما تدخل الى أي كتلةمن هذه الكتل تفاجأ بالحي العربي القديم يختفي خلف الشارع الرئيسي . أزقة شديدة الضيق ، والبيوت متلاصقة ، وطراز العمارة عربي إسلامي ، به بعض اللمسات الهندسية التي اكتسبها العرب من الهند . فوق واجهات البيوت القديمة عبارات باللغة العربية ، تراكم عليها الغبار ، أجهدنا عيوننا لنقرأ عبارات منها مثل لا إله إلا الله ، بني هذا البيت العامر في سنة كذا ، وتواريخ هجرية (افرنكية) . أمام نواصي الأزقة يتجمع السكان في ساعة الأصيل على مقاعد خشبية ومنضدة صغيرة عليها موقد لصنع القهوة ، وفي الشرفات تجلس النساء اللواتي يتوارين عند رؤية غريب عن الحي أو عندما يلمع ضوء آلة التصوير .

بين الناس جلسنا ، وسمعنا ، وتعذبنا بهذا العشق والحنين إلى الوطن والذكريات .

عذابات العشق

لغة الناس السائدة هي اللغة السواحلية ، وهي مزيج من لغات افريقية قديمة واللغة العربية . ويقدر بعض علماء اللغة أن ٧٠٪ من اللغة السواحلية من أصل عربي .

والألفاظ العربية التي نفهمها من اللغة كثيرة ، مثل حكومة ، ووزارة ، « وسانتي سانيا » ، وهي نطق محرف لجملة « أحسنت صنيعا » ، وهكذا ، وعلى الرغم من ذلك فمازالت اللغة العربية موجودة والناس تتحدث بها ، وهم ينطقونها بالفصحى ، ولكنهم لطول عهدهم بها يبذلون جهدا ومشقة في الحديث .

الشيخ سليمان بن سعيد يقول : أعمل تاجرا للقماش ، وأعرف أن أصولي كلها عربية ، وأجدادي من عمان ، ومازلت أحافظ على سلامة سلالتي ، ففي عائلتنا لا يتم الزواج إلا من أصول عربية ، وقد ظل هذا التقليد موجودا عندما كان لدينا حلم بالعودة ، وعندما كان إحساسنا بأننا عرب ، ولكن الأجيال الجديدة في العائلة لم تحافظ على هذا التقليد ، اني أحلم بأن أزور عمان يوما ، وأحصي شجر النخيل فيها ، وأشم ترابها ، وأزور رستاق ونزوى ومسقط ، وأنشر في الصحف السيارة شجرة العائلة لأجتمع بعائلتي وأحفادها ، ويكمل الله فضله فيتوفاني هناك ، وأغمض عيني وأتوسد ذلك التراب الحبيب .

الحاج جمعة سالم المغيري : أنا عماني بكل جذوري ، وكل عائلتي مازالت هناك ، ولي أخ في عمان طبيب ، يعمل مستشارا بوزارة الصحة في عمان ، وهو الدكتور محمد سالم المغيري ، وأخ ثان هو وزير للتجارة والصناعة في حكومة زنجبار ، وقد عملت فترة طويلة قاضيا في زنجبار ، وتدرجت في سلك القضاء حتى أصبحت كبيرا للقضاة ، حتى ساعة إحالتي إلى التقاعد ، وقد زرت عمان مرة واحدة ، ومازال حنيني إليها لايقاوم ، يعذبني ولكن المشكلة أن لي هنا عائلة وأهلا ، وعمرا وذكريات وعملا ، عمرا بأكمله ، فالشوارع هذه قد شهدت صباي ، وهذه المقاهي تعرفني ، والمساجد هنا تشهد أرضها على سجودي وقيامي ، بل حتى أشجار القرنفل وجوز الهند ، سبعون عاما ياولدي قد

قضيتها هنا ، وهناك لي أخ وجذور ، ولا أعرف أي الخيطين أقوى ، وأي القلبين أكثر خفقاناً .

الحاجة فاطمة تجلس على باب بيتها ، وتغطي رأسها ، وترتدي نظارة طبية ، وتفتح مصحفا وتقرأ فيه . قالت بجهد وهي تتكلم : يا ولدي لم يبق إلا كتاب الله والصلاة ، بعد ثمانين عاما عشتها وأنا عربية ، أما الآن فلا شيء يمنحني إحساسا بهذا إلا القرآن . وانصرفت عنا .

يوم عمل في الجزيرة

تنتشر القرى الصغيرة ، وهي تجمعات مكانية حول مزارع مكثفة على طول الجزيرة ، والتجمع المدني الرئيسي في قلب الجزيرة على المحيط هو بمثابة ما نسميه ـ نحن بالعاصمة ـ ، ونشاط السكان الرئيسي هو الزراعة والصيد ، وفي قلب العاصمة يتركز النشاط التجاري . يبدأ يوم العمل في الصباح الباكر ، فتمتلىء الشوارع بالناس الذين يخرجون من فجاج الأزقة التي تصب في الشوارع الرئيسية .

ويتصدر الحي التجاري مبنى قديم للسوق نصف مهدم ، تباع فيه الخضراوات واللحم والسمك ويطل المبنى على شارع رئيسي يؤدي من جهة منه إلى طريق المطار ، ومن جهة أخرى إلى القلعة القديمة والميناء المشرف على المحيط ، وخلف مبنى السوق تنتشر مجموعة من الأزقة المتداخلة التي يربط بينها عدد من الميادين ، كل مجموعة من الأزقة ـ أربعة أو ستة أو ثمانية ـ تصب في ميدان ومنه إلى زقاق أوسع قليلا ثم يصب هذا في ميدان آخر يتفرع منه عدد من الأزقة ، وهكذا تتوالى الطرق والأزقة ، وخلف مبنى السوق مجموعة أزقة بالحي التجاري ، فيه عدد من المحلات للعطارة والأقمشة وزينة النساء والأدوات الكهربائية (مذياع ـ مسجل ـ ساعة) ، وتتوالى المحلات التي تعرض معروضاتها على الواجهة وفوق الرصيف ، والأزقة شديدة الزحام بالمارة وعربات اليد الخشبية التي تنتقل عليها البضائع .

تفتح الدكاكين أبوابها من السابعة صباحاً حتى الظهيرة ، حيث يذهب أصحابها إلى صلاة الظهر والغداء ثم القيلولة ثم تفتح مرة ثانية في الساعة الثالثة حتى صلاة المغرب في السادسة .

بعد السادسة يبدأ الناس في الخروج من بيوتهم لتبادل الزيارات العائلية أو النزهة ، ويصحبون أبناءهم وينطلقون إلى الساحل وعلى الحشائش الحديثة الممتدة يجلسون ، وخلفهم مبنى القلعة القديمة التي بناها البرتغاليون عندما احتلوا الجزيرة . وخلف مبنى القلعة تطل مداخل الجزيرة المعمارية ، أقواس وبوابات حجرية تختبىء خلفها الجزيرة .

في الحديقة يفترش الرجال والنساء الأرض ، وينطلق الأطفال يلعبون حولهم ، وفي الممرات يحتشد باعة القصب والمانجو ، وشرائح جوز الهند المقلية بالزيت ، والذرة المشوية والسلطعون والسمك المشوي ، وباعة الحلوى المحلية الأقرب إلى الحلويات العمانية الشهيرة .

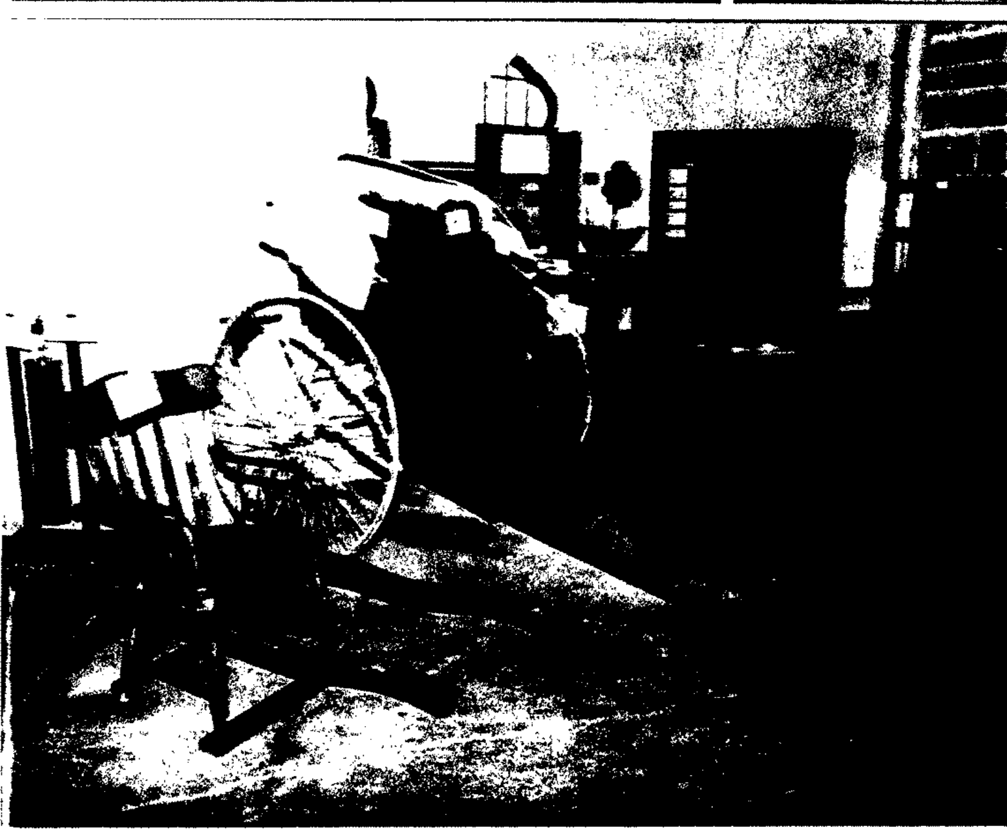
الطريق إلى القرى الصغيرة المحيطة بالعاصمة نزهة رائعة ، شريط ضيق من القار يخترق غابات كثيفة من أشجار جوز الهند « النارجيل » والقرنفل ، ويعبق الطريق بروائح زهر القرنفل ، والزهور البرية . الرجال حول المزارع يعتنون بالشجر ، أو يقطعون ألياف شجر « النارجيل » ليستخرجوا الزيت من ثمرته ، أو يطهرون الأرض من الأعشاب التي تنمو تلقائيا حول الشجر . عند المغيب يعود الفلاحون إلى بيوتهم حيث يتناولون وجبتهم الرئيسية الساخنة ، ثم يتجمعون أمام البيوت والأكواخ في أحاديث السمر . في المدينة عند التاسعة يبدأ الناس في الحركة باتجاه منازلهم ، وفي العاشرة مساء تخلو الطرق من الناس ، ويعم الهدوء الجزيرة الساحرة

داخل البيت

لم نستطع التهرب من الحاحهم بدعوتنا لتناول بعض الأشربة في بيوتهم . كانت فرحة البسطاء من الناس وبخاصة كبار السن أقوى من أن نردها أو أن نخذلها ، ذهبنا مع الحاج سليمان بن سعيد إلى بيته ، البيت قديم ، عمره يجاوز مائتي عام . يفتح الباب الرئيسي عن باحة بها دورة مياه وغرفة ، ثم سلم في







● مظاهر مختلفة للحياة ، الصورة اليمنى العليا لامرأة في قرية تدق أمام الكوخ اعواد الملوخية ، وبجوارها أمام السوق الرئيسي الثمار التقليدية قصب السكر ، النارجيل وعملية تنزيل يشارك فيها عدد من المواطنين أكبر مما تستحق العملية ، والى اليسار لقطة من داخل المتحف تصور تطور وسيلة نقل حكام الجزيرة .. كان مقعداً يحمله العبيد ، ثم مقعداً تسحبه الخيل !







● رغم سنين عمرها التى تجاوزت السبعين تجلس هذه السيدة العجوز تقرأ القرآن الكريم باللغة العربية الصورة اليمنى العليا ، وبجوارها لقطة لصانع القهوة العربية ، ثم صورة لاحدى الألعاب الشعبية التى تنتشر أيضاً فى وطننا العربى ، وأخيراً الصورة اليمنى القبو الذى كان يحجز به العبيد تمهيداً لبيعهم .



مواجهة الباب يصعد إلى الدور العلوي ، وقبل انتهاء الانحناءة قبل الأخيرة جذب الرجل حبلا مربوطا بيد خشبية معلقة على باب الشقة العلوي ، فدقت اليد الخشبية على الباب . قال لنا الشيخ جمعة : إن هذه طريقة لكي يدرك أهل البيت أن معه ضيوفا .

دخلنا البيت ، وجلسنا في غرفةالاستقبال . وعندما أعدت كريمته الشراب وقفت خلف الباب وصفقت بيدها ، فخرج الشيخ ليأخذه منها .

حكى لنا الشيخ سليمان عن طقوس الزواج فقال : عندما يستقر رأي الشاب على فتاة بعينها ، يشاور أهله ، وعندما يوافقون ـ والآن أصبحت موافقة الأهل شكلية ـ يذهب أهل العريس إلى أهل العروس للخطبة وقد جرت العادة أن ستمهل أهل الفتاة الخاطبين فترة حتى يردوا عليهم ، وبعد رد الأهل يتم الاتفاق على « الشبكة » والمهر ، ويحدد موعد للاحتفال ، وعند دعوة الناس يسير والد الشاب مع ابنه يطوفان بالتجمعات والأهل ، وبعد أن يلقي والد الشاب التحية يقول لهم : هذا ولدي فلان ، وقد خطبنا له كريمة فلان ، وقد دفعت له مهرا مقداره كذا ، والحفل يوم كذا ، ويسعدنا حضوركم . ونفس التقليد يقوم به والد الفتاة الذي يصطحب معه العريس وشقيق العروس الأكبر ويطوف معهما بتجمعات أصدقائه وأهله وأقاربه ، ويزيد على مقولة والد العريس قوله : إنه منذ هذا اليوم قد صار العريس أخا لابني (شقيق العروس) . وعلى الرغم من خروج المرأة للعمل وإلى السوق إلا أنها مازالت تحتفظ بحيائها ، فلا تتحدث في الطريق مع أحد ، وإذا مرت على تجمع من الرجال لزمت السير بجوار الحائط ، ووجهت بصرها إلى الأرض . وعندما كانت بعض النساء يلمحن زميلي المصور وهو يحاول تصويرهن عن بعد كن يبادرن إلى إخفاء وجوههن والانصراف من المكان ، وظللنا نحسب أن تصوير النساء مشكلة حتى وقعت لنا المشكلة الكبرى .

معتقلان في مركز الشرطة

كنا في طريق عودتنا من خارج المدينة ، واستهوى زميلي المصور منظر أشجار جوز الهند السامقة وبينها مسافات تكاد تكون محسوبة ، ومن خلال هذه المسافات يبدو خط الأفق صافيا جميلا . استوقفنا السيارة ، وهبط زميلي يلتقط صورته ، وجلست أسجل ملاحظات عن المكان والصورة وتاريخها . وفجأة وقفت سيارة « جيب » عسكرية ، قفز منها ثلاثة جنود من الشرطة العسكرية وأحاطوا بنا ، وزميلي واقف وبيده آلة التصوير وأنا جالس على تلة مرتفعة أدون ملاحظات . هبط من السيارة عقيد بزيه الرسمي وأخبرنا بأننا قيد الاعتقال لأننا نصور موقعا عسكريا !! .

أمضينا ساعات طويلة في قسم الشرطة بين تحقيقات ، وطبع للفيلم ، وأسئلة . وفي النهاية اقتنع قائد القسم ـ لأننا فقط مسلمون عرب ـ لا يمكن أن نكون جواسيس فأطلقونا .

كيف ضاعت

حتى صباح يوم السبت ١١ يناير عام ١٩٦٤ ، كانت زنجبار جزيرة عربية مستقلة ، يحكمها السلطان جمشيد بن عبدالله بوسعيد ، أحد أحفاد السلطان سعيد بن سلطان ، وفي مساء السبت عاد الناس إلى بيوتهم ، والهدوء يلف الجزيرة ، ومرت الساعات الأولى من الليل رطبة شتائية ، وبعد منتصف الليل شق هدوء الجزيرة صوت رصاص ، ولم يستمر كثيرا ، وقد ظن الذين لم يكونوا قد استسلموا للنوم أن جنديا طائشا أطلق بعض طلقات من بندقيته . وكلما مضى من الليل وقت ازداد الجو رطوبة وبرودة وثقلا ، وما هي إلا ساعة بعد انتصاف الليل حتى اجتاحت الأحياء والدور فرق من الجنود ، فنهبوا البيوت ، وشرعوا في قتل السكان واستباحوا النساء ، وسقط ما يزيد على عشرين ألف قتيل ، وفي رواية أخرى قد بلغ عدد القتلى خمسين ألفا . وما أن أصبح الصباح ، صباح يوم الأحد ١٢ يناير ١٩٦٤ ، إلا وزنجبار ، بر الزنج ، لؤلؤة الممالك ، مقر

سلطنة الحكام العرب ، لم تعد زنجبار العربية !

فقد كانت طلقات الرصاص عملية اجتياح لمراكز الشرطة واستيلاء عليها من قبل الجنود ذوي الأصول الافريقية ، وعملية حصار لمقر الحكم . انقلاب دموي كامل تم معظمه بالسلاح الأبيض ، في أكثر الانقلابات وحشية في قرننا العشرين ! .

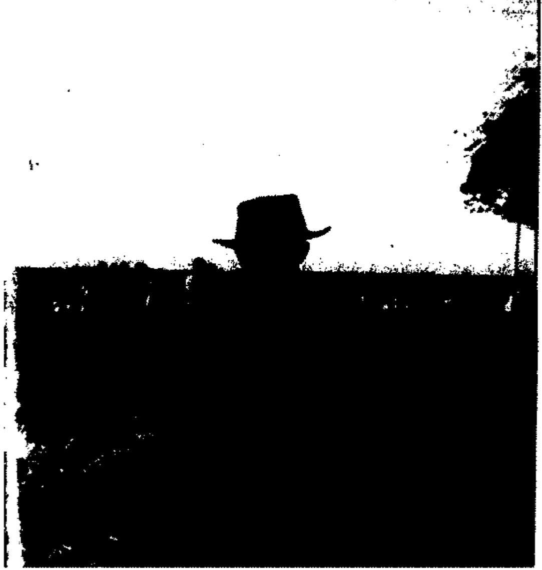
ولا تكفي وقائع الانقلاب لتقدم لنا إجابة عن أسباب ضياع زنجبار ، والتساؤل عن الأسباب سوف يدفعنا إلى الابحار قليلا في بحار السياسة والتاريخ .

كان استقرار السلطان سعيد بن سلطان في زنجبار متوافقا مع بدء إحساس الغرب بأهمية موقع زنجبار الاستراتيجي ، في ظل قواعده البحرية التقليدية ، من حيث كونها موقع مواجهة مع ساحل افريقيا الشرقي القريب من الهند ومن ساحل الخليج العربي . وكانت الكشوف الجغرافية من قبل ولفنجستون وستانلي وغيرها في افريقيا سببا كافيا لكي يلتهب خيال أوربا بالطمع في افريقيا بعامة وزنجبار بوجه خاص . يذكر لنا التاريخ المكتوب أن هناك صراعا بريطانيا المانيا دار حول زنجبار وانتهى بتوقيع اتفاقية تحديد مناطق نفوذ ، وأن هناك صراعا ايطاليا فرنسيا بريطانيا أمريكيا ، إلا أن امريكا كانت أسبق الجميع حين وقعت معاهدة صداقة مع زنجبار عام ١٨٢٣ ، وحظيت امريكا بموجبها على امتياز الدولة الأحق بالرعاية . وفي عام ١٨٣٩ وقعت بريطانيا معاهدة مع زنجبار ، اشترطت فيها على السلطان تحريم الرقيق ، وتعهد السلطان بتحريم هذه التجارة في كل ممتلكاته ، وتعيين وكيل بريطاني لممتلكات السلطان للالتزام بالتحريم ، كما أعطت المعاهدة للسفن البريطانية الحق في تفتيش السفن ومصادرة أي سفن تمارس هذه التجارة . وتحت هذا الستار وبمعاونة مكتب شركة الهند الشرقية بدأت الأصابع البريطانية تتدخل في المنطقة لضمان سيطرتها عليها ، خاصة أن البريطانيين لم يكونوا في ذلك الوقت يملكون إلا طريق الحيلة ، فثراء السلطان سعيد كان بلا حدود ، وفي قصره كان يعيش ألف شخص للخدمة ، ودخله من تجارة العبيد وحدها كان قرابة ٨٠ ألف جنيه استرليني في العام بأسعار ذلك الزمان .

ومن حيث القوة العسكرية كان السلطان سعيد يملك أسطولا بحريا قويا ، يتكون من خمسة وسبعين سفينة في كل سفينة ٥٦ مدفعا ، وكما يقول وندل فيليب في كتابه تاريخ عمان عندما يتحدث عن تلك الفترة من خلال الوثائق البريطانية ان السلطان سعيد كان يستطيع أن يحقق لنفسه التفوق البحري في المحيط ، فهو صاحب أقوى أسطول موجود في المنطقة الواقعة بين رأس الرجاء الصالح حتى اليابان ، والثابت تاريخيا أيضا أنه أهدى فرقاطة بحرية مسلحة إلى ملك بريطانيا ، وفرقاطة أخرى إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية .

صراع الاخوة

بعد وفاة السلطان سعيد بن سلطان في ١٩ اكتوبر ١٨٥٦ م ، ثار الشقاق بين اثنين من أشقائه كاد أن يؤدي الى حرب أهلية دامية ، وكالعادة استعان أحد الاخوين بالبريطانيين ، فشكل البريطانيون لجنة تحكيم يرأسها اللورد « كانتج » المندوب السامي في الهند ، فقسم الامبراطورية إلى جزأين أساسيين ، هما عمان وقد جعلها من نصيب السلطان ثويني بن سعيد ، وزنجبار وجعلها من نصيب السلطان ماجد . ومنذ ذلك التاريخ انفصلت زنجبار عن عمان . وداخل زنجبار ثار خلاف وشقاق ، فقد حاول شقيق ماجد أن يغتاله في مؤامرة شاركه فيها بعض أفراد العائلة ، فاستعان السلطان ماجد بالبريطانيين ، فتولوا حمايته بالقوة المسلحة . وحكم على برغش شقيق السلطان بالنفي إلى الهند . واستمر الموقف بنزاعات وشقاقات ، وانتهز البريطانيون الفرصة ليبسطوا أيديهم أكثر على الجزيرة ، حتى جاء مؤتمر بروكسل ، وفيه قسمت افريقيا بين القوى المتصارعة ، وكان من ضمن ما قسم زنجبار . وفي نوفمبر ١٨٨٦ م قسمت الجزيرة بين بريطانيا وفرنسا والمانيا .

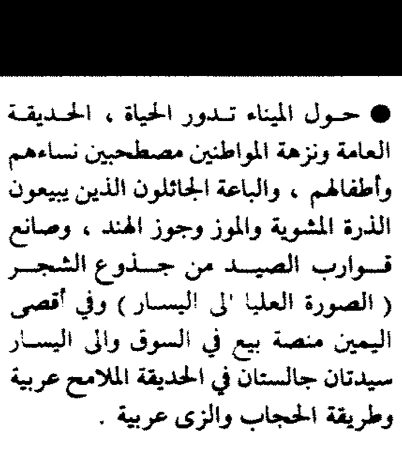




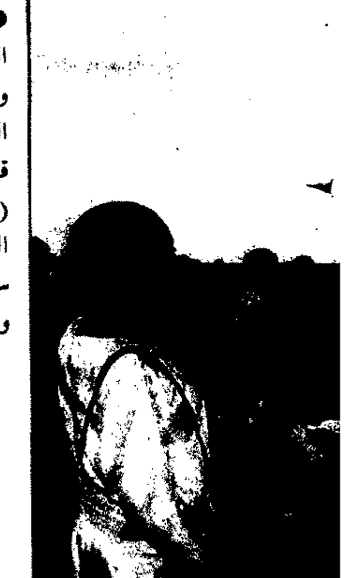


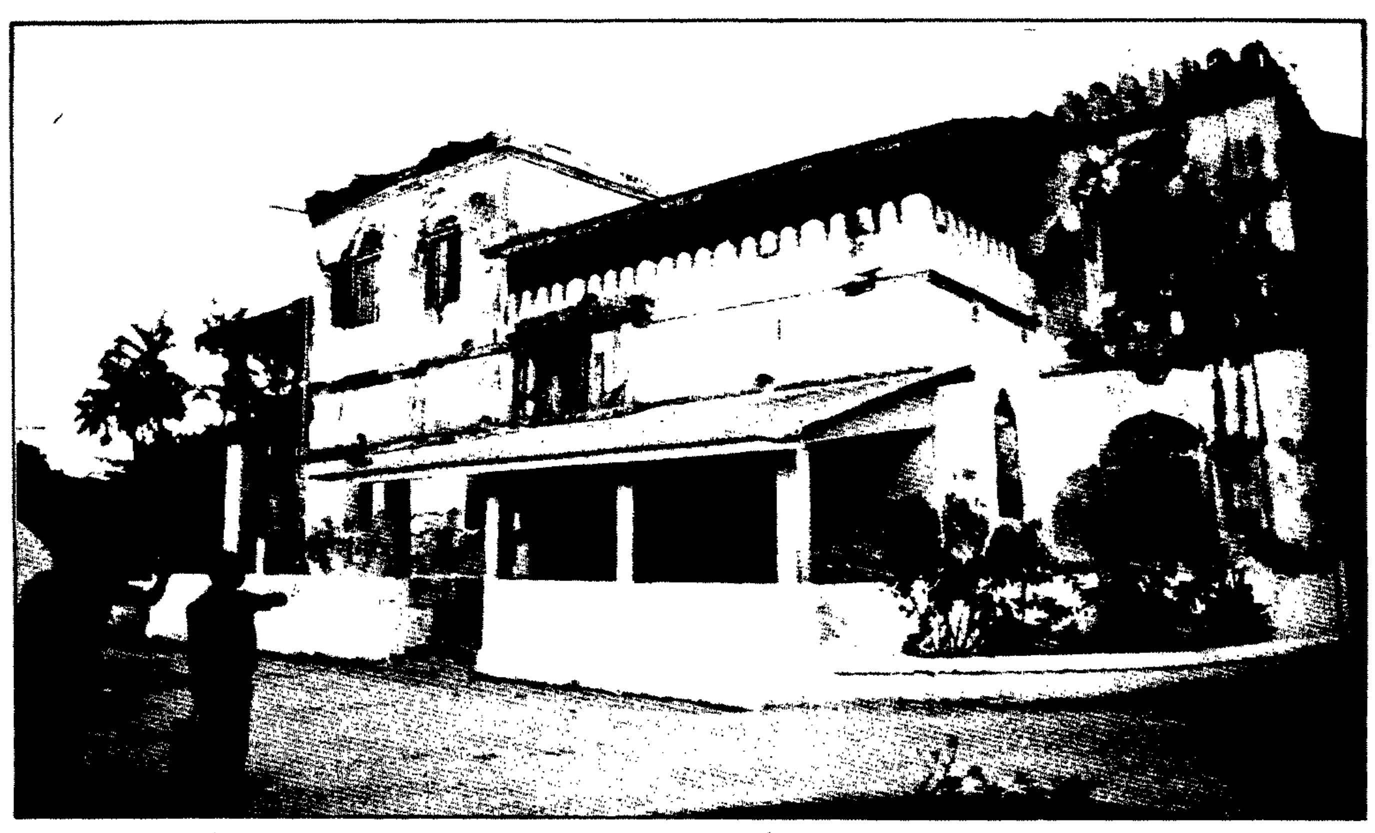






● حول الميناء تدور الحياة ، الحديقة العامة ونزهة المواطنين مصطحبين نساءهم وأطفالهم ، والباعة الجائلون الذين يبيعون الذرة المشوية والموز وجوز الهند ، وصانع قوارب الصيد من جذوع الشجر (الصورة العليا الى اليسار) وفي أقصى اليمين منصة بيع في السوق والى اليسار سيدتان جالستان في الحديقة الملامح عربية وطريقة الحجاب والزى عربية .





● في هذا البيت كان يحجز العبيد تمهيداً لنقلهم عبر السفن وقد إشترته بعثات التبشير المسحية لتحتفظ به شاهداً على هذه المرحلة .

وتعاظم الصراع بعد ذلك ، وتوالى بشكل سريع ، وتعاقب على حكم زنجبار ولاة لم يدم حكم بعضهم عامين ، وعرفت الجزيرة الانقلابات والحروب ، وفرض البريطانيون سلطتهم على الجزيرة ، حتى أنهم عزلوا حاكما من حكامها بالقوة المسلحة لينصبوا آخر ، وهكذا .

وخلال ذلك نشطت الجمعيات التبشيرية ، وشجعت بريطانيا توافد الأفارقة من الساحل الافريقي إلى الجزيرة ، وتدريجيا بدأ البريطانيون في تكوين قوى سياسية وطنية لهم داخل الجزيرة ، وفي نفس الوقت عملوا على إذكاء حدة التفرقة بين العرب والأفارقة ، والتمييز بين ما هو عربي وما هو افريقي ، وصبر البريطانيون طويلا وزرعوا كثيرا ، وكان لابد أن يثمرَ الزرع الذي زرعوه .

الأميرة العاشقة

اسهمت زنجبار بوضعها هذا وتاريخها في إثراء الكتابات عن افريقيا بعامة ، وعن أحوال زنجبار وتاريخها بخاصة ، وأطرف ما كتب عن هذه الفترة مذكرات الأميرة سالمة بنت السلطان سعيد بن سلطان التي عاونت أخيها برغش عندما تمرد على السلطان ماجد وحاول اغتياله في الحرب التي نشبت بينهما وتدخل فيها الانجليز لصالح ماجد ، وحكموا على برغش بالنفي إلى الهند ، ففي أثناء نفي برغش تصالحت الأميرة سالمة مع أخيها ، ولما عفا السلطان عن برغش وعاد إلى زنجبار لم يغفر لسالمة تصالحها مع أخيها السلطان ، وظلت حياتها في زنجبار قلقة ، فقد كانت صغرى أبناء السلطان سعيد ، وبالتالي فهي أصغر أخواتها ، ويبدو أن وضعها هذا قد هيأها للدخول في مغامرة ، فأحبت رجلا المانيا ، وهربت معه إلى المانيا ، وعاشت هناك ، ومن البعد كتبت مذكراتها تصف أيام المجد والقصور ، والمربيات وركوب الخيل ، والثروة ، وعز المملكة الذي كان .

تقع زنجبار الآن سياسيا ضمن تنزانيا ، وقد ظهرت تنزانيا ككيان سياسي عقب استقلال تنجانيقا في ٩ ديسمبر ١٩٦١ م وخروجها من تحت الوصاية البريطانية ، بينما حصلت زنجبار على استقلالها من بريطانيا في ديسمبر ١٩٦٣ ، وخلال هذين العامين بين استقلال تنجانيقا وزنجبار كانت بريطانيا قد هيأت المسرح لما حدث بعد استقلال زنجبار بشهر ونصف فقط ، حيث جرت وقائع الانقلاب الدموي الذي خلع به سلطان زنجبار وفر إلى الخارج . وفي ٢٦ ابريل ١٩٦٤ أي بعد الانقلاب بأربعة أشهر أعلن قيام الوحدة بين تنجانيقا وزنجبار ، وأصبح اسم الدولة الجديدة تنزانيا ، واختيرت دار السلام عاصمة لها ، ونص اتفاق الوحدة ثم الدستور على أن يتولى الرئاسة جوليوس نيريري ، وأن يليه في الرئاسة حاكم زنجبار . وتشكلت حكومة محلية لزنجبار وفوضت في بعض الصلاحيات المحلية التي من خلالها حاولت الادارة في زنجبار أن تحتفظ لنفسها بهوية مستقلة نسبيا ، إلا أن التاريخ لا ينسى ، وقد ظلت الوظائف الادارية العليا والإشرافية وبخاصة في الشرطة والجيش في أيدي الافارقة ذوي الأصول غير العربية ، ولكن هذا الاتجاه بدأ يقل تدريجيابعد ضعف النعرات العرقية واستقرار الأحوال بالدولة الجديدة .

وقد انعكست آثار الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها تنزانيا كلها على زنجبار ، حيث انخفض مستوى المعيشة ، وأصبح الفقر لا تخطئه عين ، والغلاء يزداد كل يوم ، وسعر العملة ينخفض في كل عام عن العام الذي قبله . لقد زارت « العربي » « تنزانيا » في منتصف عام ١٩٨٥ ، وحينذاك كان سعر الصرف الرسمي ١٧٠٠ شلن لكل مائة دولار ، بينما كان في السوق السوداء ١٢ ألف شلن لكل مائة دولار ، وبعد ثلاثة أعوام تقريبا في زيارتنا هذه أصبح سعر الصرف ٤٧٠٠ شلن للمائة دولار تساوي في السوق السوداء عشرين ألف شلن . وعلامات الأزمة الاقتصادية في تنزانيا كثيرة ، فوفق أرقام البنك الدولي يبلغ اجمالي الدين الخارجي حتى نهاية ١٩٨٦ قرابة ٣٦٠٩ ملايين دولار ، ويبلغ متوسط دخل الفرد من الناتج القومي ٢٩٠ دولاراً سنويا ، ويبلغ معدل التضخم سنويا ١٩,٦٪ .

كان موعدا سفرنا من زنجبار الخامسة والنصف صباحا ، لنصل إلى دار السلام في السادسة ، ونغادرها في الثامنة والنصف متجهين إلى عاصمة افريقية أخرى . وذهبنا إلى المطار في الرابعة والنصف فجرا ، وفوجئنا أن الطائرة لم تأت من دار السلام ، وعلينا الانتظار حتى طائرة الساعة العاشرة والنصف ، وملأنا المطار صراخا ، ولم يستمع إلينا أحد . في العاشرة والنصف لم تأت الطائرة أيضا ، وقالوا لنا : عودوا في الثالثة والثلث . لكن الطائرة لم تأت أيضا . وعندما سألنا موظفا توسمنا فيه الاجابة قال لنا : إن الطائرة عندما لا تمتلىء بالركاب من دار السلام فإنها لا تطير . ولم نغادر زنجبار إلا في السادسة والنصف مساء ، لنصل دار السلام في السابعة ، ونقطع بعد ذلك ١٤ ساعة بالسيارة في طريق يخترق مواطن القبائل ، والليل الافريقي يحيط بنا ، لكي نصل إلى الحدود ونجتازها برا ، لنلحق بطائرتنا التي ضاعت علينا بسبب الطيران الفريد .

حدود الزمان والمكان

كانت السيارة تنهب بنا الطرق ، والليل يجثم على المكان ، وزميلي المصور يرفض أن يستريح ويتركني متيقظا وحيدا مع سائق لا نعرفه ، في بلد فقير ، وخيالي كان يتجاوز المكان الذي نحن فيه ، ويتجاوز حدود الزمان ، ويعود إلى البلاد التي تركناها ، كما تركنا قبل ذلك بلادا كثيرة ، لا نذكر منها إلا الأندلس ، على الرغم من أن التاريخ العربي يمتلىء بأندلسيات كثيرة .

ويلح على وجداني دفء قلوب الشيوخ العجائز ، وأتذكر دموع عيونهم وهم يذوبون شوقا وحنانا إلى كل ما هو عربي ، ويسألونني عن بلاد العرب ، وعن طرقاتها ، وشوارعها ، ومبانيها ، وعدد نخيلها ، وزهورها البرية ، وصحراواتها ، وتفيض مشاعري والسيارة تنهب بنا الطريق ويلفنا الليل الافريقي . □

قصة مترجمة



الاحتفال القديم

بقلم : دانييل بولانجي

ترجمة : الدكتور محمد برادة

يعد دانييل بولانجي **Daniel Boulanger** المولود سنة ١٩٢٢ م بمثابة عميد للقصة القصيرة في فرنسا . نشر عدة مجاميع قصصية . ونال حوائز كثيرة . أهمها جائزة القصة سنة ١٩٦٣ عن مجموعته « أعراس الشحرور » . وجائزة سانت سوف سنة ١٩٦٦ عن « طريق الدوران » . وإلى جانب كتاباته القصصية نشر بولانجي روايات ودواوين شعر . وكتب عدة « سيناريوهات » .

تمتاز قصص بولانجي بتنوع الفضاءات . ودقة الملاحظة . وتوظيف اليومي المألوف في نسج بنيات قصصية مشوقة .

في هذه القصة « الاحتفال القديم » التي ترجمناها من مجموعته :

« حديقة أرميد » (١٩٦٩) ينطلق الكاتب من مشهد معتاد . فيولد حدثا طريفا يعلو على الواقعي المحدود . فالطفل في المقبرة يكتشف بحسه وذكائه عالم الموت وتصرفات الكبار في اللحظات المأتمية . إنه لايكتفي بما خططته الأم من وراء مرافقتها له إلى المقبرة بدلا من الحديقة . لأن غريزة اللعب والطفولة تتمرد على تخطيطات الكبار العقلانية . واللعب عنده هو أصل كل شيء . حتى عندما يتعلق الأمر بالموت . لكن وراء الحدث المكون لبنية القصة هناك اللمسة العمقية التي يجعلنا الكاتب من خلالها نطل على نفسية الأم وعلاقتها بزوجها . وهكذا تمتزج الروح اللعبية بالبعد الانساني من خلال صنعة قصصية ناضجة . يمكن أن نعدها بحق امتدادا للحس المرهف الذي تميزت به قصص جي دو موباسان .

أمهات شابات كثيرات يهملن حديقة لوكسمبورغ الموجودة على بعد خمس دقائق من بيوتهن . ويؤثرن مقبرة مونبارناس ذات الاطار الطبيعي الأقل ضجيجا الواقعة على نفس البعد . ولولا ذريتهن لما خرجن قط من السرير ، هن الرخوات ، ولاستسلمن للراحة إلى الأبد . فالمقبرة هي عنصر حيويتهن ، وبفضلهن تعرف الممرات المأتمية الضحكة الطرية والقفزات المرحة . وقصور الرمال وأغاني اللعب والحلقات .

ألا يكون في ذلك حكمة لا واعية ؟ أليس درسا ثمينا أن نلقى طفلا يتعلم القراءة وهو يتهجى أسماء الراحلين منقوشة على شاهدة قبر . فيحس بالفرح أحيانا عندما يكتشف اسمه منقوشا ويهرع إلى أمه ليعلن لها عن اكتشافه ؟



كانت الأم تنادي دون جدوى ، صغيرها الواقف وسط الممر حاملا لعبة في مثل حجمه مسحورا بالموكب البطيء المتحرك وراء سيارة تسير ببطء وتبدو متعبة على وشك التوقف عند كل دورة تتمها عجلاتها . اضطرت الأم إلى أن تتحرك لتمسك يد ميخائيل وتعود به إلى الكرسي حيث الزرد الذي تنسجه قد انسلت منه ـ في غمرة عجلتها ـ الابرة الطويلة .

ـ لماذا عددهم أكثر من أمس ؟

ـ لأنه ميت مشهور .

ـ هل بقدر ما يكون الإنسان معروفا يكون الورد كثيرا ؟

ـ لكل الموتى ورد يا عزيزي ، وليست الكمية هي ما يهم .

ـ وأنا متى سأموت ؟

ـ أنت لم تزل في سنتك الخامسة ، ولك كل الوقت لتفكر في ذلك .

لكن سرت رعشة في جسد الام وهي تتلفظ جملتها الأخيرة ، فمنذ فترة أخذ الصغير يزعجها بأسئلة لم يسبق لأحد أن أجاب عنها بما يرضي . كانت تلاحظ مواربة طفلها الذي توقف فجأة عن اللعب وظهر أنه مستسلم التفكير . وعندما كانت تنظر إليه والعينين في العينين ، لم تكن تجد سوى حدقة واسعة ، والصورة مدهشة ، ثابته كئيبة . كانت تقول في نفسها ربما يجب تغيير الحديث ، ولكن غدا سيكون آخر يوم في عطلة الربيع ، وبعد غد سيعود ميخائيل إلى دار الحضانة ، وستفكر في أيام الخميس المقبلة . كانت قد وقفت عند مرور الموكب ، وكان ميخائيل قد اختلط ـ دون أن تنتبه أمه ـ بالقامات الطويلة المسربلة بالسواد التي تخطو محنية الرأس . نادته ، لعله انتقل كالمعتاد إلى الآثار والكنائس الصغيرة ليقوم بلعبته الأثيرة المتمثلة في أن يسوق فوق هذه المتاهة سيارة خيالية ، إلا أنها لم تسمع «بامبون ، بامبون» وهو الصوت الذي كان يصيح به أثناء جولاته .

ونادت : ميخائيل . وكانت تحبس صوتها تأدبا ، لكنها اضطرت لعدم رؤيته يعود إلى أن تصرخ وتبدأ في البحث عنه ونادت مرة أخرى : ميخائيل . لكن الطفل لم يكن يسمع شيئا ، وقد سحره كل هؤلاء الناس ومعظمهم يبكون . وبالقرب من القبر المفتوح كانت هناك كومة من الباقات البيضاء لم يسبق له أن رأى مثلها .

وسألته بصوت رقيق سيدة لم يكن يبصر وجهها المغيب وراء اللثام : ماذا تفعل هنا ؟ يجب ان تذهب ياصغيري.وقالت له امرأة اخرى : أين امك ؟

فأجاب ميخائيل ببساطة : إنها في المقبرة .

انتاب المرأة الاولى نحيب فنظر إليها ميخائيل عن قرب من تحت اللثام قبل أن تمتد يد رجل ضخمة لتأخذه .

قال الرجل : « أيها الصغير أنت الذي كنت تلعب منذ قليل في الممر ؟ »

قال ميخائيل : لا ، لم أكن ألعب .

ـ يجب أن تعود ، اذهب ، اذهب

ثم جره الرجل إلى آخر صف وتركه ، وارتفع صوت منغم وراء الجماعة ، وأخذ يقذف كلمات متقطعة ، غير مفهومة رتيبة ، تتخللها فراغات وانحدارات مثل من يتأوه في نوبة حمى .

تسلل ميخائيل مرة أخرى إلى الصف الأول في اللحظة التي كان فيها القسيس يرش الماء المقدس على التابوت الموضوع على حاملين . ثم تهاوت امرأة فأنهضها رجال وأسندوها ، وترك أحدهم قبعته تنزلق من يده ، وفجأة أحس ميخائيل بنفسه مرفوعا ، وما كاد يصرخ حتى عرف أن أمه هي التي رفعته . قالت له بصوت خافت : ستحرم علينا الدخول الى المقبرة بتصرفاتك هذه،إنهم في منتهى اللطف حين يسمحون لنا بالبقاء في الممرات . يجب عليك ألا تتبع الناس ، هذا ممنوع ، فهم لايأتون إلى هنا ليمزحوا .

ـ قال ميخائيل لماذا ؟ ، ثم أضاف : هناك سيدة سقطت على الأرض .

فقالت له : « لنذهب هذا كل ما ستربحه »

عادا إلى البيت قبل الوقت المعتاد ، وفي المساء عندما رجع الأب من عمله قال له ميخائيل : « لقد نبتت لحيتك ، ونحن قد استمتعنا جيدا في المقبرة ».
قال الأب لسيسيل : لقد قلت لك من قبل بأنني لا أريد ذلك ، إنه ليس حسنا لا بالنسبة للصغير و لا بالنسبة لك .
ـ لو أنه كان يتصرف بحكمة لما كان هناك مكان أكثر هدوءا . ثم إلى جانب ذلك يوجد على بعد خطوتين أشجار وأطيار ، ولا سيارة تمر .
قال ميخائيل : بلى ، هناك سيارة كل يوم ، وسيارة اليوم كانت مغطاة بورود بيضاء ، بل كانت هناك امرأة وقعت على الأرض .
قال الاب بغموض : أرأيت ! لنكف عن الحديث في هذا الموضوع . لقد حان وقت الفيلم في التلفاز « رجل الرمل الطيب » اعطني يا ميخائيل قبلتين زيادة .

انصرفت سيسيل لتنيم ابنها ، ولكن عندما أراد الزوج أن يأخذ كلمة ـ وهما على انفراد ـ استبقته قائلة :

« إن الأمر ليس كئيبا كما تتصور ، ولو حاولت أن تقضي يوم أحد معنا ، فإنك ستفهم ما أقول خصوصا أنه يتحتم أن تمحو من ذهنه الزوار . خلال أيام الاسبوع تكون المقبرة فارغة وأحس نفسي مرتاحة ، وميخائيل يتعلم فيها حروفه أفضل من تعلمها في كتاب ، وسيعرف سريعا ما يجب عليه أن يتعلق به . وأنت أيضا يا جاك تعيش وتمزح وسط الأموات .

ـ أنا ؟

ـ نعم ، أنت ، ككل الناس ، فالشارع مليء بهم .
ـ أنا أرى الناس كما سيكونون وكما سأكون .

ثم أخذت سيسيل تبكي فجأة وبغزارة ، مثلما يحدث لها بمجرد معاكسة زوجها لها عن طريق رفع صوته .

قال لها وهو يمسد شعرها : « حسنا ، إنني لم أكن أريد أن أضايقك ، وإذا كنت تظنين أن ميخائيل لن يتألم من ذلك فلا بأس » .

على أن جاك قد وجد زوجته متغيرة عما كانت عليه ، فهي أكثر حديثا وأكثر حيوية ، وفي تلك الليلة كانت سيسيل ملاطفة أكثر من المعتاد .

وتساءل جاك عما إذا لم تكن تضمه بدافع من الخوف أكثر من دافع الرغبة ، وقد ظلت ممسكه به مدة طويلة حتى حان وقت النوم .

في اليوم الأخير من العطلة أخذت سيسيل ميخائيل إلى حديقة لوكسمبورغ ، وعند جذع الشجرة كان أولاد مسلحون بالمجارف والعصي يحفرون حفرة لدفن طائر ، وكان ميخائيل ينظر إلى الاحتفال المأتمي . اختفت الجثة الصغيرة ذات الجفن الأصفر تحت التراب مصحوبة بزهور ممنوعة قطفها الأولاد خلسة . كان أكبر ولد في « العصابة » يرتل أيضا أنشودة رتيبة غير مفهومة ، ثم استدار نحو بنت كانت رموشها ترف ولا تفلح في أن تبكي .

: « الطائر مات ، عاش الطائر » قال ولد آخر ـ
هل عندك أسرة أنت ؟ اجاب ميخائيل : نعم
ـ « إذن ، ستدفع حصتك لشراء الاكليل ، كل واحد يدفع ما يقدر عليه »

جرى ميخائيل نحو أمه التي كانت تحلم فوق كرسي وقال لها : ساحتاج إلى نقود . وكانت الام المأخوذة بالمفاجأة تحملق في اليد الممدودة والعينين المأساويتين :

ـ لنشتري العصرونية ؟
قال ميخائيل : من اجل الميت .
ـ لكن أي ميت ؟
قال ميخائيل : مثل ما في حديقتنا الأولى ، ولكن ليس هناك اسم لأن الطائر لايتكلم .
ـ آه ، دفنتم طائرا ؟
ـ نعم والنقود لكي نشتري له اكليلا .
ـ قالت سيسيل وهي مسرورة بالحدث : ليست معي نقود لكن يمكنك هذا المساء أن تطلب ذلك من والدك .

جرى ميخائيل ليعلن النبأ للاولاد الآخرين الذين استمعوا إليه وقد أحاطوا به ، ثم سرعان ما طردوه من حلقتهم . □

خطأ الحساب وتدمير العالم

حرب النجوم و«الكمبيوتر» والاستقرار الاستراتيجي

بقلم : بسام أسخيطة *

منذ انتخب ريجان رئيسا للولايات المتحدة الامريكية ، وسعيه ـ مع إدارته ـ لتأكيد تفوق أمريكا وسيطرتها على دول العالم بكل الوسائل والأساليب لم يتوقف ، ومنها خطته المشهورة بحرب النجوم المثيرة للجدل وللمشاكل السياسية والفنية كمشكلة زمن ووسائل اتخاذ قرار بتوجيه الضربة المضادة ـ التي يعالجها هذا المقال ـ حيث يكفي خطأ واحد فيها لتدمير العالم كله .

تقوم خطة « حرب النجوم » في الأساس ، على مفهوم تنسيق مكونات الأنظمة المضادة للصواريخ بالعمق . وأعني بالتنسيق وضع هذه المنظومات على انساق أو مراحل مختلفة واحدا بعد الآخر ، بحيث تكون قادرة على اعتراض الصواريخ الباليستية العابرة للقارات وهي تطير في مراحل الطيران المختلفة .

والخطة تنص على وجود أربع مراحل اعتراض .

١ ـ الصاروخ وهو في مرحلة الطيران الفعال .

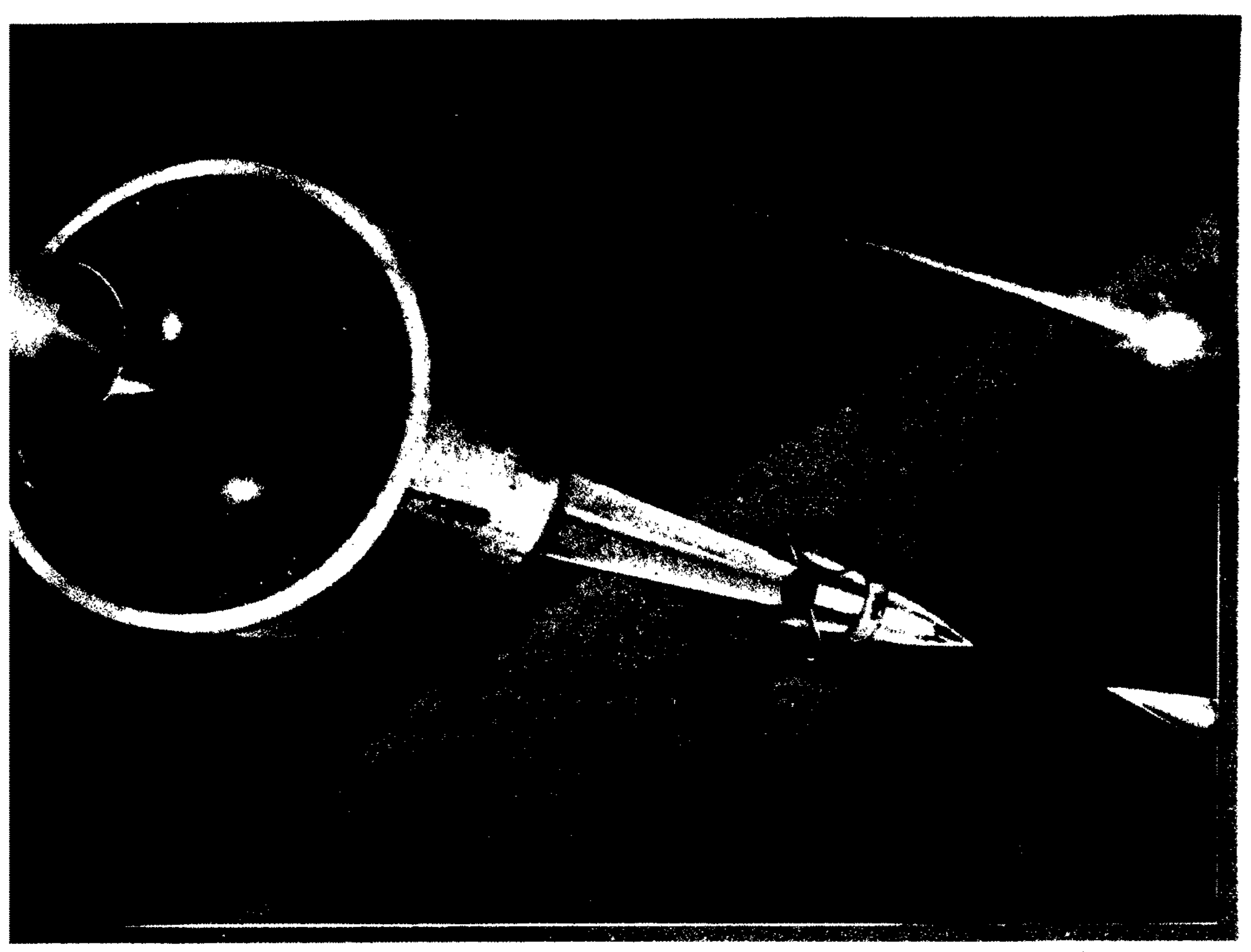
٢ ـ مرحلة انفصال الرؤوس القتالية للصواريخ .

٣ ـ الرؤوس القتالية وهي في مرحلة طيرانها الوسطى .

٤ ـ الرؤوس القتالية في مرحلة الطيران الأخيرة .

يجب أن تتم مطابقة عمل مختلف انساق مكونات الأنظمة المضادة للصواريخ وقيادتها بواسطة « أنظمة القيادة الدنيا » التي تتألف من « كمبيوترات » كثيرة ، تنفذ المهام الدنيا التالية : جمع المعلومات الجديدة عن الصواريخ الباليستية المنطلقة ، وتحليلها الأولي ، وتصحيحها ، وحساب « مسارات الصواريخ » والرؤوس القتالية المنفصلة عن هذه الصواريخ ،

* كاتب وباحث في الشئون العسكرية ، ومدير تحرير مجلة الاستراتيجيا العسكرية السورية .



● ـ محطة فضائية مزودة بمدفع كهرومغناطيسي ، إحدى المنظومات المضادة للصواريخ ، وبخاصة الباليستية ، العابرة للقارات ، والأهداف الفضائية والجوية . هذا المدفع قادر على إطلاق قذائف وزنها ٢٥ كغ ، بسرعة ٣٥ كم في الثانية ، إلى مسافة ٥٠٠٠كم .

وتوجيه الأسلحة الليزرية ، وأسلحة الحزم « المدافع الكهرمغناطيسة » ، وطائرات اعتراض الصواريخ المزودة بالصواريخ المضادة للصواريخ ، وإخراج الصواريخ ذات الرؤوس القتالية غير النووية التي تتوجه ذاتيا ، واختيار لحظة تدمير الهدف في نسق الدفاع المطلوب ، وتصحيح المعطيات حسب درجات التدمير ومستوياته ، وتكرير العملية أو العمليات .

أثناء ذلك يجب مطابقة المعلومات المتلقاة بصورة مباشرة من مرسلات المحطات القتالية ، مع المعلومات المتعلقة بالموقف الاستراتيجي العام ، ولكن هذه المطابقة غير ممكنة إلا في حالة وجود معلومات عن الحالة الاستراتيجية الجارية والحالية في إحدى مكونات الأنظمة الدنيا التي تعلن باستمرار وتستكمل من المصادر الذاتية أو غيرها من المصادر التي يمكن أن تكون غير ملائمة لمرسلات المحطات القتالية .

ولا يمكن دون ربط المعلومات المتوفرة عن انطلاق الصاروخ الباليستي المعادي بالسياق العام للموقف الاستراتيجي تمييز اطلاق الصواريخ الباليستية عن أنشطة العدو الأخرى ، مثل : إطلاق الصواريخ الحاملة للأقمار الصناعية ، واطلاق صواريخ للتنبؤ

بالأحوال الجوية بصورة ناجعة ، وغيرها ، لذلك يتعين إدخال جميع مكونات الموقف الاستراتيجي مبرمجا على لغة الكمبيوتر في أنظمة للقيادة القتالية الأرضية ، فيتحول مباشرة إلى تركيبات معقدة ، ضمن عناصر الذكاء الصناعي .

لقد أصبحت هذه الحقائق معروفة في أيامنا هذه لدى جميع العاملين في « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » أو « حرب النجوم » ، ولذلك فقد سَخُنَتْ حدة المناقشات على ضوء هذه المتطلبات ، وبخاصة لكل ما يتعلق بأنظمة للقيادة الدنيا ، وأعني بذلك « كمبيوترات » الذكاء الصناعي التي مازالت حتى الآن قيد التصميم في الولايات المتحدة الامريكية ، وما يتعلق بكل ذلك من مشكلات كثيرة .

النسق الأول والأسئلة الحرجة

تتوقف فعالية المنظومات المضادة للصواريخ برأي السيد ج . فلتشر ـ رئيس لجنة البيت الأبيض ، لحرب النجوم ، المُشَكّلة عام ١٩٨٣ـ بكاملها على النسق الأول : فهو الذي يتمتع بأهمية حرجة ـ كما يقولون في لغة العلم الحديث ـ لعمل المنظومة كلها وقيامها بوظيفتها . يوافقه في الرأي عمليا جميع أنصار برنامج حرب النجوم والعاملين فيه .

حيث تتوفر في النسق الأول ميزات ثلاث :

الأولى : أن الصواريخ الباليستية وهي في مرحلة طيرانها الأول تدمر مع ما تحمله هذه الصواريخ من رؤوس قتالية ، إذ يرتفع عدد الأهداف في القطاع الأوسط من مسار طيران الصاروخ عشرات المرات بل حتى مئات المرات .

وتتلخص الميزة الثانية بسهولة كشف اطلاق الصاروخ الباليستي ومتابعة الصاروخ في المرحلة الدنيا من مسار طيران الصاروخ البالستي بفضل الأشعة تحت الحمراء الهائلة التي تنطلق من عادم محرك الصاروخ ، بينما يتعذر ذلك كثيرا بعد انفصال الرؤوس القتالية من جسم الصاروخ .

والميزة الثالثة : تنبثق عن كِبَر أبعاد الصاروخ بالمقارنة مع الرؤوس القتالية ، مما يسهل مهام تدمير الصاروخ البالستي العابر للقارات .

ومن المفترض أن النسق الأول إذا لم يعمل بفعالية ، تصبح إمكانات الأنساق الأخرى ، أو التالية في اعتراض الصواريخ والأهداف ضعيفة جدا ، لذلك تذكر الوثائق الأمريكية الرسمية ضرورة تدمير الصواريخ والأهداف بنسبة ٩٠٪ ، في مرحلة الإطلاق الأولى من أجل تأمين « القدرة الحيوية » للمنظومة كلها .

أكد الجنرال ج . ابرامسون مدير منظمة تنفيذ « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » أن تشكيل منظومة الأسلحة ، وتأمين استخدامها في النسق الأول باعتبارها من أهم مستويات المنظومات المضادة للصواريخ في برنامج البحوث والتصميم الخاص بمبادرة الدفاع الاستراتيجي يولى عناية كبرى .

إلا أن العاملين في برامج « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ومعظم الاختصاصيين الأمريكيين يعترفون أن فعالية عمل المنظومات المضادة للصواريخ في النسق الأول ستتوقف على عناصر زمنية كما بينت « لجنة فليتشر » . لقد بينت الوثائق الامريكية الرسمية أن مرحلة الإنطلاق الأولى للصاروخ الباليستي العابر للقارات تستغرق ٤ ـ ٥ دقائق إذا أدخلت تحسينات هائلة على هذه الصواريخ ، ويمكن تخفيض هذه المدة إلى ١٨٠ ثانية ، إلا أن أحد كبار الاختصاصيين في شركة أمريكية كبرى تقوم بتصميم هذه الصواريخ وإنتاجها قد أكد أن هذه المرحلة ستخفض إلى ٥٠ ثانية فقط .

لذلك يطرح عدد كبير من الاختصاصيين الأمريكيين المعادين لهذه المبادرة « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » السؤال التالي : كيف سيمكن اتخاذ قرار خلال عدة عشرات من الثواني ؟ وكيف سيمكن تحريك المنظومات المضادة لهذه الصواريخ وتشغيلها وهي قابعة في نسقها الفضائي خلال عدة ثوان دون إجراء بعض التحضيرات الأولية ؟ وهل سيكون الوقت كافيا لاتخاذ القرار من قبل الإنسان ، أم أن كل شيء سيقرر بصورة « اوتوماتيكية » ؟ وإلى أي مدى ستكون منظومة القيادة المؤتمتة للأعمال القتالية

ناجعة ؟ وكم سيؤثر ذلك على الاستقرار الاستراتيجي ؟

حسابات الزمن وقرار الضربة المضادة

لنتوقف بادي ذي بدء عند عمليات اتخاذ القرار من قبل القيادة السياسية للولايات المتحدة الامريكية ، لاستخدام الأسلحة النووية حسب تصورات العلماء الامريكيين ردا على تسلم معلومات عن قيام العدو باطلاق صواريخ باليستية عابرة للقارات حاملة للرؤوس النووية .

ذكرت المعلومات التي نشرتها إدارة الرئيس ريغن ـ صاحب المبادرة ـ أن معالجة المعلومات الواردة عن انطلاق الصاروخ يحتاج إلى عدة دقائق إلى حين اتخاذ رئيس الولايات المتحدة قرار توجيه الضربة المضادة .

ولكن الخبراء الامريكيين قد أكدوا أن معالجة المعلومات الواردة من الاقمار الصناعية الخاصة بالإنذار عن الهجوم الصاروخي وإرسالها يستغرق دقيقتين على الأقل .

سلطت الصحافة الأمريكية الضوء على آليات اتخاذ القرار المتعلق « بالضربة المضادة » ، بعد تلقي المعلومات من الأقمار الصناعية ، ومن محطات الرادار الأمامية : تعطى دقيقة للتحقق منها عبر الإدارة المركزية الموحدة للدفاع الجوي الفضائي من أمريكا الشمالية « نوراد » ، ولا تعد المعلومات الواردة موثوقة إلا إذا أيدها نسقان من أنساق الإنذار ومحطات الرادار ، ثم تعطى دقيقة للتحقق من صحة عمل المنظومة ، ثم تمر ٣٠ ثانية . وينقل الضابط المناوب صورة الموقف إلى قائد « نوراد » أو إلى نائبه إذا كان غائبا ، فيرفع الأخير تقريره إلى مقر القيادة القومي في واشنطن ، لإيصال هذه المعلومات إلى رئيس الولايات المتحدة ليقوم باتخاذ القرار المناسب .

ويرى الخبراء أن الاجراءات المذكورة يجب أن تتطابق مع شرطين أساسين على الأقل : أولا : يعد القرار على أساس حسابات الزمن اللازم لإطلاق الصواريخ العابرة للقارات ، لذلك يؤخذ في الحساب زمن طيران الصواريخ الباليستية العابرة للقارات وهو ٢٥ ـ ٣٠ دقيقة ، وزمن طيران الصواريخ المنطلقة من الغواصات الذرية وهو ٨ ـ ١٢ دقيقة . ثانيا : عندما تكون الصواريخ الباليستية في القطاع الفعال (أي القطاع الابتدائي) يجب على رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، أو نائبه اتخاذ القرار بنفسه (عامل بشري) لتجنب الخطأ الذي يقع فيه « الكمبيوتر » .

ولكن مثل هذه الاجراءات لا تتجاوب مع متطلبات الموقف بعد نشر جميع المنظومات المضادة للصواريخ التي تعنيها « مبادرة الدفاع الاستراتيجي » ، اللهم ما عدا حالة تكون فيها الولايات المتحدة قد عقدت العزم على أن تكون هي المبادرة أولا بتوجيه الضربة الأولى .

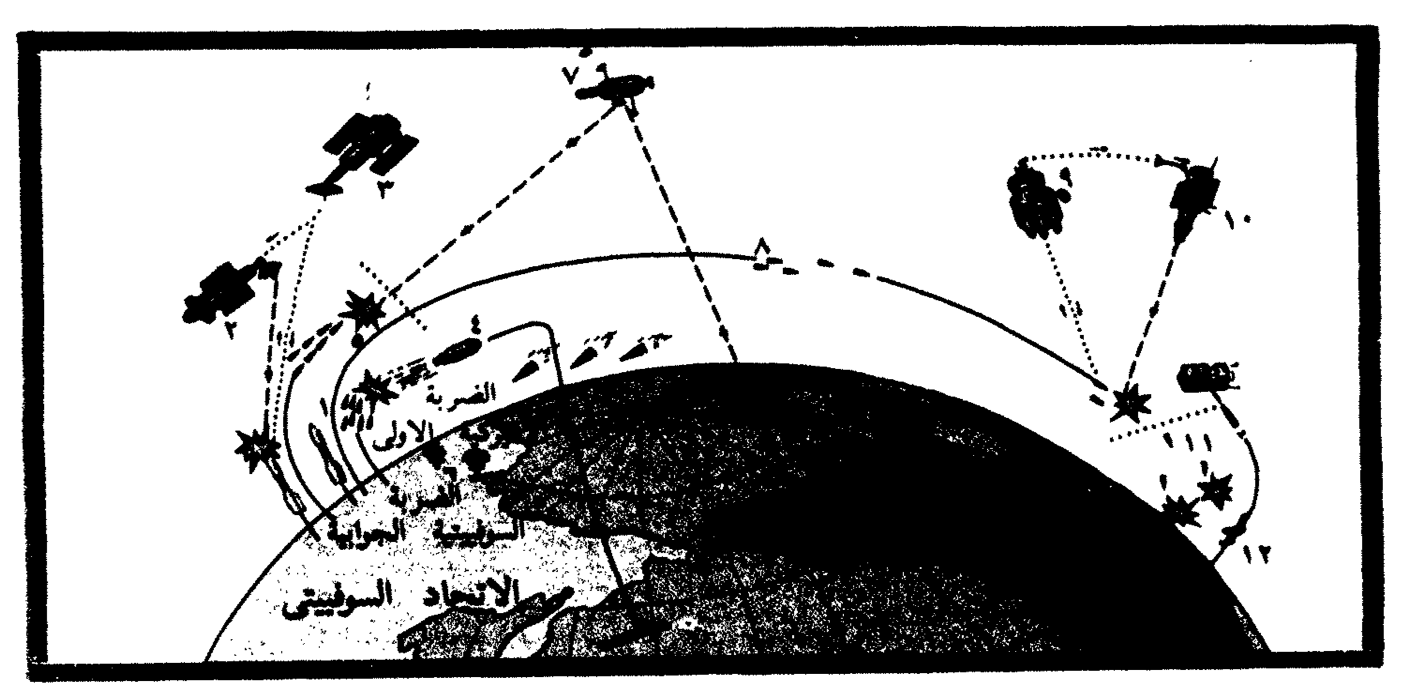
وتتبنى مجموعة الاختصاصيين في واشنطن مفهوما للضربة المضادة ، يقوم على « سيناريو » زيادة فعالية النسق الأول ضد منظومات الصواريخ ، لاتستغرق فيه عملية اتخاذ القرار كلها أكثر من ثانية واحدة ، ولكن ذلك يعني بالضرورة أن عملية اتخاذ القرار كلها يجب أن تكون مؤتمتة .

لهذا فقد بين اتحاد العلماء الامريكيين في هذا الصدد قائلا : يمكن حل مشكلة اتخاذ قرارات متسلسلة أكثر تعقيدا خلال ثانية واحدة ، في حالة واحدة فقط هي عدم مشاركة الإنسان في هذه العملية .

ومن رأي الخبراء أيضا أن تحوّل سلسة إجراءات اتخاذ القرار على الأنظمة المؤتمتة يتوقف على إمكانات المجموعة القتالية على الصمود أمام التدابير المضادة التي يقوم بها الجانب الآخر ، أو العدو بالتحديد .

حيرة الإدارة الامريكية

بين هذا وذاك تقف إدارة الرئيس ريغن وانصارها في وضع شديد الحساسية والدقة ، أو في (حيص بيص) كما يقول شاعرنا الكبير أبو العلاء المعري ، فالاعتراف بضرورة مشاركة الإنسان في عملية اتخاذ القرار يعني الاعتراف بوجود نوايا توجيه الضربة الأولى ضد الاتحاد السوفييتي و « اقتناص » الصواريخ الاستراتيجية بواسطة المنظومات المضادة



● ـ مخطط المنظومة الأمريكية المتعددة الأنساق المضادة للصواريخ المرابطة في الفضاء

١ ـ القطاع الفعال من محرك باليستي عابر للقارات
٢ ـ محطة فضائية قتالية .٣ ـ قمر صناعي للانذار المكبر .
٤ ـ صاروخ ليزر رونيتجني أطلق من غواصة ذرية .
٥ ـ انقسام الرؤوس القتالية للصاروخ الباليستي .
٦ ـ جهاز ليزر للطاقة .
٧ ـ مرآة ليزرية لعكس الأشعة الليزرية .
٨ ـ القسم الوسطي من محارك الرؤوس القتالية .
٩ ـ قمر صناعي للدلالة على الهدف .
١٠ ـ سفينة فضائية مع مشرّع .
١١ ـ القطاع النهائي من محرك الرؤوس القتالية .
١٢ ـ مجموعة صواريخ الاعتراض .
١٣ ـ صواريخ مضادة للصواريخ قريبة المدى لبعيدة المد

للصواريخ ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن الموافقة على خطط تحويل عملية اتخاذ القرار على النظام (المؤتمت) الكامل يلاقي موجة من المعارضة السياسية العارمة لقرنهم إياها بمفهوم « الاطلاق بمجرد الكشف » ، أي إطلاق الصواريخ الامريكية مباشرة بعد وصول اشارة انطلاق الصواريخ المعادية .

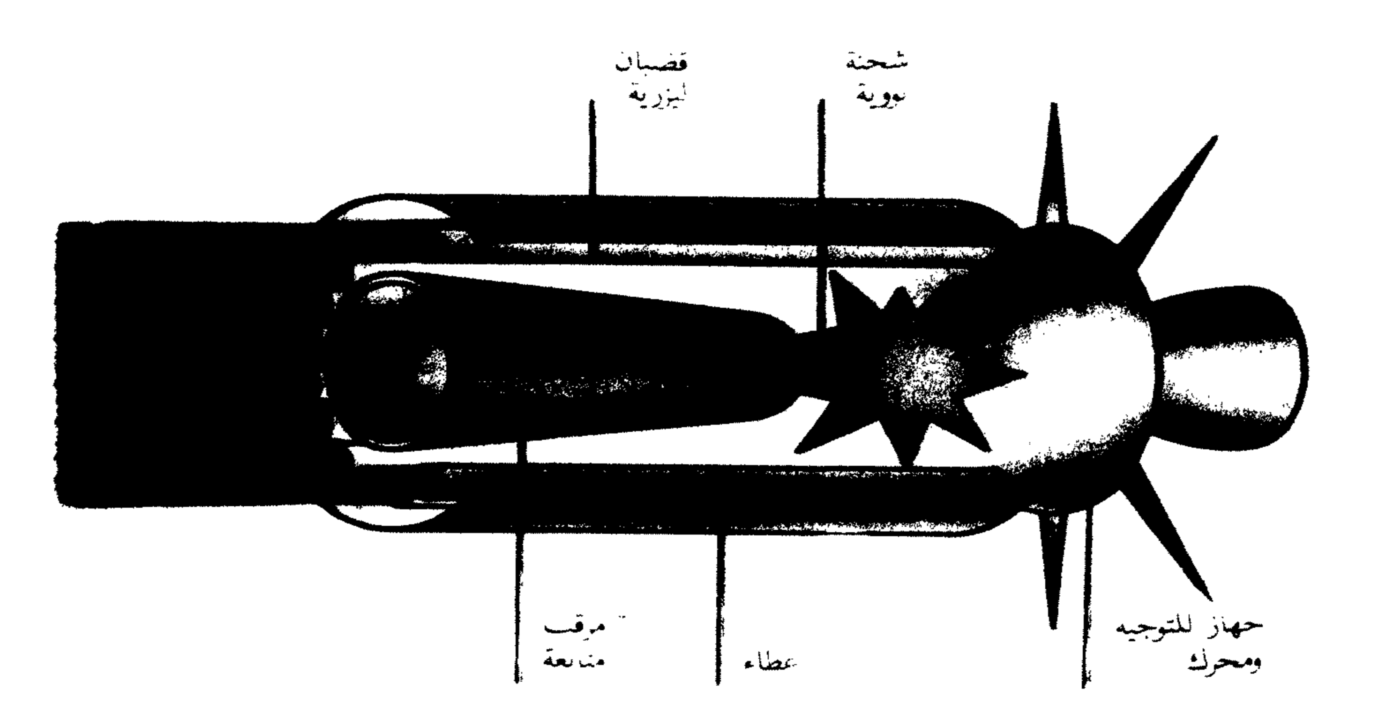
لذلك يرى الاختصاصيون أن طرائق اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة يعني أنهم قد عملوا حساباتهم على أساس إطلاق المنظومات المضادة للصواريخ ، مع اطلاق الصواريخ الاستراتيجية الامريكية ضد الاتحاد السوفييتي .

إن اختيار إدارة الولايات المتحدة الامريكية لطريق الثاني ـ طريق اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة ـ يعني وضع حد للمشاركة في النقاش الدائر حول هذه المشكلة .

صرح السيد ج . كيورت المستشار السابق للرئيس ريغن للشؤون العلمية والتقنية فقال : إنني أؤيد بكل قوة فكرة الأتمتة الكاملة لعملية اتخاذ القرار ، على اساس أن تلك الفترة القصيرة من الزمن ومقدارها ٢٤٠ ثانية ـ هي قطاع الطيران الابتدائي للصاروخ الباليستي العابر للقارات ـ غير كافية لاتخاذ القرار اللازم من قبل الإنسان . وقال مساعد وزير الدفاع السابق ر . بييرل : « إن قضية مشاركة رئيس الولايات المتحدة الامريكية ، أو غيره في اتخاذ القرار قد أصبحت ثانوية » .

مشكلات عويصة ومعقدة

وضعت مسالة اختيار طريقة الأتمتة مشكلات ومسائل عديدة أمام العلماء والمصممين من أكثرها صعوبة التعرف الصحيح على هدف في مسار الصاروخ المطلق ، وتمييزه عن الأهداف الكاذبة .



● ـ مخطط لليزر « رونتجني » ذي حشوة نووية ، مخصص لتدمير الصواريخ البالستية في المحرك الفعال الابتدائي ، وهو جزء من منظومات النسق الأول . ويتولد الإشعاع الرونتجني من تفجير الحشوة النووية .

وعن التشويشات الطبيعية ، والصناعية .

ولا يتأمّن ذلك بالتحقق من هوية الصاروخ أو الهدف حسب دلالة واحدة مثل السرعة ، والأبعاد ، وحرارة العادم ، بل حسب مجموعة من الدلالات ، لذلك فإن الإشارات التي ترسلها المرسلات ، ستعالج في الوقت نفسه أو مع ظهور تقييم مظاهر الصاروخ .

لكن من المعروف أن وسائط الحماية الموجودة ، والتشويش الالكتروني ، تؤثر حتما على منظومة المتابعة ، وتتولد أوضاع تكون فيها عدة أقنية من أقنية معالجة المعطيات ممتلئة ، ولا تعمل أو تعطي إشارات متناقضة .

تنجم عن ذلك مسائل معقدة ، محيرة ، مثل : ماذا يتعين عمله لاتخاذ قرار تدمير الصاروخ ، أو الهدف ؟ وهل سيكفي عدم عمل أحد أقنية منظومة التعرف على الهدف أو الصاروخ لإلغاء قرار تدمير ذلك الهدف أو الصاروخ ؟ أليس ممكنا توقف قناتين أو أكثر ؟

لو ادخلنا في حسابنا ما بلغته وسائط التشويش الالكتروني « الحرب الالكترونية » من مستويات رفيعة فإن ذلك يوجب إدخال هذه المستويات في صلب تصميم المنظومات المضادة للصواريخ ، وإلا فماذا سيكون الأمر ؟

إن انخفاض عتبة عمل منظومة التعرف على الصواريخ أو الأهداف تجعل المنظومة تتجاوب مع إشارات ليس لها علاقة بانطلاق الصواريخ المعادية .

وتتأتى الأخطاء الأخرى من خطأ أو أخطاء البرمجة ، ونعني بذلك برمجة « الكمبيوترات » . وأخطاء البرمجة لايمكن تلافيها مهما كانت دقيقة .

في الآونة الأخيرة تعالت أصوات نقاش حاد حول « سلاح الطاقة الموجهة » ، ومشكلات تأمين محطات الطاقة الموجهة بالطاقة نفسها ، وهي من منظومات الدفاع ضد الصواريخ ، علما بأن الطاقة الموجهة تحتاج إلى كميات هائلة من الطاقة .

أخطاء البرمجة وتدمير العالم

بالنسبة لأخطاء البرمجة نضرب المثل بما حدث لبرنامج قيادة السفينة الفضائية « جيميني - ٥ » ، فقد تبين أنه لم تدخل في الحساب حركة الأرض بالنسبة للشمس ، فنجم عن ذلك انحراف السفينة عند الهبوط عن مكان هبوطها المحدد مائة ميل (١٦٠ كم) .

وقد ذكر الباحث الاميركي غ . لين : لايجب القيام بدراسة مسبقة لطبيعة الأخطاء ، ولا لأعدادها التي وقعت في مرحلة التخطيط ، ولا في مرحلة التصميم . ولا يمكن تدارك عدم الوقوع في هذه الاخطاء إلا إذا كشفت قبل وقت كاف من الزمن أو بصورة مسبقة . إنه لا يوجد غير طريقتين حقيقتين لتقدير نجاح البرامج . الطريقة الأولى تحليلية ، وذلك بالتحقق من صحة البرامج بالطرق الرياضية ، ومقارنة نتائج الحسابات حسب معايير موضوعة سابقا . ولكن من عيوبها عدم قدرتها على ضمان صحة عمل البرنامج، عندما تأتي إشارات غير متوقعة ، ولا متنبأ بها .

الطريقة الثانية وهي أكثر أهمية ، وهي « التحقق التجريبي » ، ولا يمكن تجريب المنظومات المضادة للصواريخ في شروط قريبة جدا من الواقع ، والسبب ليس في الكلفة الهائلة لهذه التجارب فحسب ، بل إن الاتحاد السوفييتي سيشك كثيرا في براءة هذه الكثرة الهائلة من الصواريخ التي يجري تجريبها ، وسيرى أنها ضربة أولى موجهة اليه عن طريق الخدعة بالادعاء أنها تجريبية .

ويولي الاختصاصيون في الولايات المتحدة اهتماما كبيرا بمسائل البرمجة ، وتأمين البرامج « للكمبيوترات » الخاصة بقيادة المنظومات المضادة للصواريخ . وهم في هذا يهتمون بمشكلتين : الأولى مهمة تلافي الأخطاء الملاحظة بعد البرمجة ، والثانية تنظيم المعالجة .

المهمة الأولى تتعلق باسطوانة البرنامج المحسوب لمعالجة المعلومات خلال مدة زمنية حقيقة ، يمكن أن تعمل هذه الاسطوانة مع نوع من « الكمبيوترات » ولا تعمل مع نوع آخر ، حتى ولو كان الاختلاف بسيطا ، كما أن الخطأ الذي حدث مرة قد لايتكرر لمعرفة كنهه وتلافيه ، وهذا ما يحدث غالبا ، فيتعين وضع البرنامج مرة أخرى ، وعندئذ تكون نسبة ارتكاب خطأ جديد فى البرمجة تتراوح بين ١٥ - ٥٠٪ .

أما المهمة الثانية المتعلقة بتنظيم المعالجة فقد بين الباحثون الامريكيون أنه من أجل تحقيق مشاريع إعداد برامج « للكمبيوترات » العائدة لمبادرة الدفاع الاستراتيجي ، يتطلب عمل ٣٠٠ ألف شخص في السنة ، أي ثلاثة آلاف اختصاصي يعملون خلال مدة ١٠ سنوات . وهذه المدة الطويلة سيعتورها تبديل العاملين في المشاريع البرمجية لأسباب مختلفة كالوفاة والمرض والانتقال إلى أماكن جديدة ، وتبديل أنواع العمل ، وغيرها من الأسباب وهذا قد يؤثر بصورة سلبية على البرمجة كلها ، إذ سيقوم عدة أشخاص بوضع برنامج واحد ، ولكل إنسان أسلوبه وخبراته وطاقاته ، فقد يهتم أحدهم بنوع من التفاصيل ، بينما لا يهتم آخر بها ، وقد تكون لبعض الأمور أهميتها ولا تكون للأخرى ، وقد يتفهم بعضهم بعض الأسلحة وخواصها ، بينما يستعصي ذلك على آخرين .

عموما تتلخص المشكلة ليس في وجود أو عدم وجود الخطأ فى برنامج المنظومة ، ولكن في احتمالات وجود أخطاء مسموح بها كُمُونيا من بين ملايين الاحتمالات . مسألة وجود « مجاهيل في المجهولات » ، أي عن تلك الأخطاء المستترة التي تبقى كامنة دون إمكان التنبؤ بها . لذلك نجد عددا كبيرا من الاختصاصيين في حرب النجوم ، يميلون إلى الاعتقاد أن إيجاد أنظمة تحتية للقيادة ناجعة تماما أمر قليل الاحتمال ، واحتمالات الخطأ في عمل المنظومات المضادة للصواريخ ، وفي تفاقم النتائج العارضة الناجة عنها عالية جدا .

إدارة ريغن تصر

يورد رجال إدارة الرئيس ريغن ثلاث « حجج » أو « براهين » لتبرير مستقبل التحول إلى عمليات

اتخاذ القرار بصورة مؤتمتة ، وأن ذلك التحول لن يكون مدعاة لنشوب الحرب النووية ، بسبب أخطاء ناجمة عن « الكمبيوتر » .

أولا : إستغلال إمكانات « المعجزة التكتيكية » . ولكن يبقى الأمر كما قلنا سابقا ، فالصعوبة الرئيسية ليست في نجاح « الكمبيوتر » ، بل في نجاح البرامج ، أي في حدوث أخطاء خواريزمية .

ثانيا : بدء المواجهة النووية ، ربما يكون نتيجة توترات طويلة الأمد ، مما يضع القيادة الامريكية في وضع « الجاهزية » لاتخاذ التدابير في الوقت المناسب ، وبالتالي « القرارات » . ولكن الخبراء الامريكيين يعترفون أن هذا « السيناريو » « المفترض » ليس إلا واحد من « سيناريوهات » كثيرة ستكون رهينة « الكمبيوترات » العسكرية .

ثالثا : ان بدء عمل المنظومات المضادة للصواريخ لن يؤدي إلى تدمير الصاروخ أو الصواريخ مباشرة لدى العدو ، بعد ظهور إشارات خاطئة من « الكمبيوتر » .

مع اعتبار العوامل الجغرافية ، وشكل الأرض ، يمكن أن تعمل منظومات النسق الأول المضادة للصواريخ من الفضاء ، لذلك يتصور الاختصاصيون وجود نوعين من المجموعات الضاربة في المستقبل : (١) ما يسمى بمجموعات الاطلاق المفاجيء . (٢) المحطات القتالية المزودة بأسلحة ضاربة موجودة في وضع المناوبة الثابتة ، في مدارات منخفضة حول الأرض ، بالإضافة إلى استخدام المرايا المرابطة في الفضاء للأسلحة الليزرية ، وتسديدها إلى صواريخ العدو .

تولي الولايات المتحدة الامريكية اهتماما كبيرا بسلاح الليزر الرونتيجنى الذي يطلق من الغواصات الذرية ، المرابطة قرب السواحل المعادية ، وذلك بهدف تقليص المسافة بين الوسائط المضادة للصواريخ الأمريكية ومناطق انطلاق الصواريخ السوفيتية ، بما لا يقل عن ١٢٠٠ كم ، مما يحتاج على الأقل إلى ١٢٠ ثانية لاستخدام منظومة الليزر منذ بدء انطلاق الصاروخ أو الصواريخ الباليستية العابرة للقارات .

فوق كل ذلك لا تستطيع الغواصات بقوة خصائصها التكتيكية إطلاق جميع المنظومات المضادة للصواريخ دفعة واحدة ، بل بالتتابع ، مع المحافظة على فواصل زمنية بين كل إطلاق وآخر ، لأن الغواصة لاتتحمل من حيث بنيتها قوة انطلاق الصواريخ دفعة واحدة . وهذا سبب من أسباب عدم إمكان استخدام جميع المنظومات المضادة في النسق الأول ، كما ادعى الخبراء ، اللهم إلا إذا وجهت الولايات المتحدة الضربة الأولى ، ثم ادخرت النسق الأول للضربات المضادة .

هل يجدي الإنذار ؟

ذكر الجنرال ابراهامسون أن تنشيط المنظومات للصواريخ ، بما في ذلك تشغيل « الكمبيوترات » ، لن يحدث إلا في مرحلة الأزمة ، فقال : في لحظة نشوب الأزمة يستطيع رئيس الولايات المتحدة الامريكية اتخاذ القرار بصورة مسبقة ، وينذر الروس قائلا لهم : « انني أشغل الجزء المهم من المنظومة بصورة ممتازة » . وهذا يعني أن التشغيل سوف يكون « اوتوماتيكيا » ، اعتمادا منه على أن مثل هذا التدبير سيقلص التوتر ، ويخفض من حدته .

إن الموقف الاستراتيجى السائد في العالم على الرغم من معاهدة واشنطن لإزالة الصواريخ المتوسطة المدى ، وعلى الرغم من محادثات جنيف الحالية ، وعلى الرغم من اتفاقات قمة موسكو مازال كما هو و « حرب النجوم » مازالت على حالها ، لم تمتد إليها المحادثات ، لإصرار الجانب الامريكي على عدم المساس بها في أي محادثات ، وهي تحمل في طياتها ـ شاء أنصار حرب النجوم أو لم يشاءوا ـ أخطار نشوب حرب نووية بالصدفة أو بالخطأ ، أو بالتعمد ، بالأسباب جميعها ، إذ تزداد المجاهيل الرياضية ـ إن صح هذا التعبير بلغة الرياضيين ـ والأمر يبقى دوما في رغبة الامريكيين في التفوق بلا حدود على عدوهم مهما كان الثمن . وحرب النجوم تفتح لهم أبواب التفوق على مصاريعها ، وتخل بالتوازن الاستراتيجي ، وتهدد العالم بالخطر النووي ، وبعدم الاستقرار الدولي . □



■ الرضاعة واليوجا



الرضاعة واليوجا

بقلم : الدكتورة أمل علي المخزومي

يتفق الأطباء وعلماء التربية على أهمية الرضاعة الطبيعية للوليد والأم معا . . ولكن ، هل من طريقة ترضع بها الأم وليدها دون انفعال أو توتر نفسي ، لتوفر للطفل جواً نفسيا ملائما ؟

انتشرت رياضة اليوجا في أوربا في الآونة الأخيرة ، بعد أن كانت محصورة في الهند . وسبب ذلك هو اندفاع الاوربيين وراء الرشاقة والتخلص من التوترات النفسية عن طريق الاسترخاء المصاحب لتلك الرياضة ، واعتقد أن المرضعة في أمس الحاجة الى ممارسة تلك الرياضة لفوائدها الكثيرة خاصة أثناء الرضاعة . ولأن بعض الأمهات من ذوات الولادة الحديثة ليست لديهن فكرة واضحة عن متطلبات فترة ما بعد الولادة ، وهل يرضعن أطفالهن بالطريقة الطبيعية أم بالطريقة **الاصطناعية ؟** .

والرضاعة الطبيعية تساعد على تقلص الرحم ، ويعتمد التقلص على نوعية الجلسة عند الإرضاع وأحسنها هي الجلسة التي تشبه جلسة اليوجا ، وسنأتي على شرحها . كما تساعد الرضاعة الطبيعية على ازالة التوتر ، وكهربائية الجسم الحاصلة لدى الام ، وذلك من خلال تبادل النظرات بين الام والرضيع أثناء الرضاعة ، وما يرافقها من دفء وحنان خلال حضن الأم لرضيعها وضمه الى صدرها . اضافة الى التخلص من الحليب المتراكم في الشدى الذى إن لم يرضعه الطفل يسبب مشاكل لا حصر لها من آلام وقيح . كما توفر طريقة الرضاعة الطبيعية الجهد الذى تبذله الام في اعداد وجبات الحليب للرضيع .

كذلك تساعد الرضاعة الطبيعية الرضيع على اكتساب المناعة ضد الأمراض المختلفة لاسيما الاسهال . كما أن تركيز نسب المواد الموجودة في حليب الام ينتظم حسب نمو الرضيع . وتكون افرازات الثدى في الأيام الثلاثة الاولى غنية بالاملاح والبروتينات وقليلة الدسم ، ويطلق عليها (الكولستروم) . ويتحول هذا الكولستروم في اليوم الثالث او الرابع الى لبن عادى ، ويفرز بصورة منتظمة ، وتقدر كمية اللبن التي تفرزها الام من ١ ـ ٣ لترات يوميا . يساعد الكولستروم الناتج من افرازات الثدى الوليد على تنظيف جهازه الهضمي ، اضافة للمواد الغذائية السهلة الامتصاص الموجودة في ذلك الكولستروم . كما أن وجبة الإرضاع جاهزة في محل نظيف وبحرارة حسب الحاجة ، ويعتبر تدفق الحليب من ثدى الأم عند جوع رضيعها بمثابة الساعة المنبهة **للإرضاع** ، وتحدث تلك الحالات وان كانت الأم بعيدة عن رضيعها ، كأن تكون في العمل او تمارس نشاطا معينا .

تهيء الرضاعة الطبيعية الجو النفسي للرضيع وذلك من خلال التفاعل النفسي والاجتماعي بينه وبين أمه مما يسبغ عليه الراحة والاطمئنان . كما نلاحظ نظرات الرضيع لامه التي تنم عن السعادة ، مع اللعب بيديه ورجليه عندما يشعر بالاطمئنان الكامل . ولا ننسى تجارب هارلو على القردة التي بينت بان القرد يفضل الرضاعة من الأم الطبيعية ، وان غابت فانه يفضل الأم الإصطناعية الناعمة . وان غابت الاثنتان فانه يلجأ للام السلكية . ويدل هذا على ان لدفء وحنان الام أثرا في استجابة الرضيع الايجابية . لان الرضاعة ليست مجرد اشباع حاجة بيولوجية وانما هي موقف يعتمد على التفاعل الاجتماعي النفسي الحاصل بين الأم ورضيعها . وينعكس سلوك الأم الدال على الاسترخاء والاطمئنان على استجابة الطفل كما أن خبرة الرضاعة السليمة تزيد من ثقة الطفل بنفسه وبمجتمعه

رياضة نفسية

واليوجا نوع من الرياضة الذهنية والنفسية تساعد على ترويض النفس ، وتحمل كلمة يوجا في اللغة السنسكريتية معنى الاتحاد مع الروح ، كما أنها مشتقة من كلمة « يوك » التي تعني وصل او ربط . وتعتبر اليوجا نوعا من العقائد الدينية العريقة التي انتشرت في الهند .

واليوجا كانت عدة أنواع في القديم ، ولكنها انحصرت في الأونة الاخيرة في ستة انواع تقريبا،منها



ما يتعامل مع الخوارق السحرية . ومنها ما يستهدف القوى والقدرات المعينة ، ومنها ما يتناول الفضائل والواجبات ، ومنها ما ينصب على قيم الحياة اليومية والطقوس المنزلية . ومنها ما يركز على التصرفات المناسبة التي تختص بوسائل التهيؤ للممارسة ، واخيرا يوجا الملوك التي تسعى تعلبماتها الاخلاقية والعقلية الى إبراز فضائل الانسان .

ولليوجا فوائد اخلاقية اضافة للفوائد الصحية والنفسية . يدعي أصحابها بان ممارستها تؤدى الى تطوير الفضائل الاخلاقبة للشخص ، لان هناك نوعا من اليوجا يساعد الفرد على التمسك بالعفة ، فعن طريق استرخاء التفكير ، يمكن كبت الرغبات واخمادها ، كرغبة **الامتلاك أو الاغتصاب** او السرقة كما أن هناك تمارين تعمل على إسكات اللسان عن القيل والقال ونقل لشنعات والاكاذيب

اما فائدة اليوجا من الناحية الصحية فانها تفيد الجسم من قمة الراس الى اخمص القدمين ، فهي تساعد العضلات على النمو والمرونة وشدها ، كما انها تعمل على تزويد الدم بالاوكسجين ، ومساعدته على التخلص من غاز ثاني اوكسيد الكربون اضافة الى انها تساعد على توزيع الدم على انحاء الجسم فتمكن القلب من التخلص من الشحوم المتراكمة وتساعد جلسة اليوجا على راحة العمود الفقرى والاطراف والاحشاء الداخلية كالمعدة والمجارى البولية والكلى ، وعلى راحة المفاصل ، كما تساعد الجهاز العصبي على العمل بشكله الطبيعي ، والرئتين على اخذ كميات الاوكسجين المطلوبة .

ولكل وضع من اوضاع رياضة اليوجا منافع معينة ، فالرياضة التي تعتمد الوقوف على الرأس تساعد في علاج التغضنات والتجاعيد ، كما انها تساعد على تحسين السمع وغسل الدماغ وتقوية البصر .

تتدرج اليوجا في حلقات متتابعة من السهل الى الصعب ، والهدف من ذلك اعداد الفرد للوصول الى

مرحلة التفوق العقلي . ويستطيع الفرد ممارسة اليوجا في كل مكان وزمان وبدون شروط . وتبدأ بفترة **خمس دقائق ثم تزيد الى عشر دقائق ، تزاد فترة الجلسات ما استطاع الفرد إلى ذلك سبيلا . وعليه أن يرتدى ملابس مريحة، وغير ضيقة كي تساعد الدورة الدموية على العمل بالشكل المطلوب .**

يوجا للمرضعة

تستطيع المرضعة أن تمارس « دهارانا » وهو اسم يطلق على المرحلة السادسة من مراحل اليوجا التي تتضمن الاسترخاء والتركيز ، وتعتبر مفتاحا للعمليات العقلية . وكلمة « دهارانا » مشتقة من الكلمة التي تعني « امساك » التي يقصد بها بأن هناك قبضة قوية وحازمة تمسك العقل ، ويلعب عامل التركيز دورا مهما في ذلك . ويستعمل اصحاب اليوجا اصطلاحات لوصف الموقف بـ « التوجه الوحيد » ويقصد به الانقطاع عن مصادر الحس من خلال التركيز على فكرة واحدة أو على شيء واحد بحيث يتوصل العقل في استبعاد الأشياء الأخرى .

يجلس اليوجي في هذا النوع من الرياضة على بعد مترين تقريبا من العلامة التي يضعها لغرض تركيز النظر عليها كأن تكون على حائط خال من المشتتات للإنتباه كالألوان والصور والاشكال ، او على غصن معين من اغصان شجرة محددة . ويصل اليوجي الى مرحلة النجاح عندما يجد جميع الاشياء من حول تلك النقطة قد اختفت ، وان بؤرة شعوره اصبحت في النقطة الدقيقة التي وضعها امام عينيه .

إن اكثر الأوضاع شيوعا في هذه الرياضة ، هو وضع القرفصاء ، مع استقرار اليدين المرتختين على الركبتين ، وتستطيع الام المرضعة ان تمارس تلك الرياضة اثناء إرضاعها لطفلها ، بحيث تتخذ وضع اليوجي في جلسته وتحتضن طفلها . وتركز النظر في نقطة معينة في وجه رضيعها ، وما احلى هذا التركيز بوجه طفل يشع براءة مما يسبغ على نفس الأم الراحة والتأمل . اضافة الى أن جلسة الأم في حالة ارضاعها لطفلها في الظروف الاعتيادية تشبه الى حد ما جلسة اليوجي ، الا انها تخلو من تلك النظرة التأملية . وتكون الفائدة مزدوجة حين يكون ارضاع الطفل بالطريقة الطبيعية من ناحية وممارسة اليوجا بمنافعها العديدة من ناحية اخرى .

ويعتمد ذلك التأمل لدى المرضعة على شخصيتها ، إذ أن الوسائل المساعدة على التأمل تنفع جميع الافراد ، وان اختلفوا فانما يختلفون في نسبة النفع ، وذلك لوجود الفروق الفردية بين الافراد من حيث مواقفهم ، وقدراتهم ، وميولهم ، وانماطهم الحياتية والنشاطات التي يقومون بها ، ومقومات بنيتهم الاسرية ، وخلفياتهم الاجتماعية والدينية والثقافية ، اضافة الى خبراتهم المختلفة في مجال الحياة

وقد تصاب الأم بالتوتر وزيادة كهربائية الجسم نتيجة للارهاق والتعب الذي يصاحب عملية الولادة وما يتبعها من ليال مفعمة بالسهر للعناية بالوليد . ونعلم بان كهربائية الجسم تزداد كلما ازدادت المثيرات التي يتعرض لها الفرد مما يتطلب منه الاستجابة لتلك المثيرات . وتتباين تلك الاستجابات تبعا لقوة المثيرات وضعفها ، وتبعا للفروق الفردية . وتكون الوالدة في تلك الحالة في موقف مفعم بالمثيرات القوية التي تتطلب منها الاستجابات المستمرة مما يؤدى بالتالي إلى زيادة كهربائية الجسم الذي بدوره يزيد من توترها وصعوبة تكيفها لتلك المواقف ، فيظهر التعب والارهاق عليها أو تنتابها بعض الصراعات النفسية .

وتشعر اكثر النساء بالكآبة بعد الولادة نتيجة للتغييرات الهرمونية السريعة التي تحصل بعد الولادة . اضافة الى شعور الام بالتعب والسهر من جراء عملية الولادة ، وما يتبعها من عناية بالوليد . ويتعذر على الأم المصابة بالكآبة العناية بنفسها وبوليدها ، وهذا النوع من الكآبة يشبه المرض ، ويبدأ عادة في الشهر الأول من الولادة . كما يتعذر على الام تقبل دورها كأم ، وقد تشعر

بالعدوانية نحو طفلها احيانا ، او تجهش بالبكاء احيانا اخرى ، أو تشعر بالذنب دون سبب معين . كما ان هناك امهات يتناولن طعامهن دون شهية . وتستطيع الام ان تعالج نفسها بممارسة رياضة اليوجا قبل استفحال المرض ، ثم تقريب الرضيع اليها شيئا فشيئا وبعدها تستطيع ممارسة اليوجا في فترات الرضاعة مما يبدد الكآبة .

طفلك أولا

قد تلجأ الامهات الى أساليب خاطئة في الرضاعة ، دون أن يدركن عواقبها كأن ترضع الأم طفلها كلما بكى بينما قد يكون لبكاء الطفل سبب آخر غير الجوع .

وقد تترك اخريات الطفل يبكي جائعا ، والواحدة منهن منهمكة في الأعمال المنزلية أو التحدث بالهاتف أو مع الضيوف وما اليها من اهتمامات ، ولا تعلم الاضرار الناجمة عن هذا البكاء ، كأن تمتلىء معدة الطفل بالهواء الذي كثيرا ما يسبب الإسهال بعد اخذ وجبة الطعام .

وربما تسحب الام ثديها من فم طفلها قبل أن يشبع ، مما يودي به أن يكون قلقا على ثدى امه . وعند الارضاع نجده يغرس اظافره بالثدى او يعضه ، وتستجيب الام لهذا الموقف بسحب الثدى أو معاقبة الطفل وهذا الموقف يدعم اسلوب العض لديه ، وتتكون حلقة مفرغة بحيث يؤدى الى فقدان التفاعل الاجتماعي والنفسي بين الام والرضيع . قد تقضي الام على تلك الظاهرة بممارسة اليوجا .

وأثبتت الدراسات ان صعوبات الإرضاع لدى الامهات العصابيات أكثر من صعوباتها لدى الامهات غير العصابيات . لان الام العصابية تستعمل القسوة والعصبية في ارضاع طفلها ومن ثم فإن رياضة اليوجا ترخي الاعصاب وتريح الام .

ولعله من المناسب أن نوصى الأم بما يجب اتباعه في ارضاع طفلها كأن لا تطعمه بغرفة النوم ، وانما يستحسن ان تذهب به الى غرفة اخرى مجاورة ، كذلك عليها اخذ راحة ونوم هادىء بعيداً عن الضوضاء ، وان كان في الامكان ، يوضع الطفل في مكان اخر بعيد عن غرفة نومها ليتسنى لها اخذ حاجتها من النوم ، وعلى الزوج أن يتعاون مع زوجته في العناية بالطفل ، وان يراقب حاجة الطفل خاصة ان كان الطفل غير هادىء أو يطلب من أي شخص قريب للأم ، مساعدتها على العناية بالطفل . وعلى الأم ان تقاسم زوجها أو من هو اقرب الناس اليها همومها ، كي يعاونها على اجتياز تلك المرحلة .

وعلى الأم ان تكون اثناء رضاعها لطفلها هادئة مستريحة معتدلة بدون تدليل زائد ولا قسوة أو عصبية . وممارسة اليوجا تساعد على ذلك كثيرا .

كذلك يستحسن أن تضع الام جدولا زمنيا لإرضاع طفلها ، وإذا كانت حلمة ثدى الأم صغيرة فعليها ان تعمل اللازم لجعلها تتمدد بعض الشيء كي يستطيع الرضيع أن يمسك بها بين شفتيه بسهولة وقت الارضاع .

أما إذا كانت الأم تعاني من تدفق الحليب أحيانا ، فيجب اخراج كمية من الحليب من الثدى قبل الإرضاع ، ويكون اخراج الحليب بالماصة الكابسة أو بواسطة اليد . وهذه الحالة لا تحدث إلا في الايام الأولى بعد الولادة ، وتعتدل كمية الحليب بعدها .

وقد يحدث تشقق لحلمة الثدى احيانا من جراء مص الطفل لها ، أو عضها . وقد لا تجفف الأم حلمة الثدى احيانا بعد كل رضعة مما يؤدى الى تراكم الحليب وجفافه . اذا كانت الحالة مزعجة للام وتسبب الاما ، عليها استشارة الطبيب .

وقد تشعر الأم بتورم في بعض أجزاء الثدى من جراء تجمد الحليب احيانا ، وقد تشعر ام اخرى بخروج القيح مع الحليب احيانا ، فعلى الام في هذه الحالة ان تغمر الثدى في ماء حار ، وستشعر بعدها بالراحة . اما ان لم تنفع تلك الطريقة فعليها استشارة الطبيب ليصف علاجا مضادا لتلك الحالة . وان لم ينفع العلاج يلجأ الطبيب الى اجراء عملية جراحية لاستخراج الحليب المتجمد . □



بقلم : يعقوب الشاروني *

على امتداد الوطن العربي ، أصبح الراشدون من آباء وأمهات مدرسين ومربين ، يدركون أكثر من ذي قبل ، مطالب الأطفال واحتياجاتهم الفكرية والعقلية والعاطفية . وأقوى دليل على هذا ، ذلك الازدياد الكبير في مبيعات كتب الأطفال في الوطن العربي . وهي كتب أصبح البعض يعتبرها سلعة رائجة لا يهتم فيها بجودة المضمون ، قدر اهتمامه بإبهار الشكل ، أو بقدرتها على جذب اهتمام الصغار .

التغير في النظرة إلى مرحلة الطفولة ، وإن كان تغيرا محدودا ، حمل عديدا من دور النشر على أن تقدم للأطفال ألوانا مختلفة من الكتب والمجلات ، فيها مترجم كثير ، أو مؤلف بغير خبرة كافية . وأدب الأطفال في اللغة العربية الذي كان إلى ما قبل ربع قرن يمر بأزمة وجود ، أصبح الآن يمر بأزمة جودة . أو بعبارة أخرى صارت أزمة الكم التي كان يعاني منها أدب الأطفال ، أزمة في الكيف . فقد توسعت الكتابة للأطفال ، وكثُر هواتها والمستفيدون منها . وكثير من هذه الكتابات تتم في غيبة النقد ، وفي غيبة الرقابة الوطنية . فتجيء أدبا تعوزه من ناحية مقومات الأدب الناجح ، على الرغم من وجود الكتب التي تضمه على رفوف الكثير من مكتبات المدارس الحكومية ، أو بين أيدي الأطفال . وتعوزه من ناحية أخرى تلبية الاحتياجات القومية والفكرية والنفسية والعلمية التي تسعى المجتمعات العربية إلى توفيرها لأطفالها .

ولما كانت الخبرة الناضجة بالكتابة للأطفال نادرة وقليلة في الوطن العربي ، فقد لجأ عدد كبير من الناشرين إلى البحث عن كتب ومجلات الأطفال

* رئيس المركز القومي لثقافة الطفل - مصر

الرائجة في العالم العربي ، يترجمونها ، ويقدمونها بنفس رسومها إلى أطفالنا ، بغير إدراك لما تحتوي عليه من قيم تربوية غير ملائمة لنا ، أو مرفوضة حتى في البلاد التي تصدر فيها تلك المطبوعات .

ونستعرض فيما يلي بعض القضايا التي تثيرها بعض مطبوعات الأطفال المترجمة ، التي تجد رواجا بين قطاعات كبيرة من أطفالنا العرب .

الرجل الخارق والخيال العلمي :

تعتمد معظم روائع أدب الأطفال على الخيال ، فالخيال هو أثمن هبة أعطتها الطبيعة للأطفال ، وهو خيال أوسع من خيال الراشدين وأخصب . لذلك يحرص من يكتبون للأطفال على توسيع آفاق هذا الخيال وتنميته .

وقصص الخيال العلمي في مقدمة ما يثير خيال الأطفال ، وينمي قدراتهم العقلية ، فأهم قضايا التثقيف تدور حول البحث في كيفية تهيئة الفرص ، **ليكون في وسع** العقل أن يصطنع روابط ، ويستخرج نتائج ، من مجرد سماع حقائق متفرقة .

ويتخذ أدب الخيال العلمي موضوعه من الظواهر العلمية ، وتوقعاتها المقبلة ، والتنبؤ بها ، وانعكاسات ذلك على عالم المستقبل ومصير الانسان . إن العالم الألماني « هرمان أوبرت » ، عندما قرأ في سنة ١٩٠٦ رواية « جول فيرن » « من الأرض إلى القمر » ، أثار خياله ما في القصة من صور عن عالم الفضاء ، بصواريخه وكواكبه وقذائفه المتدفقة نحو المجاهل البعيدة . فتساءل ذلك العالم الصغير : « هل يمكن أن يحدث هذا ؟ » . فأجابته أمه : « كل الأعمال الكبيرة تبدأ بالأحلام ، ثم يسعى الناس لتحقيقها » . ومنذ ذلك الوقت ، أخذ هرمان يفكر في المدفع الذي أطلق قذيفة « جول فيرن » نحو القمر بسرعة أحد عشر كيلومترا في الثانية ، وظل يفكر في كيفية التخلص من الجاذبية الأرضية ، وفي الكيفية التي يمكن أن يصنع بها هذه القذيفة . وظلت هذه القضية تشغله ست عشرة سنة ، طلع بعدها على العالم بمخطوطة في علم الفضاء ، كانت الخطوة الأولى في إطلاق أول الأقمار الصناعية حول الأرض سنة ١٩٥٧ .

كذلك فإن شخصيات قصص الرجل الخارق للطبيعة ، مثل قصص « سوبرمان » ، « والرجل الأخضر » ، « وباتمان » وغيرها ، تلجأ إلى تبسيط الشخصيات ، بحيث تجعل بعضها ممثلا للخير المطلق ، وبعضها ممثلا للشر **المطلق . على الرغم من** مخالفة هذا لطبيعة البشر ، مما يؤدي إلى فهم الأطفال لمجتمعهم ، والمجتمعات الأخرى فهما خاطئا ، ويستتر لديهم دوافع التعصب والعدوان . ففي كل إنسان جانب طيب وجانب خبيث ، ولا بد أن يساعد الأدب على أن يفهم الأطفال دوافع الانسان وأسباب سلوكه ، وذلك بطريقة مبسطة ، تناسب مراحل الطفولة التي يوجه اليها ما نكتب .

إن كثيرا من هذه القصص تدور حول سلسلة متصلة من حوادث العنف الجنونية ، قبل أن ينتصر البطل الذي يأخذ بناصية المظلومين في القصة . هذا في حين أنه ينبغي أن يكون سلوك أشخاص القصة من بدايتها إلى نهايتها سلوكا سويًا لا شذوذ فيه ، لأن الأطفال يتأثرون بالقدوة المتمثلة في أحداث القصة ومواقفها المختلفة ، أكثر كثيرا مما يتأثرون بعبارة تدين الأفعال الخاطئة ، ولا تقال إلا في نهاية القصة .

كما أن هذا النوع من القصص يؤكد قيما معادية لكل ما قامت عليه نظم الدول المتمدينة الحديثة : فمن القيم التي يجب أن تشيع في نفوس الأطفال ، احترام القانون ، وترك مهمة محاكمة المخطيء والحكم عليه وتنفيذ الحكم ، للقضاء ولسلطات الأمن . فعندما يكون الطفل صغيرا ، نطلب منه أن يحتكم لوالديه فيما ينشأ من نزاع بينه وبين إخوته أو أبناء الجيران . وفي المدرسة نطلب إليه أن يلجأ في تلك الحالات الى هيئة التدريس أو مدير المدرسة . وعندما يلتحق بعمل ، لا بد أن يلجأ لرؤسائه فيما يثور بينه وبين زملائه من نزاع أو خلاف وإلا استحق العقاب . وفي الحياة اليومية ، لا بد أن يلجأ

إلى سلطات الأمن أو إلى سلطة القضاء ، للفصل فيما ينشأ بينه وبين الآخرين من نزاع .

لكن كثيرا من قصص الرجل الخارق للطبيعة ، تجعل البطل هو الذي يحدد ما هو الخير وما هو الشر ، وتتركه يحكم بنفسه على الآخرين وبمعياره الشخصي . ثم ينفذ بنفسه ما ينتهي إليه من أحكام ، حتى لو كانت الحكم بالاعدام ! وبهذا تلغى هذه القصص كل ما قدمته الحضارة من نظام للدولة ، يخضع فيه كل شخص للقانون الذي سَنَّته الجماعة ، حتى لا يُترك الأمر فوضى لوجهات النظر الشخصية التي تُروِّجُ لها وتُغلِّبها مثل هذه القصص التي تعطى ذلك الفرد المتفوق الذي يُفترض أن يتمثل به الطفل كل سلطات الشرطة والقضاء وأجهزة تنفيذ الأحكام !!

ازدراء الأجناس الملونة :

من بين القصص التي تنشرها الكتب والمجلات المترجمة ، عن دور نشر أجنبية ، تلك القصص التي تتضمن ازدراء الأجناس الملونة ، أو احتقار الحياة الانسانية والاستهانة بها ، مثل قصص الغرب الأمريكي التي تدور حول إبادة الهنود الحمر ، أو قصص طرزان التي تؤكد تفوق الرجل الأبيض .

إن قصص الغرب الأمريكي التي كثيرا ما تقدمها القصص المصورة المسلسلة في كتب ومجلات الأطفال ، تؤكد لدى أطفالنا شعوراً قويا بتفوق الرجل الأبيض ، وبتفاهة حياة سكان أمريكا الأصليين ، وبأن من حق الرجل الأبيض أن يقتلهم كما يقتل الحيوانات المتوحشة ، لا يمنعه من هذا أنهم أصحاب الأرض الأصليون.

وهذه صورة تُروِّج لها حاليا بعض الأفلام المغرضة في الغرب ، وفي أمريكا خاصة . إنهم يريدون أن يضعوا في وعي أطفال العالم أن العرب وأهل فلسطين خاصة، هم هنود حمر في هذه المنطقة! وهم بذلك يقيمون مشابهة مفتعلة ، تجعل مجتمع الغرب يتقبل عمليات إبادة وقتل العرب والفلسطينيين .

وهذه قضية يجب التنبيه إليها ومحاربتها ، ليس على مستوى الوطن العربي فقط ، بل على مستوى العالم كله ، لأنها أصبحت إحدى الوسائل الأساسية في الحرب النفسية والدعائية ضد المنطقة العربية كلها . ويكفى أن نرى الصورة البشعة التي ترسمها كتب الأطفال الصادرة في « اسرائيل » عن الانسان العربي ، وأن نتذكر ذلك النداء المعادى لكل قيم الحضارة والانسانية الذي انتشر منذ سنوات على صفحات كل صحف ومجلات أمريكا ، والذي يقول بغير خجل ولا حياء : « ادفع دولاراً ، تقتل عربيا » .

ومثل هذه الصورة نجدها أيضا في قصص طرزان التي يلجأ فيها هذا العملاق الأبيض إلى استعداء الحيوانات على أهل أفريقيا السود ، تقتل منهم من يرى أنهم أصبحوا أعداء له .

ويقول تقرير اليونسكو ، إن هذه القصص : « تصور الزنوج أنهم يسلكون سلوك الحيوانات ، ويبدو البيض دائما أرفع منهم وأسمى كما أن الشعور العنصرى واضح فيها جدا » .

ويقرأ أطفالنا تلك القصص ، ويتحمسون لمواقف يرون فيها طرزان يستدعي أصدقاءه من الفيلة والقرود ، لتهجم على قرى أهل البلاد الأصليين ، فتحطم بيوتهم ، وتهدم أكواخهم ، وتدوسهم بأرجلها ، كل هذا لارضاء نزعات تلك الشخصية التي تتصرف بعضلاتها وغرائزها ، بدل أن تتصرف بعقلها وحكمتها . .

الأطفال والعنف :

ولعل من أخطر ما يقابلنا في كتب الأطفال ومجلاتهم المترجمة ، تلك القصص التي تمجد العنف كوسيلة لحل المشاكل ، والتي تجعل القوة البدنية هي العامل الأقوى في حسم مختلف المواقف . وهو أمر نجده في كثير من قصص المغامرات وقصص الجاسوسية ، وأيضا في قصص سوبرمان وطرزان .

وفي هذا يقول مؤتمر اليونسكو الذي عُقد في

مارس سنة ١٩٥٢ بإيطاليا ، لبحث موضوع الرقابة على صحف الأطفال :

« نظرا لما لاحظه المؤتمر على صحف الأطفال من تصويرها الحياة لقرائها ، على أنها سلسلة طويلة من الفخاخ المؤذية التي يجب عليهم أن يكافحوا لتفاديها ، ومن الكفاح الدائم « للانتقام » للأرامل واليتامى ومن إليهم ، فإنها تناشد هذه الصحف الحد من عنف موضوعاتها ، وأن تفضل عليها الموضوعات الهادئة المتزنة » .

إن هذه القصص تؤدى إلى تصوير العنف تصويراً مبهرا أمام الأطفال ، وكأنما فيه حل لكل المشاكل ، في حين أن تاريخ الحضارة هو تاريخ إحلال العقل محل القوة . وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل طرزان الذي تربى بين الحيوانات ، والذي لا يعرف وسيلة لحل ما يواجهه من مشكلات إلا القوة البدنية وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل سوبرمان ، الذي يتغلب على كل من يقف في طريقه عن طريق القتل ، عندما نقدم للأطفال مثل هذه القصص في **الكتب والمجلات والتلفاز ، فان الأطفال** سَيُسْقِطون من سلوكهم كل ما قدمه لنا تاريخ الحضارة من وجوب استخدام العقل في حل المشكلات بدلاً من القوة .

إن مثل هذه القصص تتنافى مع أهم أهداف التربية السلوكية للأطفال . فأول ما نهتم بغرسه في أطفالنا ، هو تدريبهم على مواجهة المشكلات وحلها بنجاح ، عن طريق استخدام العقل ، مع استبعاد القوة البدنية بشكل شبه كامل .

ان « الأوديسّا » عندما تحكى قصة « أوليس » مع « السيكلوب » ذى العين الواحدة ، تبين كيف استطاع الانسان الضعيف بجسمه ، القوى بعقله ، أن يتغلب على ابن الآلهة القوى بجسمه ، الضعيف في عقله . ومن غير المقبول أن يُعلِّم اليونان القدماء أبناءهم ، منذ ثلاثة آلاف سنة ، الاعتماد على العقل واستبعاد القوة لحل المشكلات ، ثم نأتي نحن ، في نهاية القرن العشرين ، لنقص على أطفالنا قصص الجاسوسية ، ومغامرات العنف وطرزان وسوبرمان ، فنلغى بها كل انجازات الحضارة من فكر وحكمة ، عندما نؤكد بما نترجمه لأطفالنا من تلك القصص ، أن القوة هي الوسيلة الحاسمة لحل المشكلات التي تواجه الانسان !!

المنافسة حتى الموت :

ومن بين القصص التي تترجم لأطفالنا ، تلك القصص التي تدور حول المنافسة بين طرفين ، وتجعل الصراع حتى الموت هو الوسيلة الوحيدة لانهاء التنافس بين الأطراف المتنازعة .

ان هذه القصص تُقَدَّمُ إلى أطفالنا بأسلوب فيه كثير من الفكاهة ، كما تُقدَّمُ عادة بأسلوب « الكومكس » أو الرسوم المسلسلة . وأوضح مثال لها القصص التي تدور حول شخصيات الكارتون « توم وجيرى » .

ان الموضوع الرئيسي المتكرر فيها هو ما يدبره كل طرف للطرف الآخر من أساليب للأذى !! وإذا كنا نضحك ونحن نقرأ هذه القصص ونشاهد رسومها ، فإن الطفل الذي يطالعها أسبوعا بعد أسبوع في مجلته ، أو يقرأها في كتبه التي يشتريها لنفسه أو نشتريها له ، سيترکز في وعيه نمط خاطىء من السلوك ، من السهل تقليده والتمثل به ، لما فيه من تنمية للاحساس بالتفوق على الآخرين ، برغم ما يسببه لهؤلاء الآخرين من أذى وأضرار .

إن كثيرا من قصص الأطفال المترجمة ، بل إن أكثر قصص الأطفال المترجمة رواجا ، انما هي تعبير عن أوضاع مجتمعات تختلف كثيرا في أهدافها عن مجتمعنا . ولا بد أن نتنبه لما تتضمنه هذه القصص من أخطار ، على الرغم **مما فيها** من سهولة وجاذبية وتشويق لأطفالنا .

إن المواد المترجمة للأطفال لا بد أن تخضع لتدقيق حاسم شديد ، حتى لا تفسد كثيرا مما نريد أن نغرسه وننميه في أطفالنا . □

هو .. هي

تستحق أن تُعاش

لم أنظر يوما إلى الفقر باعتباره عيبا أو خطيئة ، بل ربما كنت في بعض الأحيان أبالغ واعتبره ميزة تدفع الانسان نحو العمل بجد واخلاص وتفان حتى يتمكن من تجاوز فقره والنجاح في الحياة والعمل . ومن أجل هذا كان اعجابي بزوجي ، وموافقتي على الزواج منه على الرغم من فقره ، وعلى الرغم من الأعباء الثقيلة التي كان ينوء تحتها . فقد كان عليه أن يعيل نفسه وعائلته الكبيرة العدد . وعندما تزوجنا لم أطلب منه شيئا إذاعرفت أنه فوق طاقته ، ولم أطالبه بالتوقف عن مساعدة اخوته بعد أن أحيل والده إلى التقاعد ، بل اقتسمت أعباء حياتنا معه حتى شب اخوته ، وحملوا عنه العبء ، وتزوجوا ومضى كل منهم إلى سبيله . أما نحن فقد تحسنت أحوالنا المعيشية ، وسددنا جميع التزاماتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين . وعندها فقط بدأت الخلافات تدب بيننا بحيث أحالت البيت إلى جحيم أكثر من مرة .

إن مشكلة زوجي هو أنه تخطى الفقر عمليا ، لكنه لم يتخطاه نفسيا . فهو على الرغم من كل ما حققه في حياته التي لم تكن سهلة أبدا ، إلا أنه بقي أسير خوف مجهول من فقره القديم ، ولأنني أعلم علم اليقين أن زوجي ليس بخيلا ولا فقيرا ، وأنه أضاع أجمل سنوات عمره وهو يعمل من أجل عائلته ومن أجلنا ، فانني أحار في فهم ذلك الرفض المستمر لفكرة الاستمتاع بالحياة ، والسفر ، والتعرف على أماكن جديدة ، واكتشاف انماط حياة مختلفة .

وعندما أقول بأن الحياة ليست شقاء فحسب ، وليست عملا فقط ، وإن لنفسك عليك حقا ، وإن لأبنائك عليك حقا ، وأن حقهم في عيش حياة تتناسب وقدراتهم المادية ، دون الاضرار بهذه القدرات أو بالقيم التي نحملها ، فانه يثور ويبدأ بحديث لاينتهي عن أن الحياة لا أمان لها ، وأن من الواجب أن نحتاط لتقلبات الدهر التي لا ترحم .

وقد أثر هذا على أولادنا الذين ضاقوا ذرعا بسلوك والدهم الذي يحترمونه كثيرا ، ويقدرون تضحياته غير أنهم لا يقتنعون بما يقول ولا يفهمون حديثه المتكرر عن ضمانات المستقبل لهم ومن أجلهم ، في الوقت الذي يحرمهم من أن يستمتعوا بحياتهم مثل غيرهم من الأصدقاء والأقارب والجيران . والأدهى من ذلك ، أنه يعتقد أنني أحرض الأولاد عليه وأستميلهم الى جانبي ، وربما كان زوجي على حق في بعض تحفظاته ، لكن الأولاد هم أيضا على حق ، وإن كان من الصحيح أن الزمن لا يدوم لأحد فان من الصحيح أن نستمتع بحياتنا أيضا وألا ننسى نصيبنا من الدنيا . □





دنيـا زوالـ

لا أكاد أصدق ما يحدث لي هذه الأيام ، ويخيل إلي في بعض الأحيان أنه يحدث لشخص آخر غيري ، لأحد زملاء الدراسة أو لأحد أقربائي أو لأحد جيراننا الكثيرين ، ومع ذلك فإنني لا أجرؤ على البوح بهذا الذي يحدث لأحد ، لأنه ليس شيئا جديا أو مهما أو خطيرا ، بل هو أمر عائلي شديد الخصوصية .

المسأله ببساطة أنني نشأت في عائلة فقيرة ، ولأنني أكبر إخوتي فقد وقعت عليّ بعض أعباء الوالد إلى جانب أعبائي كأخ أكبر . لذا كان علي أن أبذل جهدا مضاعفا في كل شيء،في الدراسة حين كنت طالبا . وفي العمل حتى أساهم بما يليق بي كأخ كبير في إعالة إخوتي الصغار . لذا فقد كانت حياتي عملا مستمرا لا مكان فيه للراحة أو النزهة أو السفر ، واليوم ، وقد أصبحت أحوالي المادية على ما يرام ، وضمنت أن أبنائي لن يلاقوا الصعاب التي لقيتها في حياتي . وأن اخوتي قد نضجوا وتزوجوا فيماعدا واحدا يعيش خارج الوطن من أجل استكمال تحصيله العلمي ، بدأت اسمع من زوجتي كلاما غريبا لم أكن أسمعه من قبل .

إنها لا تتوقف عن طلبات الخروج للنزهة أو للزيارة أو لحضور الحفلات ، وما أن يأتي فصل الصيف حتى تبدأ اقتراحاتها بالسفر إلى هذه الدولة الأوربية أو تلك أسوة بأصدقائنا الذين ما أن يعودوا من الخارج حتى يبدأوا بالتخطيط للرحلة المقبلة . وحجتها في ذلك أن هؤلاء لا يملكون من المال أكثر مما نملك ، وأن من حق الأطفال أن يكونوا أندادا للأطفال الآخرين وعندما اقول لها ألا شيء مضمون في هذه الحياة ، وأن الزمن غادر لا أمان له ، وأن من الأفضل لنا أن نصمن ما بأيدينا حتى لا نفاجأ بيوم نفقد فيه ما جمعناه بعرقنا وجهدنا وكدنا ، تشيح بوجهها غير مكترثة بما أقول ، وتبدأ باستحضار حججها التي لا تنتهي حول ضرورة التمتع بالحياة الفانية الزائلة .

إن أكثر ما يؤرقني هو أن أبناءنا يميلون إلى صف زوجتي حين تثار هذه القضية ، مما يجعلني أشعر وكأن تعبي وشقائي ، والعذاب الذى لقيته خلال حياتي قد أفضى إلى عدم ، وأنني في سبيلي الى أن أخسر زوجتي وأبنائي بعد أن خسرت أجمل سنوات عمري وشبابي في العمل من أجلهم . وعندما أحاول أن أوضح لهم ولزوجتي أن ما أدخره من مال هو لهم في نهاية الأمر، وأن احداً لا يضمن عمره وزمنه ، فانهم يصمتون ويدعون لأعينهم وحركاتهم المحرجة أن تقول أن هذا الكلام غير مقنع ، وأنه مادام هناك مجال للاستمتاع بالحياة ورؤية العالم ، وتوسيع الآفاق فلم لا نفعل ، وعندها ألوذ بالصمت وأجتر ألمي ولا أقول شيئا ، فإنهم حقا لا يعلمون . □

هو ..



طبيب الأسرة

قضايا منزلية

طَهْيُ الطعام في حساب الربح والخسارة

بقلم : الدكتور حسن فريد أبوغزالة

لاخلاف إطلاقاً على أن طهي الطعام فن بشري مجرد لايمارسه سوى الإنسان وحده بين سائر الأحياء والمخلوقات جميعاً .

وإذا كان عمر اكتشاف الانسان للنار واستعماله لها لايتعدى النصف مليون عام فلا شك أن طهى الأطعمة قد بدأ بعد هذا التاريخ ، وبصورة عفوية ساقتها الصدفة ، وقبلها كان الانسان والمخلوقات الأخرى شبه الآدمية تعتمد في تغذيتها على الطعام النيء سواء منه ماكان فاكهة أو كان لحم حيوان نافق ، لهذا فطهى الطعام ليس ضرورة بشرية ولا هو بالعمل الغريزي الذي لاتستقيم حياة الانسان وصحته إلا به ، والا كان الجنس البشرى قد انقرض قبل أن يعثر الانسان للنار على وظيفة ومهمة .

ربما كان طهي الطعام بالنار قد غير من مذاق الطعام ونكهته وسهولة التهامه ، مما اغرى البشر أن يستغلوا اكتشافهم ويطوروه ويرتبطوا به لدرجة أن أصبح ظاهرة انسانية في كل مكان وزمان .

لن يختلف القوم في يومنا هذا على مزايا ثلاث للطهى كانت في صالح الانسان :

أولا : إن الطهى يقتل الأحياء الدقيقة الضارة من ميكروبات وفيروسات وطفيليات مما يلوث الطعام الطازج ، غير أن هذا لايمنع من تلوث الطعام مرة أخرى عقب الطهي .

ثانيا : إن الطهي يعطى للطعام مذاقاً ونكهة خاصة محببة للانسان لاتتوفر للطعام النيء .

ثالثا : إن الطهى على وجه العموم يسهل عملية الهضم في كثير من مراحلها وخاصة عمليات المضغ .

غير أن هذه الأمور التى يعتبرها البعض بديهية بحاجة إلى المراجعة والدرس ، وهى عرضة للجدل العلمي على ضوء ما استجد من أبحاث واكتشافات في حقل الغذاء والتغذية ، حتى يمكن توفير الفائدة القصوى من الطهي مع الاقلال ما أمكن من الخسارة التى تلحق بالطعام يغرمها الانسان ثمناً لاغراءات الطهى الظاهرية .

أثر الطهى على هضم الطعام :

قد يبدو غريبا ومثيراً للدهشة والاستغراب قول الخبراء إن هضم الطعام النيء في درجة حرارة ٣٧

منوية ، وهى درجة حرارة جوف الانسان يوفر فرصة الاستفادة من كثير من عناصر الطعام بأكثر مما يوفره طهى الطعام على درجة حرارة عالية توفرها النار

فالحرارة العالية في تقدير علماء التغذية تؤدى مثلا إلى تخثر زلاليات اللحم ، وهذا يجعلها أقل قابلية لتأثير الخمائر الهاضمة التى تفرزها المعدة والأمعاء وأكثر مقاومة لمفعول هذه الخمائر . فاللحوم على مانعلم تحوى من الزلاليات مايتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ بالمئة من وزنها .

إن تأثير حرارة الطهى تتركز على الألياف الرابطة في أنسجة اللحوم والمعروفة علمياً بإسم الكولاجين إذ تحولها الحرارة الى جيلاتين ، وهذا هو سر ليونة اللحم وسهولة هضمه بعد الطهى .

لكن الأنسجة المطاطة التى تتركب منها الأربطة والأوتار هى غير قابلة للهضم أصلا سواء كانت نيئة أو مطهية غير قابلة للذوبان في العادة .

والمعروف أن الفواكه والخضروات تؤكل نيئة في كثير من الأحيان وقد تؤكل مطبوخة أيضاً .

أما الحبوب والجذور وكثير من الخضروات الورقية فإنها على الأغلب بحاجة إلى طهى حتى يمكن التهامها وهضمها ، وحيث أن أغلب الخلايا في أنسجة النبات محاطة بجدار خشبي سليولوزى فإن من الصعب تحطيم هذه الخلايا عن طريق المضغ في الفم أو العجن في المعدة ، وعليه يكون من الصعب أن تخترق الخمائر والعصائر الهاضمة هذه الجدران لتصل إلى محتوى الخلايا ، وهنا تعمل حرارة الطهي على اطلاق محتوى الخلايا من خلال الانتفاخ الذى يحدث عادة في المواد النشوية وما إليها مما يحطم الجدران الخشبية ، ويؤدى إلى انطلاق المحتويات الغذائية لتكون في متناول العصائر الهاضمة بعد أن كانت حبيسة معزولة داخل جدار الخلية الخشبى .

أثـر الطهى عـلى الزلاليـات

حرارة الطهى لها عدة تأثيرات على جزيئات الزلاليات (البروتين) والدهنيات والنشويات .



غير أن هذه التأثيرات التى قد تكون في صالح سهولة الهضم قد تكون أيضا على حساب القيمة الغذائية لهذه العناصر ، بل وربما تصل في بعض الأحيان إلى تغيير طبيعتها لتصبح مواد ضارة للجسم بدل أن تكون مفيدة .

فالزلاليات التى تتركب من أحماض أمينية قد تتحد بفعل حرارة الطهي ببعض السكريات المختزلة لتعطي نواتج بنية اللون ذات طعم ونكهة جديدة ، لكن الأهم أن هذه النواتج تصبح أكثر مقاومة لفعل العصائر الهاضمة ومن ثم يصبح الطعام أقل قدرا في قيمته الغذائية عنه قبل الطهى ، وهذا مايحدث على وجه الخصوص مع الحامض الأميني المسمى (لايزين)

أما الدهنيات فإن الحرارة الزائدة تعمل على تحللها إلى مركباتها الأصلية وهى الجلسرين والأحماض الدهنية ، وهذا مايحدث عند استعمال الدهون في القلي مدة طويلة ، وهو مايشبه إلى حد كبير عملية التزنخ التى تصيب الدهنيات عند خزنها مدة طويلة في جو حار ، وهذا الأمر قد يؤدى الى سميتها وضررها على الأنسجة المخاطية للقناة الهضمية بسبب تأثير الأحماض الدهنية عليها ناهيك بطعمها المنفر اللاسع .

من هنا تكون النصيحة بعدم الاسراف في تكرار استعمال الزيوت عند القلى عدة مرات أو استعمالها زمناً طويلا .

الفيتامينات والأملاح :

يقسم خبراء التغذية الفيتامينات إلى نوعين :

أولهما الفيتامينات التى تذوب في الدهون وهى فيتامين أ وفيتامين د .

وثانيها الفيتامينات التي تذوب في الماء وهي فيتامين ب المركب وفيتامين ج .

ويعتبر الطهي أحد عوامل فقدان الفيتامينات التي تذوب في الماء ، فيما تعتبر الفيتامينات التي تذوب في الدهون أكثر ثباتا وأكثر مقاومة لتاثير الحرارة . إن الخسارة في أمر الفيتامينات ترتكز على أمرين :

١ ـ دوبان الفيتامينات في الماء ثم طرح هذا الماء المشبع بالفيتامينات الذائبة والتخلص منه .

٢ ـ مفعول الحرارة المدمر لبعض أنواع الفيتامينات الحساسة للحرارة .

ومن أشهر الأمثلة على الأمر الأول مايحدث عند غسل الأرز أو طهيه مما يسبب نقصا فادحا لفيتامين ب المعروف باسم الثيامين الذي يصاب به عدة ضحايا في بلدان شرق آسيا ، يعانون من مرض يعرف باسم البرى برى

أما المثل على تاثير الحرارة المدمر فهو خسارة فيتامين ج المعروف باسم حامض الاسكوربيك فينسبب عن نقصانه مرض الاسقربوط .

من الملاحظ ان اللحوم تخسر من وزنها عند الطهي ما بين ١٠ الى ٤٠ بالمئة ، وتتركز الخسارة على الماء المشبع بما ذاب فيه من فيتامينات وأملاح ناهيك عن فعل الحرارة المدمر أيضا للفيتامينات .

وعلى الرغم من ان الفيتامينات التي تذوب في الدهون من أمثال فيتامين أ وفيتامين د تتمتع بمقاومة لفعل الحرارة المدمر إلا أنها عرضة لمفعول التأكسد المدمر إذا ماتعرضت للهواء والحرارة معا ، لهذا فإن استعمال المقلاة المسطحة في قلي الأطعمة يوفر جوا مناسبا لأكسدة الفيتامينات التي تذوب في الدهون ومن ثم اتلافها وتدميرها .

ولعل أكثر الفيتامينات عرضة لهذا الدمار هي فيتامين ب أو التيامين وحامض الفوليك وهي التي تشتهر بوفرتها في اللحوم وقد تصل نسبة التدمير إلى حوالي ٥٠ بالمئة من محتوى الطعام .

أما اكثر الفيتامينات عرضة للتدمير والضياع في المطبخ فهو فيتامين ج أو حامض الاسكوربيك لأنه سريع التأكسد والتلف بسبب عدة عوامل منها ارتفاع درجة الحرارة ، وزيادة قلوية الوسط الموجود فيه ، كما يعمل النحاس على الاسراع في هذه العملية خاصة إذا ما تعرض الطعام للهواء والاكسجين بوفرة .

فمن المعروف علميا أن أنسجة النباتات تحوى خميرة خاصة يسمونها « الأنزيم » المؤكسد لحامض الاسكوربيك ولكن هذه الخميرة بعيدة عن التماس بفيتامين ج في حال الأنسجة السليمة ، ولكن هرس الفواكه أو تفتيت الأوراق يؤدي الى تدمير الخلايا ومن ثم يعطي الفرصة إلى انطلاق الأنزيم المدمر وتماسه مع حامض الاسكوربيك أو فيتامين ج . ومن هنا يكون التدمير ، وعليه يجب الحرص على شراء وتناول الفواكه والخضروات الطازجة السليمة وتحاشي القديمة منها والتالفة دون اعتبار لأسعارها الرخيصة ، واغراءات البائعين

ولقد لوحظ أن مفعول الأنزيم المؤكسد لحامض الاسكوربيك يتوقف تأثيره عند درجة حرارة ٦٠ مئوية وما فوقها ، لهذا فإن التأثير المدمر لهذه الخميرة على فيتامين ج يمكن تلافيه عند الطبخ بغلي الماء أولا قبل وضع الطعام حتى ترتفع درجة حرارته إلى مافوق ٦٠ مئوية ، كما تطرد الحرارة جميع الهواء والاكسجين الذائب في الماء مع تغطية إناء الطبخ ليكون بمعزل عن الهواء الخارجي ، وبهذا نمنع عملية الأكسدة ، ونبطل مفعول الخميرة المدمرة هذا وينصح بعدم استعمال الأواني النحاسية في عمليات الطهي ، أو استعمال بيكربونات الصودا التي تؤدى الى قلوية الطعام ، وهي التي تدمر فيتامين ج .

إن خبراء الطهي والتغذية يرون أن أواني الطبخ ذات البخار المضغوط توفر جوا أفضل للاحتفاظ بالقيمة الغذائية للطعام لانها تختزل زمن الطهي أولا وتمنع تلامس الطعام مع الهواء ثانيا ، وبهذا فهي توفر ٨٠ بالمئة من القيمة الغذائية فيما لاتوفر الأواني العادية أكثر من ٥٠ بالمئة على أفضل وجه إن لم يكن أقل من هذا بكثير . □

مساحة ود ..

عـــــودة لأيّام الصِّبا

منذ أيام عرض التلفاز فلما سينمائياً عربياً قديما . لم يكن الفيلم ملونا ، بل كان باللونين الأبيض والأسود ، ولم تكن قصة الفيلم مترابطة ، كما لم يكن موضوعه جدّيا ، بل كان أقرب إلى السذاجة . باختصار كان ذلك الفيلم شأنه شأن سائر أفلام ذلك الزمان الذى يعود إلى نحو ثلاثين سنة خلت ، فلماً ساذجاً وبسيطاً ومتواضع القيمة الفنية ، ومع ذلك فقد وجدت نفسي منهمكا في متابعة أحداث الفيلم ومشاهده ، فقد أعاد لى ذكريات صباي الجميلة ، وإعجابي الساذج بممثلي ذلك الزمان الذين كنت أراهم أبطالا نضرين شجعاناً أقوياء كأبطال الأساطير ، وكنت أنظر باعجاب بالغ إلى جمال الممثلات اللواتي أصبحن هذه الأيام يمثلن أدوار الأم الطيبة أو الجدة العجوز .

ومع تتابع أحداث الفيلم التي لم تكن غريبة علي ، وجدت نفسي أذهب في رحلة داخل نفسي . رحلة شاهدت فيها نفسى الصغيرة الطموحة المليئة بالأحلام والآمال والإقبال على حياة لم تكن اظهرت لي سوى وجهها الجميل الواعد . وشاهدت أصدقائى - فتيان ذلك الزمان - الحالمين بمستقبل باسم ، وحياة يشكلونها بأصابعهم الغضة وخيالاتهم التي لا تعرف الحدود .

وشاهدت صوراً غير مترابطة لجو عائلي حميم هو جو عائلتي فى ذلك الزمان ، وسمعت حوارات صامتة تدور بين والدى وأخي الأكبر المولع بالسياسة والأدب والفن .

ولم أعد إلى عالمي الحقيقي ثانية إلا بعد انتهاء الفيلم . لم أكن بائساً ، أو حزينا ، لكنني لم أشعر بالسعادة أيضا ، فقد أعادنى ذلك الفيلم الذى ينتمي إلى زمن بعيد نسبيا إلى ذلك الزمن الذي هو زمني ، وبفضله عشت للحظات حياة كنت أظنها انتهت إلى غير رجعة ، لكننى عشتها بتفاصيل لم أذكرها طوال حياتي المليئة بالعمل والعرق والكفاح ، وكنت أظنها انتهت إلى غير رجعة .

وطاف فى ذهني سؤال عن سر الحياة ، وسر الحزن ، وسر الفرح ، وسر السعادة ، وعن مجموعة الأسرار الصغيرة التي تجعل الحياة حياة حقيقية ، وسؤال آخر عن تلك الأعمال الفنية التي لا تأخذ قيمتها من فنيتها العالية فحسب ، بل من زمنها الذى تعيده بكل ما فيه من فرح وحزن وسعادة وبؤس هو فى النهاية زمننا وحياتنا .

صلاح حزين

بقلم : الدكتور حسن عباس

جَدَبَ.. لاشَجَبَ

كان للصحافة منذ وجدت دور مهم في نقل الخبر الى القارىء ، وبث التعليق على نحو يجعله على صلة دائمة بما يدور حوله في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع وما الى ذلك من شئون الحياة ، ولسنا هنا بصدد تعداد فوائد الصحافة وذكر منافعها والا ضاق عن غايتنا المجال ، على أن في الصحافة ـ على فضلها واهميتها ـ مثالب سوف نقف عند واحدة منها وهي :

أخذ بعض الاخبار أو التعليقات ، أو المصطلحات على علاتها دون البحث عن اصولها ومصادرها ، أو عن وجه الصحة أو الدقة في ايرادها . ولعل هذه الصفة في الصحافة هي التي سوغت للكثيرين من العامة ولخاصتهم وصف بعض ما يرد فيها مما لا تسيغه عقول الناس ، ولا يتفق وطبيعة الاشياء كما يعرفونها بقولهم « كلام جرائد » .

نود في هذا المقام أن نقف عند مثالين مما تُتهم به الصحف من تفريط وبعد عن الدقة . فلقد اشاعت كلمة « شجب » بمعنى أدان ، أو « اعلن غضبه على كذا . . » .

تقول الصحافة :« اعلن متحدث رسمي شجبه للموقف الفلاني أو التصريح الذى ادلى به فلان ، أو المعاهدة الفلانية »

فما وجه الصواب في مثل هذه العبارة وما وجه الخطأ ؟

لنرجع الى مصادر اللغة لنتبين المعاني التي توردها تلك المصادر لكلمة « شجب » .

جاء في لسان العرب : شَجَبَ ، بالفتح ، يَشْجُبُ ، بالضم،شُجُوبا ، وشَجِبَ بالكسر يَشْجِب شَجْبا ، فهو شاجبٌ وشَجِبٌ: اى حَزِنَ أو هَلَكَ . وشجبه الله ، يشجبه شجبا أي أهلكه ، يتعدى ولا يتعدى .

يقال : ما له شجبه الله أي اهلكه . وشجبه يشجبه شجبا : أي حَزَنَه ، وَشَجَبهُ : شَغَلَهُ وفي الحديث : الناس ثلاثة : شاجبٌ ، وغانمٌ، وسالمٌ . فالشاجب الذى يتكلم بالرَّديء ، وقيل : الناطق بالخنا ، المعين على الظلم ، والغانم الذى يتكلم بالخير ، وينهى عن المنكر فيغنم ، والسالم : الساكت .

وجاء في التهذيب : قال ابو عبيد : الشاجِبُ الهالِكُ الآثمُ . قال : وشَجَبَ الرَّجلُ يشجب شُجُوباً إذا عَطِبَ وهَلَكَ في دين أو دنيا . وفي لغةٍ : شَجِبَ يَشْجَبُ شَجْباً ، وهو اجود اللغتين قاله الكسائي . وامرأة شجوب : ذاتُ همٍّ قلبُها متعلق به .

والشَّجَبُ : العَنَتُ يصيبُ الانسان من مرض أو قتال .

قال الأصمعي : يقال انك لتشجبني عن حاجتي ، أي تجذبني عنها ، ومنه يقال : هو يشْجب اللجام أي

يجذبه والشجب : الهمُّ والحَزَنْ . وأشجَبَه الامرُ ، فشَجِبَ لـه شجبا : حَـزِنَ . وشَجَبَ الشيءُ ، يَشجُبُ شَجْبـاً وشجـوبـا : ذَهَـبَ . وشجب الغـرابُ ، يشجب شجيبـا : نعق بـالبـين .

والشجاب : خشبات موثقة منصوبة توضع عليها الثيـاب وتنشـر ، والجمـع شُجُبٌ . والمشجب كالشجاب وهو عيدان يُضَمُّ رؤوسها ويفرَّج بين قوائمها ، وتوضع عليها الثياب . وتشاجب الامر : اختلط ، وقد ورد هذا في « المقاييس » لابن فارس الذى قال الشين والجيم والباء كلمتان تدل احداهما على تداخل ، والاخرى تدل على ذهاب وبطلان .

الاولى قول العرب : تشاجب الامر اذا اختلط ودخل بعضه فى بعض ، قالوا : ومنه اشتقاق المشجب وهى خشبـات متـداخلة مـوثقـة تنصب وتنشـر عليهـا الثياب . . . ويقال الشجاب ، السداد . هـذه هى المعانى التى وقعنا عليها لكلمة « شجب » فـأين منها ذلك المعنى الذى يرمى اليه الفعل على النحو الذى يورده به رجال الصحافة ؟

اننا نذهب الى مـا ذهب اليه الـدكتور مصـطفى جواد حين قال : جميع معانى هذه المادة لا تفيد معنى العيب والاستقباح . فقولهم « شجب المعاهدة » لا يخرج عن ان يعنى سدها أو احزنها ، أو اهلكها او شغلها » فضلا عن ان الشاجب هو المتكلم بالكلام الـرديء،المعين عـلى الظلم ، مـع ان عيب الانسان معاهدة قد يدل على إصلاح وإرشاد وإحقاق حق كما قد يدل عـلى خطأ ، فهـو بحسب مقصد القـائل ، وليس ذلك بالمراد وانما المراد العيب وحده ، ولذلك وجب ان يقال : جدب المعاهدة يجدبها جدبا .

والجـدب هـو العيب . وجـدب الشيء يجـدبـه جدبا : عابه وذمه .

وفي الحديث : جدب لنا عمر السَّمَرَ بعد عتْمةٍ ، أي عابَهُ وذمَّهُ،وكل عائب فهو جادب والى ذلك يشير ذو الرمة حين يقول :

فيـالَـكَ من خـدِ أسيـلٍ ، ومنـطقٍ
رخيـم ، ومِـنْ خَـلْقٍ تـعـلَّلَ جـادبِـهُ

وهو يعنى أنَ الراغب فى ذمه والنيل منه،لا يجد فيه عيبا يعيبه ، فيتعلل بالباطل ، وبالشيء يقولـه ، وليس بعيب . والجادب : العائب .

ومن جنـايـات الصحـافـة انها اشـاعت كلمـة « دكتاتور » والنسبة اليها دكتاتورى وهي كلمة اجنبية لاتينية الأصل . ولسنا نرى في استعمالها وإشاعتها أي مبرر ، فهي كلمة قـديمة ـ كـما لاحظ الدكتـور مصطفى جواد ـ يرجع استعمالها فى الدولة الرومانية الى الحقب التى كان يتولى فيها امر الحكم جبابرة يمكن أن تسند إليهم مهامُ الحكم « اسنادا وقتيا لاتزيد مدته على ستة أشهر يكون في اثنائها غير مسئول عن تبعة أعماله ، وله أن يفعل ما يشاء مما يراه جالبا للمنفعة العامة » .ولو ان الكلمة حديثة لقلنـا إن ضرورات العلم والتقنية الحديثين تلجئنا الى اقتباسها لافتقـار اللغة العربية الى صنو لها أو نظير ، ولكن الكلمـة قديمة وفى لغتنا ما يفيد معناها افادة تامة . فالدكتاتور هو الجبَّار ، والنسبة الى هذه الكلمه جبَّاريٌ . لتنظر فى المعاني التي يوردها صاحب اللسان وغيره .

الجبار : الله عز اسمه ، القاهر خلقه على ما اراد من امر ونهى . قال الازهرى:جعل جبارا في صفة الله تعالى أو في صفة العباد من الاجبار وهو القهر والإكراه . . والجَبَّار : المتكبِّر الذى لا يـرى لاحد عليه حقا . والجَبّار من الملوك : العاتي ، وقيل كل عات جبار وجبير . وقلب جبَّار : لاتدخله الرحمة ، وقلب جبار ايضا : ذو كبر لا يقبل موعظة ، ورجل جبار : مسلط قاهر . قال الله عز وجل . وما انت عليهم بجبار ، أي بمسلط فتقهرهم على الاسلام . والجبار الذى يقتل على الغضب ، والجبار : القتال في غير حق . أليس في كل هذه المعاني التي تحفل بها كلمة « جبار » غنى عن كلمة دكتاتور ومعانيها ؟!□

ـ بلوت رعيتي بالكرم وبالسيف ، فكان الكرم فيها أنجع (المأمون)

جمال العربية

□ صفحة شعر
□ هكذا غنى الآباء

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل!

للطغرائي

الطغرائي هو ابو اسماعيل الحسين بن علي بن محمد بن عبدالصمد . عرف بأكثر من لقب ، ومن القابه المنشيء ، الاستاذ ، العميد ، الاصبهاني وغير ذلك ولكن « الطغرائي » هو اللقب الذي عرف به أكثر من سواه . ولد في عام ٤٥٣ هـ في « جَيّ » باصبهان لاسرة يرجع نسبها إلى أبي الأسود الدؤلي . « فهو على هذا عربي الأصل ، وليس فارسيا كما هو الشائع ، وكما جزم المؤلفون المحدثون دون ان يستقصوا في البحث » .

على حد تعبير الدكتور علي جواد الطاهر محقق ديوان الطغرائي ، والباحث في شعره وآخر شرّاح لاميته التي عرفت « بلامية العجم » . وقد ورد نسبه متصلا بأبي الأسود الدؤلي لدى كل من ابي الفدا ، وابن الوردي ، والبارزي في مختصره لوفيات الاعيان .

وقد يوصف ايضا بالليثي ، و « ان الليث ودؤل من بني بكر بن عبد مناف ، وينظر القلقشندي ومعجم القبائل العربية لعمر رضا كحالة » .

واصبهان التي ينسب الشاعر اليها مدينة كبيرة في بلاد الفرس قصدها العرب بعد الفتح واستوطنوها لجمال طبيعتها واعتدال هوائها وخصوبة تربتها ، اما « جَيّ » فهي « اول ما في اصبهان » . فليس غريبا ـ اذن ـ ان يكون الطغرائي اصبهاني المولد والنشأة ، عربي الأصل والنسب ، فقد سبقه في ذلك صاحب الأغاني : أبو الفرج « الأصبهاني » وهو ـ كما لا يخفى ـ عربي يتصل نسبه بالبيت الاموي .

عاش الطغرائي نابها فطنا ، وقد أنِسَ في نفسه القدرة على شغل أجل المناصب فطمح اليها « وانخرط في سلك الكتاب ، يتقرب من المتنفذين والوزراء ، كمعين الملك ، ونظام الملك ودلف الى السلاطين (السلاجقة) ، فخدم ملكشاه ، ثم ولده محمدا » .

على ان صلته الوثيقة بمعين الملك ـ وهو حامي الطغرائي وسنده ـ كانت سببا في طمأنينته وفي الآمال الكبار التي ظل يمنى النفس بها . وما أن تحلّ بمعين الملك النكبة ، فيعزل من منصبه ، ويودع السجن حتى نرى وفاء الطغرائي صادقا ، فقد وقف الى جانبه ، وأنصفه في عدد من قصائده ، فعدد مآثره . وذكر فضله على الكثيرين .

اشتد الصراع على السلطة بعد وفاة ملكشاه . وكان قطبا هذا الصراع ولديه : بركياق ومحمد . اما الطغرائي فقد لزم جانب الاخير . وفي عام ٥٠٤ هـ حظي بمنصب جيد حين صار نائبا في ديوان الطغراء ، ثم اصبح الصدر الأعظم في هذا الديوان بعد وفاة الامير العميد الذي شغل المنصب سنة ٥٠٥ هـ . على ان هذه السنة حملت من المفاجآت ما لم يسر الطغرائي ، فقد عزل من منصبه وهو ببغداد ، فثقلت عليه الاقامة فيها ، ونظم قصيدتين تصوران محنته هما خير ما قال . والقصيدتان هما لامية مشهورة وبائية لا تقل عنها . اما اللامية فهذه مقتطفات منها :ـ

أصالةُ الرأي صانتني عن الخَطَلِ
وحِليةُ الفَضلِ زانتني لدى العَطَلِ
مَجْدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَعٌ
والشمسُ رأدَ الضحى كالشمس في الطفَل
فيمَ الإقامةُ بالزّوراء لا سكني
بها ولا ناقتي فيها ولا جَمَلي
ناءٍ عن الأهلِ صِفْرُ الكفِّ منفرِد
كالسيفِ عُرّيَ متناهُ عن الخَلَلِ
فلا صَديقٌ إليه مُشتكى حَزَني
ولا أنيسٌ إليه مُنتهى جَذَلي
طالَ اغترابيَ حتى حنَّ راحِلتي
ورَحْلُها وقِرى العسّالةِ الذُّبُلِ
أريدُ بسطةَ كفٍّ أستعينُ بها
عَلى قضاءِ حُقوقٍ للعُلا قِبَلي
والدّهرُ يعكسُ آمالي ويُقنعني
مِنَ الغنيمةِ بعدَ الكدِّ بالقَفَلِ
حُبُّ السلامةِ يثني هَمَّ صاحبهِ
عن المعالي ويُغري المرءَ بالكسلِ
فإن جَنحتَ إليه فاتّخذْ نَفَقاً
في الأرضِ أو سُلَّماً في الجوّ واعتزلِ
ودَع غِمارَ العُلا لِلمُقدِمينَ على
رُكوبِها واقتنعْ منهنَّ بالبللِ
إنّ العُلا حدّثتني وهيَ صادِقَةٌ
فيما تحدِّثُ أنّ العزّ في النُّقَلِ
لو أنّ في شَرَفِ المأوى بُلوغَ مُنىً
لم تبرحِ الشمسُ يوماً دارَةَ الحَمَلِ
أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مُستمِعاً
والحظُّ عَنيَ بالجهّال في شُغُلِ
لعلهُ إنْ بَدا فضلي ونقصُهُمُ
لـ ـنـهِ نامَ عنهمْ أو تنبَّهَ لي
أعَلِّلُ النفسَ بالآمالِ أرقبُها
ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحَةُ الأملِ
لم أرْضَ بالعيش والأيامُ مُقبِلَةٌ
فكيفَ أرْضى وقد ولّتْ على عجَلِ
غالى بنفسيَ عِرْفاني بقيمتها
فصُنتُها عن رَخيصِ القَدْرِ مُبتَذَلِ
وعادَةُ النصلِ أنْ يُزهى بجَوهَرِهِ
وليسَ يعملُ إلا في يدَيْ بطَلِ
تقدَّمَتْني أُناسٌ كانَ شوطُهُمُ
وراءَ خطويَ إذ أمشي على مَهَلِ
هذا جزاءُ امرىءٍ أقرانُهُ دَرَجوا
مِن قبلهِ فتمنّى فُسحةَ الأجلِ
وإنْ عَلانيَ مَنْ دُوني فلا عَجَبٌ
لي أُسوةٌ بانحطاط الشمس عَن زُحلِ
فاصبرْ لها غيرَ مُحتالٍ ولا ضجِرٍ
في حادِثِ الدهرِ ما يغني عن الحيَلِ
أعدى عَدُوِّكَ أدنى مَن وثقتَ بهِ
فحاذِرِ الناسَ واصْحَبْهُمْ على دَخَلِ
وإنما رَجُلُ الدُّنيا وواحِدُها
مَن لا يعوِّلُ في الدنيا على رَجُلِ
وحُسنُ ظَنِّكَ بالأيامِ مَعْجزَةٌ
فظُنَّ شرّاً وكن منها على وجَلِ
غاضَ الوَفاءُ وفاضَ الغَدْرُ وانفرَجتْ
مسافَةُ الخُلفِ بينَ القولِ والعَمَلِ
وشانَ صدْقَكَ عندَ الناسِ كِذْبُهُمُ
وهَلْ يطابَقُ مُعوجٌّ بمُعتدِلِ
يا وارداً سُؤْرَ عيشٍ كلهُ كدَرٌ
أنفَقتَ صفوَكَ في أيامِكَ الأُوَلِ
فيمَ اقتحامُكَ لُجَّ البحرِ ترْكَبُهُ
وأنتَ يكفيكَ مِنهُ مَصَّةُ الوَشَلِ
مُلكُ القناعةِ لا يُخْشى عليهِ ولا
يُحتاجُ فيهِ إلى الأنصارِ والخَولِ
ترجو البَقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها
فهَلْ سَمِعْتَ بظلّ غيرِ منُتقِلِ
ويا خبيراً على الأسرارِ مُطَّلِعاً
اصمُتْ ففي الصَّمتِ مَنجاة مِنَ الزَّلَلِ
قد رَشَّحوكَ لأمرٍ لوْ فطنتَ لهُ
فاربأ بنفسكَ أن تَرعى معَ الهَمَلِ

يخلق الطموح لدى بعض من يركبون صهوته شعورا بالعزة ، واعتدادا بالنفس ، وكبرياء تأنف الخضوع . وتعظم هذه الأوصاف في نفس صاحبها

اذا لم يفز بالمراد ولم يبلغ الغاية . أنظر الى المتنبي وهو الطامح الأكبر تجده يقول بيتا في مدح من تلجئه الحاجة الى مدحه ، ويقول ابياتا في مدح نفسه والفخر بشعره وأدبه . ولم يشذ الطغرائي عن ذلك ، فقد كان طامحا يرى في نفسه من القدرة والعلم والادب والبلاغة والفصاحة ما يؤهله لبلوغ ما يطلب لها : رفعة ، وسؤددا . فاذا خاب ظنه في الدنيا والناس ، وأغلق اليأس في وجهه منافذ الرجاء ، فزع الى الشعر يودعه سرَّه ، ويبثه شكواه .

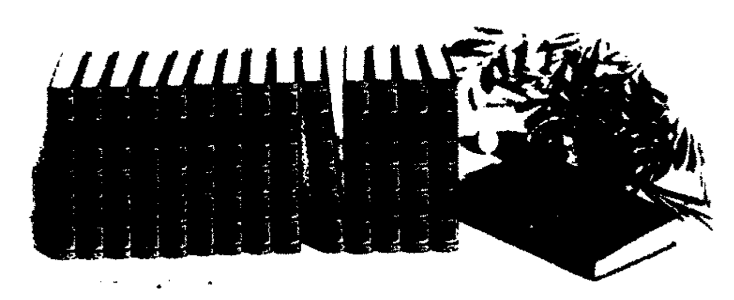
على ان القصيدة تحفل بغير ذلك من عواطف جامحة حينا ، هادئة رصينة حينا آخر . ويكثر هذا التعاقب بين الوان متباينة من العواطف حتى نظن انه يفقدها تسلسلها المنطقي ، ولكنه ـ على اي حال ـ يبقى على وحدتها النفسية . ذلك ان ما اصاب الشاعر من غدر الناس والزمان أفقده التوازن لبعض الوقت ، فصار يضرب خبط عشواء . فاذا فاء الى شيء من الطمأنينة ، وعاوده الفكر المتأمل الهادىء ، لاذ بالعقل ، واستظل بظله فكان له من ذلك اللواذ وقفات حكيمة صاغها شعرا ، فجرت مجرى المثل لشدة تمثلها لتجربة الشاعر الانسان .

استهل القصيدة بالفخر ، فهو ذو فضل ورأي أصيل ، يزدان بها اذا فقد ما كان يزدان به من قبل (المنصب الرسمي) . انه كالشمس لا يغير من جوهرها أن تكون في الضحى او أن تكون قرب المغيب . ولكنه ـ وهو يحاور نفسه ـ يستدرك ، فبعد ان جعل من فخره عزاء وسلوى ، تنبه الى واقع الحال بعد عزله . ما جدوى الاقامة في بغداد بعد الذي كان ؟ لقد بعد به العهد عن الاهل والأصدقاء ، فإليهم ـ دون غيرهم ـ يشتكي حزنه ، وهم ـ دون غيرهم ـ يشاطرونه أفراحه . ثم يصحو من حلم اليقظة وينحي العواطف التي تبعث الشجن جانبا ، ويهديه العقل والطموح معا الى القول ان حب السلامة يثني هم صاحبه عن المعالي ، ويغري بالكسل . فهل هذا هو ديدنه ؟ ألم ينفق العمر في طلب العلى ؟ بلى ، ولقد افضت اليه العلى بحكمة ترى ان العز قرين الترحال ، فليرحل اذن ! ان له في ارتحال الشمس كل يوم أسوة .

مثل هذا الجدل الذي يعمد الى المنطق يستفتيه في تفسير الظواهر لا يصمد طويلا ، فالنفس مضطربة ، والاحزان تملؤها ، فاذا جنحت الى السكينة ساعة ، عادت الى التبرم والشكوى ساعة اخرى ، وما ذلك الا لعظم المصيبة . لقد فقد بعزله السلطان والجاه والمكانة المرموقة ، فليندب الحظ ، ويلقي عليه من اللوم ما يشاء .

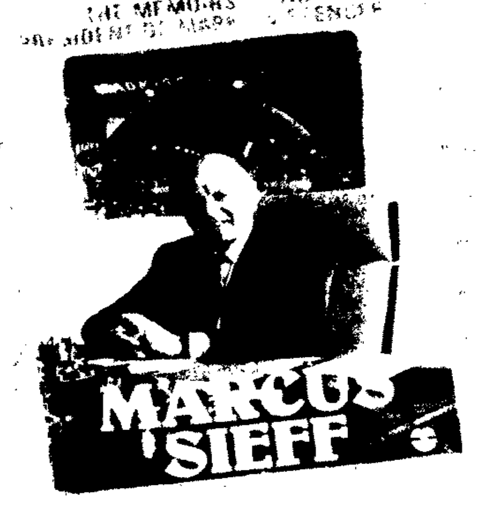
على ان اشد ما يؤلمه ان الحظ شغل عنه بالجهلة ، يعطيهم ما يشاؤن وينزلهم المكانة العظيمة في حين ينحيه عنها وهو العالم الفاضل الاديب ! ويلوح في افق النفس بعض الفرج : ما اضيق العيش لولا فسحة الامل ! وتعاوده الأنفة وكبرياء الطموح . لن يستكين ! كلا ، بل يدفع هذا القدر العاتي دفعا ، وله من تجارب الماضي ما يشد به ازره . لم يكن يرضى بأيام كان له فيها مجد وسؤدد ، فكيف يرضى الآن وقد عركته الأيام ، وعمقّت من تجربته وخبرته ؟ ظل دائما يحفظ لنفسه قدرها وفي ذلك عزاء . انه سيف مصقول ذو معدن أصيل ، ولكن السيوف لا تنبيء عن مضائها الا في أيدي الابطال ! فمن أين له بالبطل الذي يظهر مضاءه وأصالة معدنه ؟ قد يجد عزاء في كل ما جال بخاطره من افكار ، ولكنه لا يغفر لذوي السلطان ولا للحظ ، ان يتقدمه اناس دونه علما وفضلا . وتهدأ الثورة قليلا ، ويهتدي الى حكمة التأسي بالصبر ، فالايام دول ولا بد من تغير الحال . على ان الذي لا يمكن احتماله هو غدر الناس ولؤمهم ، فليعلنها عليهم حربا . ان « اعدى عدوك من وثقت به » ، ولا عجب فقد « غاض الوفاء ، وفاض الغدر . . . » ، مثل هؤلاء الناس ينبغي للمرء ان يعتزلهم وينأى بنفسه عن شرورهم .

القصيدة حافلة بهذا اللون من القلق المبدع ، وهي تصوير صادق لتجربة عاشها الشاعر بكل خلجات نفسه ، وصورها على خير ما يكون التصوير : عواطف متقدة وثورة جامحة ، وهدوء عاقل ، وحزن وقور ، وحكمة بالغة !□



كتاب الشهر





تأليف : ماركوس سيف

عرض وتحليل :

الدكتور ياسر سليمان *

يسجل هذا الكتاب الذي صدر حديثاً في بريطانيا السيرة الذاتية « لماركوس سيف » ، الرئيس المتقاعد لمحلات « ماركس وسبنسر » التي تنتشر في كافة المدن البريطانية ، بالاضافة لانتشارها في كندا وبعض أقطار أوروبا الغربية ، كفرنسا وألمانيا مثلا . وهذه المحلات معروفة لدى الكثير من العرب ، وخاصة أولئك الذين يزورون بريطانيا بهدف الدراسة أو العلاج ، أو الاقامة ، أو السياحة أو غيرها من الأغراض . فما هي ملامح هذه السيرة ؟

---

* أستاذ بكلية سان سلفاتور جامعة سانت أندروز - أسكتلندا



ينصب الاهتمام في هذا الكتاب على أمرين رئيسيين . الأول ، تاريخ محلات « ماركس وسبنسر » منذ نشأتها في مطلع هذا القرن في مدينة مانشستر في انجلترا وحتى يومنا هذا . والثاني ، هو العلاقة الحميمة التي ربطت أصحاب هذه المحلات بالمسألة اليهودية قبل قيام اسرائيل ، والتي مازالت تربطهم بهذه الدولة منذ قيامها وحتى أيامنا هذه . لقد قامت هذه العلاقة على أكتاف عائلة « ماركوس سيف » بحكم انتمائها الصهيوني أولا ، وديانتها اليهودية ثانيا ، كما يعترف صاحب هذه السيرة الذاتية في أكثر من مكان في مذكراته ، فمثلا نراه يقول : « ولم تكن عائلة « ماركس » دينية النزعة . . . لكن الحركة الصهيونية كانت عند كلتا العائلتين (اللتين أنشأتا محلات ماركس وسبنسر) أمرا آخر . أما أنا فقد كنت على علم بوجود هذه الحركة قبل أن تتشكل عندي فكرة تذكر عن الديانة اليهودية ومعناها . وإلى حد كبير تطور هذا الاتجاه لدى كلتا العائلتين نظرا للعلاقة التي كانت تربط والدي و« سيمون » (شريكه في العمل) منذ شبابهما المبكر مع الدكتور « وايزمان » ونظرا للدور الذى لعباه في الحصول على وعد بلفور ، وتأسيس الوطن القومي اليهودي »

سنركز اهتمامنا في هذا العرض على الأمر الثاني ، السابق ذكره ، وضمن هذا الاطار ، سنسلط الأضواء على الدور الذى لعبه « ماركوس سيف » وعائلته ، من طرفي والده ووالدته ، في قيام اسرائيل وفي دعمها منذ تاريخه ، فكما يقول صاحب هذه السيرة الذاتية « كانت مساعدة ودعم الوطن القومي اليهودي في فلسطين أولا ، ومن ثم دولة اسرائيل ، هدفا هاما من أهداف حياتي » (ص ٢٦) . كما سنسلط الأضواء ضمن نفس الاطار على كثير من المغالطات المتعلقة بالنزاع العربي الاسرائيلي التي نواجهها في أكثر من موضع في هذه السيرة الذاتية التي لاقت رواجا بين القراء في بريطانيا . فالكتاب الذي بين أيدينا وصل في هذا البلد الى المركز الأول بين الكتب غير القصصية من حيث عدد النسخ التي نفذت منه ، وظل بين الكتب العشرة الأكثر رواجا في بريطانيا حتى منتصف هذا العام تقريباً .

مسحور بوايزمان

تعود العلاقة بين عائلة « ماركوس سيف » والحركة الصهيونية الى مطلع هذا القرن ، حيث كان والد ماركوس سيف عضوا بارزا في الحركة الصهيونية في بريطانيا . وشاركه هذا الانتماء عمه « سايمون » شريك والده في العمل . ومن العوامل التي زادت العلاقة عمقا والتزاما التقاء هذين الرجلين مع وايزمان ، زعيم الحركة الصهيونية في النصف الأول من هذا القرن ، والذى كان يعمل مدرسا للكيمياء في جامعة مانشستر . وقد وصف ماركوس سيف هذا اللقاء بقوله : « أصبح وايزمان معبودي الأول منذ اللحظة الأولى التي قابلته فيها ، فقد أخذت استمع اليه كالمسحور » ، ويصف ماركوس سيف الأثر الذى تركه هذا اللقاء على والده كالتالي : « ومنذ لقائه الأول مع وايزمان ، حول مائدة العشاء مع بعض الأصدقاء ، أخذ والدي يجمع له الأموال على مستوى لم يفعله من قبل (للحركة الصهيونية) وبنجاح عظيم . وأصبح والدى سكرتير وايزمان غير الدائم دون أن يتقاضى راتباً وبالاضافة إلى جمع الأموال لدعم الحركة الصهيونية ، أدرك والد ماركوس سيف وعمه سايمون أهمية الإعلام في كسب الرأى العام البريطاني ، فأنشأ « مجلة فلسطين » بالتعاون مع قريب لهما كان يعمل صحفيا في « جريدة الجارديان » الصادرة في مانشستر ، أما الهدف الرئيسي لهذه المجلة التي كانت تنطق باسم « لجنة

فلسطين البريطانية » فقد كان ايصال آراء الصهاينة البريطانيين الى مسامع الحكومة البريطانية .

وتوطدت العلاقة بين وايزمان ووالد ماركوس سيف على مدى الأيام ، بل أصبحت من القوة بحيث طلب وايزمان منه أن يصحبه الى لندن ليقابلا بلفور . الذي كان يشغل منصب وزير خارجية بريطانيا أثناء الحرب العالمية الأولى . وعندما تكللت مساعي وايزمان بالنجاح ، وذلك بحصوله على وعد بلفور من الحكومة البريطانية ، تم بعدها تشكيل « الهيئة الصهيونية » التي كلفت بزيارة فلسطين من أجل تحديد أنجع الطرق لتطبيق وعد بلفور . وقد ضمت هذه الهيئة في عضويتها وايزمان نفسه الذى طلب من والد ماركوس سيف أن يرافقه الى فلسطين كمساعد خاص له ، كما اصطحبه معه الى مؤتمر السلام في فرساى سنة ١٩١٩ ، الذى تم فيه منح بريطانيا مسؤولية الانتداب على فلسطين ، وإلى مؤتمر سان ريمو عام ١٩٢٠ حيث تمت الموافقة على صك الانتداب وعلى تصريح وعد بلفور .

وقد سار ماركوس سيف على خطوات أبيه ، فكما يقول في مذكراته « كنت أحد تلامذة وايزمان الأوائل » . الا أن دور ماركوس سيف في دعم الحركة الصهيونية والتفاني في خدمتها اختلف عن دور والده بعض الشيء ، وذلك نظرا لاختلاف الظروف التاريخية التي احاطت بهذه الحركة عبر سني نشأتها ونموها . فبينما اقتصر مجهود والد « ماركوس سيف » على تقديم الدعم المادي والمعنوي للحركة الصهيونية ، تجاوز مجهود ابنه ذلك الى حد المشاركة الفعلية في حرب عام ١٩٤٨ ، التي كانت نتيجتها تثبيت أقدام اسرائيل في المنطقة العربية . ففي النصف الثاني من شهر(مايو)أيار عام ١٩٤٨ غادر « ماركوس سيف » انجلترا الى فلسطين تلبية لنداء شخصي وجهه اليه « بن غوريون » الذى كان قد أعلن ميلاد الدولة الجديدة قبل ذلك بأيام قليلة . وقد أوكل « بن غوريون » الى « ماركوس سيف » مسؤولية الاشراف على مهام النقل والامدادات ، مستفيدا بذلك من خبرة هذا الأخير التي اكتسبها في هذا المجال عندما كان يعمل ضابطا في الجيش البريطاني في شمال أفريقيا ومصر خلال الحرب العالمية الثانية . كما أنه أوكل اليه مهام أخرى قام بها بتفان والتزام حتى تاريخ مغادرته فلسطين المحتلة في عام ١٩٥١ .

ولم يتوان « ماركوس سيف » عن اتباع أية وسيلة لتحقيق مهماته . فنراه يسرد في كتابه كيف احتال مرة على مراقبي هيئة الأمم المتحدة بادخال شحنة من الأسلحة الى فلسطين المحتلة خلال فترة الهدنة الأولى في شهرى(يونيو)حزيران و(يوليو)تموز عام ١٩٤٨ ، هذا ما يقوله « ماركوس سيف » عن هذه الحادثة : « عينت الأمم المتحدة مراقبين على طول الساحل خلال فترة الهدنة وذلك لأنه لم يكن مسموحا لكلا الطرفين (اليهود والعرب) الحصول على أسلحة اضافية في حينها . وبالطبع لم يخلق هذا الحظر مشكلة للعرب الذين أدخلوا الأسلحة الى فلسطين عبر حدودهم معها ، أما اسرائيل فقد كان البحر منفذها الوحيد . وعندما ثبت الرأى على تفريغ شحنة من مدافع الميدان (لحساب اسرائيل) بالقرب من نتانيا (شمال تل أبيب) ، أقمت حفلة في بيتنا في تلموند لمراقبي الأمم المتحدة في منطقة نتانيا ، دعوت اليها مجموعة من الفتيات الاسرائيليات الفاتنات الجمال وطلبت منهن أن يعملن ما بوسعهن على ألا تنتهي الحفلة قبل الساعة الثالثة صباحا ، حيث تكون مهمة تفريغ شحنة مدافع الميدان قد تمت عندها . لقد حصل هذا فعلا . »

وبالعمل لصالح اسرائيل خلال حرب عام ١٩٤٨ يكون « ماركوس سيف » قد ضرب بالقانون البريطاني عرض الحائط . فالقانون البريطاني لا يسمح لضباطه الاحتياط بالانضمام الى قوات أية دولة أخرى لا تعترف بها بريطانيا رسميا . ولذا لم يكن يحق لماركوس سيف أن يعمل في صف القوات الاسرائيلية نظرا لكونه ضابط احتياط في الجيش



البريطاني ، ونظرا لأن بريطانيا لم تكن قد اعترفت باسرائيل رسميا بعد في عام ١٩٤٨ .

بريطانيون في الجانبين

يثير « ماركوس سيف » هذه المسألة في مذكراته ، الا أنه يحاول تبرير تصرفه من منطلقين . الأول ، هو أن بعض الضباط البريطانيين كانوا يعملون في جيوش عربية . والثاني ، هو أنه لم ينضم رسميا الى القوات الاسرائيلية وذلك لأنه لم يوقع أية وثيقة تثبت ذلك . ولا يخفى طبعا بأن هذين المنطلقين ليسا إلاّ مبررين واهيين . فالضباط البريطانيون الذين كانوا يعملون في الجيوش العربية في حينه فعلوا ذلك إمّا بتكليف من حكوماتهم الرسمية أو بموافقة ضمنية منها إذا لم يكونوا ضباطا أو ضباط احتياط في الجيش البريطاني ، كما أن الجيوش التي كانوا يعملون فيها كانت جيوشا لدول تربطها ببريطانيا علاقات اعتراف متبادلة رسمية . وكل هذا لا ينطبق على « ماركوس سيف » من جهة ، أو على الجيش الأسرائيلي من جهة أخرى . أما المنطلق الثاني فهو ليس إلاّ نوعا من الحذلقة التي ترمي الى الالتزام بنص القانون على حساب جوهره ومحتواه .

ليس هدفنا الأساسي مما قلناه في الفقرة السابقة بيان عدم شرعية مشاركة « ماركوس سيف » في حرب عام ١٩٤٨ لصالح اسرائيل ، بل الاشارة الى قضية أخطر وأعمق ، ألا وهي مسألة الإنتماء الصهيوني . هل ينتمي الصهيوني الملتزم بصهيونيته الى بلده أولا - سواء كانت بريطانيا أم أمريكا مثلا - والى اسرائيل ثانيا ؟ أم العكس ؟

لا شك عندنا بأن الصهيوني الملتزم ينتمي الى اسرائيل أولا ثم الى بلد مواطنيته ثانيا . ولا شك عندنا أيضا بأن هذا ينطبق على « ماركوس سيف » ، على الرغم من وجود « المؤشرات » التي قد يعتبرها البعض دليلا على خطأ رأينا ، كرفض هذا الرجل الاستقرار في اسرائيل مثلا . فهذا الرفض نابع من اعتبارين . الأول ، هو مصلحة ماركوس سيف الاقتصادية المتمثلة بمحلات « ماركس وسبنسر » ، والمتعلقة أيضا باستمرار نجاح هذه المحلات . أما الاعتبار الثاني فيتمثل بقناعة ماركوس سيف بأن استقراره خارج اسرائيل أكثر فائدة لها من استقراره فيها ، وخاصة من الناحية السياسية . فمثلا عندما طلب « بن غوريون » من « ماركوس سيف » أن يستقر في اسرائيل ، اعتذر عن عدم تلبية هذا الطلب ، قائلا : « أعتقد بأني أكون أكثر فائدة لاسرائيل عن طريق مواكبة التطورات التي تجرى فيها ، وشرح هذه التطورات لزعمائنا في (بريطانيا) ، كما أني أنوى مزاولة عملي في « ماركس وسبنسر » محافظا في نفس الوقت على علاقاتي الحميمة مع اسرائيل » .

كما أننا نرى أن انتماء « ماركوس سيف » لاسرائيل بالدرجة الأولى ، يفسر عزوفه عام ١٩٧٤ عن قبول منصب سفير بريطانيا في اسرائيل الذي عرضه عليه « كالاهان » وزير خارجية بريطانيا حينئذ . أما السبب الذي أبداه ماركوس سيف لعزوفه هذا ، فهو علاقاته الحميمة مع اسرائيل ، الأمر الذي سيجعل البعض يعتقد بعدم صلاحيته كسفير لأنه لا يستطيع في نظرهم الا أن يقدم مصالح اسرائيل على مصالح بريطانيا ، حتى لو تصرف بعكس هذا . وفي رأينا أن السبب الحقيقي لعزوف « ماركوس سيف » عن قبول منصب سفير بريطانيا في اسرائيل يعود إلى إدراكه بأن قبوله لهذا المنصب سيكون بمثابة عملية « تخنيث » سياسي له ، حيث سيكون مضطرا بحكم طبيعة

منصبه ، والالتزامات المترتبة على هـذا المنصب أن يرعى مصالح بريطانيا في اسرائيل بدلا من تكريس طاقاته لرعاية مصالح اسرائيل في بريطانيا . فلو كان انتهاء « ماركوس سيف » لبريطانيا أولا لما برر موقفه بالشكل الذى عرضناه ، مع اعترافنا بأن هذا التبرير يدل على حنكة سياسية بارعة قابل صاحبها بها غارة شنها عليه السياسي المحنك « جيمس كالاهان » والذي كان بلا شك يهدف الى تقوية مركز بريطانيا في اسرائيل عن طريق استخدام تأثير « ماركوس سيف » هناك على الصعيدين الرسمي والشعبي . فلو قبل « ماركوس سيف » عرض « كالاهان » لما استطاع أن يستمر في خدمة اسرائيل بالشكل الذي نذر نفسه له .

وقد ترجم « ماركوس سيف » انتماءه لاسرائيل أيضا عن طريق المساعدات الاقتصادية والتقنية التي قدمتها ومازالت تقدمها محلات « ماركس وسبنسر » لاسرائيل في مجالات عدة ، أهمها الزراعة وصناعة النسيج . فمحلات « ماركس وسبنسر » هي أكبر مسوقي المنتوجات الزراعية الاسرائيلية في بريطانيا ، سواء في ميدان الحمضيات والفواكه الأخرى ، أو في مجال الخضراوات . كما أن هذه المحلات ساعدت على تطوير صناعة النسيج في اسرائيل وعلى توفير فرص عمل لعدد كبير من العمال الاسرائيليين وذلك عن طريق استيرادها لكميات كبيرة من الملابس المصنوعة هناك . فاسرائيل هي أكبر مزود خارج بريطانيا يمد محلات « ماركس وسبنسر » بالبضائع .

كما قدمت عائلة « ماركوس سيف » مساعدات طائلة لاسرائيل في مجال البحث العلمي . فمعهد وايزمان للعلوم تطور عن « معهد دانيال سيف للبحث العلمي » الذي تم انشاؤه في النصف الأول من هذا القرن على نفقة والد « ماركوس سيف » تخليدا لذكرى ابنه دانيال الذي توفي في صغره . وقد سار « ماركوس سيف » على خطوات والده في دعمه « لمعهد وايزمن » وذلك عن طريق التبرع له مباشرة أو جمع التبرعات له من أصدقائه الأثرياء في العالم . واعترافا بخدمات « ماركوس سيف » لهذا المعهد تم انتخابه رئيسا له في السبعينيات من هذا القرن .

المغالطات المتعمدة :

يحتوي الكتاب الذي بين أيدينا على عدد كبير من المغالطات المتعمدة مما يجعله في رأينا وثيقة تهدف إلى الدعاية لاسرائيل والحركة الصهيونية . ومصدر الكثير من هذه المغالطات اقتصاد الكاتب في ذكر الحقيقة . فبينما يسجل الكاتب الواقعة التاريخية الصحيحة بأن العرب رفضوا قرار التقسيم في سنة ١٩٤٧ ، مقارنا ذلك بقبول زعماء الصهاينة لهذا القرار ، نراه لا يذكر الضغوط التي وضعتها أمريكا على بعض الدول الصغيرة الأعضاء في الأمم المتحدة لتأييد مشروع هذا القرار بهدف خدمة الحركة الصهيونية . كما نراه لا يذكر بأن رفض العرب لهذا القرار تبرره عدالة قضيتهم تاريخيا وسكانيا ، خاصة وأن مشروع القرار أعطى الحركة الصهيونية جزءا من فلسطين لا يتناسب في حجمه مع تعداد اليهود فيها ، هذا بالاضافة الى كون هذا الجزء يمثل اغنى أراضي فلسطين زراعيا . وأنه يزيد على الجزء المخصص للدولة اليهودية بموجب قرار التقسيم بنحو الثلث .

ويجانب الكاتب الحقيقة عندما لا يذكّر قراءه بأن اسرائيل تآمرت مع كل من فرنسا وبريطانيا في شن هجومها على مصر في حرب السويس ، وبأن مصر لم يكن في نيتها الهجوم على اسرائيل في حرب حزيران سنة ١٩٦٧ ، كما صرح بذلك عبدالناصر عدة مرات في حينه . ويبتعد الكاتب عن الحقيقة عندما يذكر بأن عشرات الآلاف من الفلسطينيين تركوا ديارهم ، دون أن يشير الى دور الصهاينة الذين استعملوا كافة الوسائل المتاحة لهم لتحقيق هذا الهدف ، كما أثبتت دراسة أخيرة أجراها باحث اسرائيلي واعتمد في نتائجها على وثائق رسمية اسرائيلية .

ومن المغالطات الأخرى التي يعج بها الكتاب



الاشارة الى بعض الممارسات الارهابية التي قامت بها العصابات الاجرامية في فلسطين بشكل يقلل من هويتها الارهابية أو يجردها منها ، مستخدما في ذلك أسلوب اللعب بالكلمات . فمذبحة دير ياسين تكاد تفقد صفتها الإجرامية والإرهابية عندما يصفها « ماركوس سيف » بالشكل التالي : « وفي التاسع من نيسان عام ١٩٤٨ هاجمت الأرغون ، التي كانت في حينه جماعة ارهابية ، قرية دير ياسين العربية ، حيث قتلت عددا من النساء والأطفال والرجال أيضا » .

أما عملية نسف فندق الملك داود ، وغيرها من العمليات الإرهابية الأخرى ، فإنها تتجرد من صفتها الإرهابية عندما يصفها « ماركوس سيف » كما يلي : « كان (مناحيم بيجن) يقود حملة الأرغون المتعنتة جدا ضد الحكم البريطاني في فلسطين بعد الحرب العالمية الثانية ، كما قام بعدد كبير من العمليات المتطرفة ، التي حاول بن غوريون وزملاؤه إيقافها ، ولكن بلا نجاح » .

ويستعمل « ماركوس سيف » في سيرته الذاتية أسلوب الإيماء والإيحاء في دس مغالطاته إلى عالم القارىء غير المتنبه . فالمشكلة الفلسطينية تصبح مشكلة لاجئين فلسطينيين خلقتها الحكومات العربية التي رفضت توطين الفلسطينيين في بلادها عندما يقارنها « ماركوس سيف » مع هجرة اليهود الى فلسطين المحتلة ، ومساعي اسرائيل الجادة لتوطينهم فيها . وفلسطين تتمثل للقارىء بلادا جرداء قاحلة قبل وصول الصهاينة إليها . ويصف « ماركوس سيف » الأرض التي أقام والداه عليها مزرعة في الثلاثينيات من هذا القرن : « يعود تاريخ هذه المزرعة الى منتصف الثلاثينيات عندما اشترى والدى أرضا على بعد خمسة عشر ميلا شمال تل أبيب بالقرب من قرية تدعى تلموند . . . كانت هذه الأرض رملا في معظمها . . . وعندما وجد والداي مصدرا للماء فيها ، حوَّلا تربتها الرملية إلى تربة من الدرجة الأولى وطوَّراها كمزارع حمضيات. فماركوس سيف هنا يحاول تكريس دعوى الصهيونية الباطلة بأن فلسطين كانت صحراء قاحلة قبل قدوم الصهاينة اليها ، وبأن الصهاينة هم الذين حولوها الى حديقة مزهرة . وبالمثل يجرد المسيحيين الفلسطينيين من هويتهم العربية عندما يقول صاحب هذه السيرة الذاتية : « لا يوجد مكان في الشرق الأوسط أكثر أمنا من القدس اليوم ، حيث يعيش اليهود والعرب والمسيحيون معا في سلام » ويخالف ماركوس سيف الحقيقة بشكل سافر عندما يقول بأن الضفة الغربية ، بما في ذلك القدس القديمة ، كانت محتلة من قبل الأردن فيما بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٦٧م . وما هدف هذه المقولة إلا الإيحاء للقارئ العربي غير المطلع بأن الإحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية لا يختلف في جوهره عن الوضع الذي كان قائما فيها قبل عام ١٩٦٧م ، خاصة من الناحية القانونية . ويترتب على هذه المقولة طبعا مغالطات أخرى لا مجال لشرحها هنا ، بل يكفي أن نذكر الهدف منها ، ألا وهو تبرير الإحتلال الإسرائيلي لهذا الجزء من فلسطين على اعتبار أنه كان محتلا سابقا .

ويدوس على الحقيقة بلا رحمة عندما يعزو تطرف بيجن وتمكنه من السلطة في اسرائيل الى حالة التطرف التي أصابت المجتمع الإسرائيلي نظرا للضغوط التي وضعها « كارتر » على هذه الدولة لقبول مبدأ السلام مقابل الأرض . وبهذا يتناسى « ماركوس سيف » تاريخ بيجن الإرهابي المتطرف ، والتحول الديموغرافي الذي أصاب البنية الهيكلية للمجتمع الإسرائيلي نظرا لازدياد عدد اليهود الشرقيين فيها .

أما هدف « ماركوس سيف » من ادعائه هذا فهو إقناع القارئ الغربي بعدم جدوى وضع أية ضغوط على إسرائيل لأن هذا يزيدها تطرفا لا اعتدالا .

كرة السلام

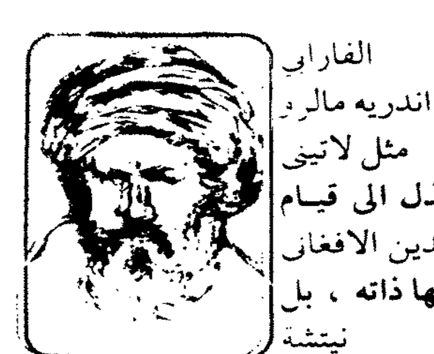
ويستهتر « ماركوس سيف » بالحقيقة عندما يشيد بجهود إسرائيل للوصول الى السلام في الشرق الأوسط ويقابلها بتعنت العرب المزعوم . ويمثل موقفه هذا قوله : « وفي هذه الفترة التي أكتب فيها مذكراتي تقف « كرة السلام » في منتصف الملعب العربي . وللأسف هناك شحة في الأدلة التي توحي بأن العرب على استعداد للإمساك بها » . كما يؤيد

ماركوس سيف موقف اسرائيل بعدم التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية لعدة أسباب ، أهمها عدم قبول المنظمة بقراري ٢٤٢ و ٣٣٨ اللذين يطالبان بضرورة الإعتراف بإسرائيل ، وبحقها في العيش ضمن حدود آمنة ، ودعوة هذه المنظمة إلى « تدمير دولة اسرائيل » . ولا يذكر الكاتب طبعا استعداد منظمة التحرير الفلسطينية لقبول كافة قرارات الأمم المتحدة المتعلقة بفلسطين ، بما في ذلك قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ . أما سبب عدم قبول منظمة التحرير بهذين القرارين دون غيرهما من القرارات فمنبعه طبعا أن مشكلة فلسطين في هذين القرارين تعتبر مشكلة لاجئين ، لا مشكلة حق تقرير مصير . ولو أتيحت

الفرصة لمحكم موضوعي أن يمارس التحكيم في « لعبة السلام » في الشرق الأوسط لكان حكمه بأن كرة السلام راسخة في منتصف الملعب الإسرائيلي ، وأن اسرائيل لا تنوى تحريكها على الإطلاق .

فشامير ، زعيم حزب الليكود ورئيس وزراء اسرائيل حاليا ، يرفض رفضا باتا قبول مبدأ الأرض مقابل السلام ، بل سمعناه يقول في مقابلة له في مارس/ آذار الماضي على التلفاز البريطاني بأن اسرائيل ستدوس على الفلسطينيين كما لو كانوا « جنادب » . فما رأى « ماركوس سيف » الصادق بهذا التصريح وبغيره يا ترى ؟ وهل تذكره هذه التصريحات بتصريحات النازية ضد اليهود في النصف الأول من هذا القرن ؟ □

●



■ من رفع نفسه فوق قدرها ، صارت محجوبة عن نيل كمالها . — الفارابي

■ تاريخ الفن هو تاريخ تحرر الانسان . — اندريه مالرو

■ إن أردت السلم فتأهب للحرب . — مثل لاتيني

■ أمة ثبتت في جهادها لأخذ الحق ساعة ، خير لها من الحياة في الذل الى قيام الساعة . — جمال الدين الافغاني

■ لا تعد فضائل الشخص خيرا ، نظرا لما تعود به من نتائج على صاحبها ذاته ، بل بالنسبة الى ما ننتظر من نتائجها علينا وعلى المجتمع . — نيتشة

■ الانسان الحر مالك نفسه تماما ، ومملوك لقومه تماما . — عبد الرحمن الكواكبي

■ ليست الأنانية أن يعيش المرء كما يهوى . . بل ان يطالب الآخرين ان يعيشوا كما يريد هو أن يعيش . — اوسكار وايلد

■ لا أحب الحديث مع الناس والذين يوافقوني على كل شيء أقوله ، فقد تجد متعة بعض الوقت في مداعبة صدى صوتك برهة قصيرة ، ولكنك سرعان ما تشعر بالملل . — توماس كارليل

السخرية السياسية العربيّة

بقلم : شريف الراس

من حسن الحظ أن هذا الكتاب ، الصادر باللغة الانكليزية أساسا ، قد ترجم إلى العربية ، ذلك أن القاريء الأوربي قد لايصاب بالاكتئاب إذا غابت عنه البسمة أو السخرية أو النكتة يوما أويومين ، بينما أصبحت هذه الأمور بالنسبة للقاريء العربي - وفي هذا الزمن على وجه التحديد - ضرورة حياتية ، كالهواء والشمس والماء ، بل إن « البسمة » اليوم تشبه غاز الأوكسجين في غرفة إنعاش الإنسان العربي .

مع أن المؤلف ، وهو الأستاذ خالد القشطيني الكاتب العربي المقيم في بريطانيا منذ ربع قرن ، لم يؤلف كتابه الطريف لهذا الغرض ، وإنما كتبه وهو متوجه توجها معاكسا تماما ، إنه يريد أن يخاطب أبناء الغرب ، ولذلك ألفه باللغة الانجليزية ، وغرضه أن يصحح تصورات أبناء الغرب عن طبيعة الإنسان العربي ، كأنه يريد أن يقول للأوربيين : نحن العرب قوم ساخرون أيضا ، ونضحك أحيانا .

يقول الاستاذ خالد : لقد ألفت هذا الكتاب بالانجليزية (لشعوري بعظم ثروتنا الأدبية في ميدان الفكاهة والظرف ، وجهل الغربيين التام تقريبا لهذه الثروة) خصوصا أن هؤلاء الغربيين (يعتبرون الفكاهة وروح النكتة جزءا أساسيا من الحضارة والفن والأدب ، ودليلا على النضوج وسماحة الخلق والميل إلى السلام ، والقدرة على التفاهم العقلاني ، وبرهانا على الثقة بالنفس . وعندما يقول الغربيون إن العرب لايتصفون بروح النكتة وليس لهم أدب فكاهي أو مسرح كوميدي يضعون العرب في إطار سياسي كريه . وعليه فإن إبراز هذا الجانب من الشخصية العربية والتراث العربي أهم في رأيي من ترجمة المتنبي وابن رشد أو ابن بطوطة إلى اللغات الأوربية) .

لكنني منذ أن وقعت على عنوان الكتاب ، كنت أتساءل : « هل يمكن ترجمة النكتة السياسية العربية ؟ » ، ذلك أن معظم النكات السياسية مسبوكة بصيغ عامية ، وبمفردات محلية جدا ، بحيث تغطي الكلمة الواحدة أحيانا خلفيات طويلة عريضة من المصطلحات الاجتماعية واللغوية المحلية .
ولنأخذ مثلا الواقعة التالية :

« الترجمة الصعبة »

في فترة الإنتداب الفرنسي على سورية (١٩٢٠ - ١٩٤٥) كانت المحاكم العسكرية فرنسية ، وكان على القاضي الفرنسي أن يتحاور مع المتهم السوري بواسطة مترجم . وذات مرة اقتيد إلى المحكمة شاب حلبي ، متهم باغتيال ضابط فرنسي ، وحين سأله القاضي الفرنسي : « لم قتلت الضابط ؟ » سمع منه جوابا لم يتمكن المترجم من ترجمته ، بل إن المترجم لم يتمالك نفسه وانفجر بالضحك ، ذلك أن الشاب الحلبي الظريف أجاب : « ورحمة نابليون مالي خبر » .

فكيف نترجم تعبير « ورحمة نابليون » لقاضٍ فرنسي ؟

لنأخذ مثلا الشاعر الشعبي العراقي الشهير الملاعبود الكرخي (١٨٦١ - ١٩٤٦ م) الذي يقول عنه المؤلف بحق إنه (كان وطنيا متحمسا من زاوية قومية صرفة ، وفي إطار شعره الشعبي يمكن أن يعد من أعظم شعراء الهجاء في التاريخ العربي . ولا عجب أن تأتي فكاهته السياسية وسخريته اللاذعة المريرة منظومة بقصائد . ويستشهد العراقيون بأشعاره كما يستشهد الانكليز بشكسبير . وكلماته شريفة كانت أو سليطة تأتي كالطلقة من ماسورة البندقية) .

ومع ذلك فإن المؤلف - وله العذر في ذلك - لم يستطع أن يعرض للقاريء أكثر من صفحة واحدة عن سخرية هذا الشاعر اللاذعة ونقده المرير ، ذلك أن فهم اشعار الكرخي العامية يصعب على القاريء العربي غير العراقي ، فكيف على القاريء الغربي ؟

إذن فالمؤلف قد تعرض للمحنة التي أشرت إليها ، عندما حاول « تلخيص » سخرية الملاعبود الكرخي أو التعريف بأمثاله من الشعراء الشعبيين المعاصرين بمقطع قصير أو صفحة واحدة من صفحات كتابه الكبير مع أن سخرية الكرخي السياسية اللاذعة والمريرة والجارحة قد ملأت حتى الآن خمسة دواوين من سلسلة الكتب التي كانت محور حياته العاصفة على مدى ٧٤ عاما .
وللمؤلف العذر كما قلنا .

لأنني وأنا قاريء عربي لم أستطع أن أفهم سطرا من دواوين الكرخي الخمسة ، فكيف الحال بالقاريء الغربي ؟

فإذا تركنا هذه المسألة و « تورطنا بقراءة النسخة من هذا الكتاب البديع وجدنا أن الدكتور كمال اليازجي الذي نقل الكتاب إلى العربية ورد بضاعتنا إلينا ، قد أسعدنا بنص أدبي رفيع هو الغاية في الجمال والكمال ، لذلك فإنني استخدمت كلمة « تورطنا » للتعبير عن حالة القاريء الذي يمسك الكتاب بتلابيبه فلا يتركه إلا بعد أن ينجز قراءته ، فهذا الكتاب - على اغراءات محتواه وطرافة موضوعه ، وفكاهة شواهده وتعليقاته - يمتاز بفضائل تزيد من شد القاريء إليه ، منها بلاغة البيان ، ونصاعة الأسلوب ، وسلامة النص من الأخطاء اللغوية والمطبعية ، وجمال العرض ، والدقة العلمية في نقل نصوص الشواهد المختارة من كتب التراث العربي القديم . وهي نصوص أعتقد أن المؤلف بذل جهودا ضخمة في اختيارها وتجميعها من مضامين مئات الكتب القديمة ، ليعطي بعدا تاريخيا لنظريته التي أراد أن يؤكد فيها للغربيين أن العرب ليسوا أمة تجهم وبكاء ، وأن هذه الصورة السوداء ظالمة ومتجنية وغير موضوعية .

خصائص الظرف العربي

لـذلك فـإنه يخصص الفصـل الأول من كتـابـه للتعريف « بخصائص الظرف العربي » بعد أن يمهد لـذلك « بجـولة في فلسفـة الضحـك » مؤكـدا أن (الظرف العربي حقل جديـد ـ نسبيا ـ من حقـول البحث ، قلما فطن له العرب المعاصرون . والظفر بمادة تصلح للتقييم والتحليل يفرض على الباحث القيام بغربلة مجموعة ضخمة من النكات والنـوادر والحكايات والأشعار التهكمية المنشورة في كثير من المؤلفات والمجاميع) .

وبعد أن يقدم لنا عرضا جميلا لتـاريخ الـظرف والظرفاء عند العرب منذ عصر الجاهلية حتى أيامنا ، وفصـلا آخـر عن « الـظرف السيـاسي في تـاريـخ العرب » يخلص إلى استنتاج طريف يقول فيه :

(والذي يبدو أن ظرفاء العـرب قد طـابت لهم الدعابات التي تعرّي الحكام وتنفي الخوف من نفوس الناقمين عليهم بتعرية الحاكم عن هويته ، ومواجهته مجردا عن هيبته . وقد بلغني مؤخرا حادث من هذا النـوع عن الملك فيصـل منشيء العـراق الحـديث ورئيس وزرائه الشهير نوري السعيد ، وكان فيصل قد وصل حـديثا إلى العـراق ومالـه قليل ، فسـأل السعيـد : كيف يقضي العراقيـون أوقات فـراغهم فأجابه : أحب تسلية لديهم النزهة بقارب في النهر ، فـأبدى الملك رغبـة في هذه المتعـة ، فـانسـلا ليـلا متنكرين إلى حيث الملاح دعبول ليأخذهما بقاربه في نزهة نهرية . وكان دعبول كسائر زملائه الملاحـين يشرب الخمرة ويحتفظ بزجاجـة منها في القـارب . ولكي يـظهر لضيفـه الكرم البغـدادي قدم زجـاجـة « العـرق » للملك ليرتشف منهـا جرعـة ، والملك كعربي لم يرفض الضيافة ، لكنه كمسلم اكتفى بلمس فوهة القنينةَ بشفتيه ، لكن نورى السعيد جر ع منها جرعة كبيرة ، وأعادها إلى الملاح . وأخذ دعبول بعد ذلك يسلي ضيفيه بالأحاديث المعتادة التي لاتخرج عن نطاق التذمر من الحكومة وقذف الـوزراء واقتراح سبل الإصلاح . وفي نهاية النزهة سأل نوري السعيد الملاح دعبول :

ـ تدري احنا منو ؟

ـ لا والله أفندي .

ـ أنا رئيس وزراء العراق .

وأسر ع الملك فيصل الى القول :

ـ وأنا ملك العراق .

فقال الملاح دعبول : ماشـاء الله ، إنت شربت جرعة وشفت نفسك رئيس وزراء ، وهذا شـرب نصف جرعة وشاف نفسه ملك ! به به به . . يالله انزلوا .

وفي اليوم التالي أراد نوري السعيد أن يوفر لجلالته مزيدا من المتعة ، فأرسل في طلب دعبول ، وأخذ في محادثته ، فسـأله : هـل من جديـد في الحركـة على النهر ؟ فقال دعبول : لا . . باشا . . بس البارحة جاءني شقيان اثنان (وروى حكايتهما معه كـما راق له) ، فأظهـر نوري السعيـد غضبه وأمر الحرس بالبحث عن الشقيين ، فقال دعبول :

ـ لاتشغل بالك باشا ، مايستحقون أي تعب ، اثنين دايخين الواحد منهم ما يسوى اربع فلوس) .

نكات النحويين

ويـلاحظ المؤلف خـلال استعـراضـه مقـومـات الـظرف السياسي في تـاريخ العـرب أن (النكـات الكثيرة التي انطلقت عن الأصول النحوية ،والحذلقة اللغوية ، كونت فرعا من الظرف قائما بنفسه . رووا عن نحوي كان على ظهر سفينة فسمع الملاح يلحن في كلامه فصاح به : ألم تتعلم النحو ؟ فأجابه : لا ، فقـال له النحـوي : أضعت نصف عمـرك .

وبعد قليل هاج البحر وسقط النحوي في الماء وأخذ يصيـح مستنجـدا . فقـال لـه المـلاح : ألم تتعلم السباحة ؟ قال : لا . فقال له الملاح : أضعت كل عمرك) .

كما يلاحظ ملاحظة ثانية أكثر أهمية ودقة ، وهي أن (المفهوم الغربي للظرف والدعابة ، والسخرية والملهاة - فضلا عن المحاكاة الهزلية - لايطابق تماما المفهوم العربي للفكاهة والمزاح والهزل والظرف وليس ثمة إجماع على مضامين التعابير الغربية . وأنا لن أحاول أن أحدد التعابير العربية ، لكنني أرى أن التقصير الفاضح في الجانب العربي هو الملهاة . فالمسرح أصلح مكان لانطلاق الافكار الغنية بالدعابة ولتفاعلها . ولقد أصاب برغسون حين قال : « إن الأمة الفكهة هي بحكم الضرورة أمة تهوى المسرح » . إن تطور المسرح متصل اتصالا وثيقا بالديمقراطية وقبول التعددية وإطلاق حرية النقاش والرد ، واحترام آراء الآخرين ، والإيمان بأهمية العمل الجماعي . هذه هي علة ازدهار المسرح في بلاد اليونان وأوربا الغربية وديار الانكلوسكسون).

الظرف الصحافي

فإذا انتقل القاريء إلى الفصل الثالث المخصص للحديث عن « الظرف الصحافي في عصر الانبعاث » فسوف يلاحظ أهل بيته أن وتيرة ضحكاته قد تصاعدت وتسارعت ، وأن رنين ضحكاته وجلجلتها - وهو ماض في القراءة - أصبح مسموعا لدى الجيران . لأن المراجع المتوفرة ، وهي الصحف المصرية والسورية واللبنانية وصحف المهاجرين العرب ، كثيرة وغنية بالشواهد والطرائف والوقائع التي ما تزال قريبة العهد ، ولدى القاريء خلفية فكرية عنها ، لذلك فإن « مفعولها » في إثارة الضحك لديه سهل وسريع .

خذ مثلا هذا التعليق الذي نشرته مجلة روز اليوسف القاهرية في ٢٢ مايو (آيار) ١٩٢٧ حول إعلان صغير في إحدى الصحف عن مكافأة تمنحها سيدة انجليزية لمن يعثر على كلبتها الضائعة « لولو » جاء فيه :

(خمسة عشر جنيها تدفع من أجل كلبة ضعيفة . إذن فكم جنيها ستدفع من اجل كلبة متمتعة بالصحة التامة موردة الخدين ، كحلاء العينين ، ثقيلة الردفين ، بارزة النهدين ، ذات خصر نحيل ، وذيل قصير !!

وهذه الكلبة المحبوبة المعززة من صاحبتها لماذا تتوه يا أولاد الحلال ؟ ! . تقول عنها صاحبتها إنها ضعيفة ، إذن لعل مرضها أعياها وأعيا نطس الأطباء فسئمت الحياة وألقت بنفسها في نهر النيل .

وإذا صدق ظني فلعل صاحبتها ترسل هذه الخمسة عشر جنيها إلى ملجأ أبناء السبيل ، على روح المبكي على شبابها لولو ، فتدخل الفرح إلى قلوب عشرات الأطفال الصغار المساكين .

خمسة عشر جنيها تدفع من أجل كلبة ! وفي البلد مئات وألوف من الأطفال يتضورون جوعا ! اللهم انزل غضبك وسخطك) .

ويعلق المؤلف على هذا « المقتطف » قائلا :

(لقد كان مقدار الجائزة كبيرا لايمكن لكاتب مثل هذا العمود الهزلي في هذه المجلة أن يحلم بمثله عن أتعاب شهر كامل) .

جحا الحاضر أبدا

وبوجه عام يحمد للمؤلف حسن اختياره للشواهد . فهو - أمام الكم الهائل مما تجمع لديه من النكات اللاذعة والتعليقات الساخرة - يعرف كيف يقدم النماذج التي تشعرك بأنها « جديدة » . من ذلك مثلا أنه يختار من تراث حكايات جحا العديدة هذه النادرة :

(ذات مرة رافق جحا الوالي إلى الحمام ، فسأله الوالي وليس عليه إلا المنشفة :

- كم تقدر أنني أساوي يا جحا ؟
- خمسين ديناراً

- تبا لك، إن منشفتي هذه وحدها تساوي هذا المبلغ .
- أعلم ذلك ، وعليه بنيت تقديري)

وهذا نموذج آخر من « التراث المحكي » لا المكتوب ، عن رأي الناس بالعسكر :

(قيل : إن رجلا راكباً في سيارة النقل العام « الباص » وطأ سهواً على قدم أحدهم وبقي واقفا عليها .

وعندما فرغ صبر الرجل سأل المتجني عليه :
تسمح تقول لي حضرتك ضابط ؟
ـ لا
ـ أبوك ضابط ؟
ـ لا
ـ أنت متجوز بنت ضابط ؟
ـ لا
ـ مافيش عندك واحد ضابط في الجيش ؟
ـ لا أبداً .

فانهال عليه الرجل ضرباً ولكماً وهو يقول : أمال انت واقف على رجلي كده ليه ؟) . ومن النوادر المحكية لا المكتوبة التي تعطي هذا الكتاب ميزة انفراده عن كتب النقل ، هذه النادرة :

(قيل : إن وزيرا عربيا كان يشترك في جنازة زعيم سوفياتي ، فدهش عندما رأى المحزونين بعد الدفن يجتمعون على كأس فودكا ، وسأل سفير بلاده في موسكو ـ وهو عسكري سابق ـ عن تفسير لهذه الظاهرة ، فقال له السفير : العادة في روسيا أنهم يشربون الفودكا على صحة المتوفى) .

« نوع الفكاهة »

ويلاحظ المؤلف أن النكتة العربية ، بعد التقدم الهائل في وسائل الاتصال بين الثقافات ، لم تعد محصورة ضمن الشروط المحلية . (فمن الملاحظ أن العرب اقتبسوا الكثير من نكاتهم في غضون الثلاثينيات والأربعينيات ، من شعوب أوربا ، في حين أنهم اتجهوا في اقتباسهم ، في أثناء السبعينيات والثمانينيات نحو دول أوربا الشرقية . وهذا الواقع لا ينبيء فقط بنشوء علاقة جديدة لهم بالدول الاشتراكية ، بل يشعر كذلك بنفورهم من التطبيقات التي جرت باسم النظام غير الليبرالي . إن نوع الفكاهة التي يرويها رجل دليل صالح على أخلاقه ومزاجه وظروفه الخاصة . وهذا الواقع الفردي يصدق كذلك بالنسبة إلى الأمة جمعاء) .

وعلى ذكر المقارنة بين الأوضاع في فترة الثلاثينيات ، وما آلت اليه في فترة الثمانينيات ، يعرض المؤلف واقعة تفضح مدى ما كانت عليه الأوضاع من دكتاتورية في زمن « الأنظمة الرجعية المبادة » ، وهيَ واقعة الأشعار السليطة التي كان يؤلفها بيرم التونسي ضد الملك فؤاد ، والتي بلغت في تعريضها بالأسرة المالكة في مصر حد فضح قضايا غاية في الحساسية ، منها أن الملك فؤاد تزوج من زوجته وهي حبلى ، وأن الملك فاروق ولد بعد هذا الزواج باربعة أشهر فقط . وانتشرت القصيدة على كل لسان فما كان من النظام الدكتاتوري الظالم إلا أن اعتقل الشاعر وطرده من مصر . (!!)

« اعلام الظرف »

وبشكل عام فإن كتاب « السخرية السياسية العربية » الذي يتضمن فصولا طريفة أخرى عن أعلام الظرف في عصر الانبعاث ، وعصر التهكم والخيبة ، وعصر ناصر الذهبي وصدمة النكسة ، يجعلك تشعر بأن حال الأدباء الساخرين العرب في العصر الحديث يشبه حال الصحفي المصري المرحوم إمام العبد ، فقد وصف هذا الرجل بأنه القصاب الذي احترف الصحافة ، فكانت الكلاب تتبعه فصار هو يتبع الكلاب .

ثم يؤكد ذلك عندما يتحدث عن أحد أشهر أعلام الأدب الساخر في عصر الانبعاث فيقول : (عاش الشيخ عبد العزيز البشري في زمن كان فيه الأدباء أحراراً في العيش ـ نسبيا ـ كما يحلو لهم . فنشأت في عدد من العواصم العربية حلقات تضم الأدباء ، يطلقون فيها النكات ، ويناقشون السياسية ،

ويتداولون في أحكام اللغة ، ففي بغداد كان ملتقى النخبة من الأدباء المقهى السويسري والمقهى البرازيلي ومقهى الزهاوي . وكانت حانة انجلو ملتقى ظرفاء القاهرة ، مثل البشري وعلى ابراهيم وفكري أباظة . وكذلك كانت حانة اللواء ومقهى المتاتية لرجال العلم والأدب . وكان لهم في بيروت ودمشق مقاهي عجرم والقزاز والبرازيل يجتمعون فيها لأغراض مماثلة . لكن سرعان ما هبت رياح التغيير على الشرق الأوسط ، فإذا المنافقون وقوى البطش يحلون محل الأدباء والظرفاء ، وإذا أناشيد النفاق تنطلق منها بدلا من ألحان الطرب) .

أخيرا فإن هذا الكتاب الذي كان غرض مؤلفه تعريف القراء الغربيين بالوجه الساخر والضاحك في حياتنا ـ وقد أصاب الهدف ـ قد جاءت ترجمته العربية لتكون بمثابة الفصل الناقص من كتاب تاريخ العرب الحديث ، أو بمثابة الوجه الثاني ـ أعني الشعبي والحقيقي ـ للوجه الرسمي للتاريخ ، فهو يكشف عن الصورة التحتية لحياتنا العربية منذ بداية عصر الانبعاث ، أو منذ أن أصدر ابراهيم المويلحي صحيفته الهزلية « مصباح الشرق » في عام ١٩٠٦ ، فحدثنا عن « سراي » الحكومة ، وذكر أنها اشتملت على مكاتب لرئيس التشريفات وللكاتب الأول والأغا الأول والجاسوس الأول . ويستدرك أن المكتب الأخير ألغي فيما بعد ، ووزعت مهام الجاسوسية على سائر المكاتب الأخرى ، فكان رئيس كل منها جاسوسا وله جماعة من المخبرين .

وفي مقال آخر له يذكر أن الرجال في البلدان الأخرى يحرزون التقدم والترقي بتحصيل العلم ، وإظهار الشجاعة ، وقهر العقبات ، أما في الآستانة فالطريق إلى هذا الهدف أسهل وأقصر . ذلك أنهم يظفرون بالثروة ويحرزون المجد بمجرد تلفيق تهمة يلصقونها برجل بريء ، وقد اعتاد السلطان الإصغاء ، في كل صباح ، إلى تقرير من جواسيسه عن مؤامرة تحاك ضد شخصه المعظم . فاذا لم يبلغه مثل هذا التقرير اعتقد أن الأسوأ قد وقع ، وأن المتآمرين قد خدعوا الجواسيس وفاقوهم دهاء . وعند ذلك يقع فريسة الرعب إلى أن يأتيه الخلاص من خبر اكتشاف مؤامرة فيعود إليه روعه .

مآخذ نقدية

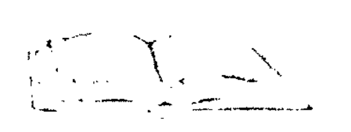
هل لنا من مآخذ على كتاب « السخرية السياسية العربية » ما دمنا نقرؤه من زاوية نقدية ؟

الجواب : نعم ، فالمؤلف عندما يتحدث ، وبشيء من الإسهاب في الفصول الأخيرة من الكتاب ، عن « الوضع » الساخر في أيامنا ، ويعرض نماذج جميلة وممتازة لناشر مثل زكريا تامر ، وشاعر مثل أحمد فؤاد نجم ، يترك الصورة مليئة بالثغرات لعدم تناوله كتابا ساخرين معاصرين ممتازين ، أمثال مصطفى أمين ، ومحمود السعدني ، وأحمد رجب ، وغيرهم ، من مصر ، وأمثال أحمد المعلمي ، وأحمد الشامي وغيرهما من اليمن ، وحسيب كيالي من سورية ، وأبراهيم سلامة من لبنان ، وداود الفرحان من العراق ، وشعراء وأدباء كثيرين جدا في أقطار مغربنا العربي ، ممن لا نعرف حتى اسماءهم . وكان صدور هذا الكتاب فرصة فريدة للتعريف بهم .

أم أننا في تأكيدنا على هذا المأخذ أو التقصير ، نحمل المؤلف فوق طاقته ، ونطلب منه كتابا آخر يرسم فيه الصورة الكاملة لوقائع التاريخ غير الرسمي للزمن العربي المعاصر ؟ ! □

بين العقلاء والمجانين فاصل أدق من نسيج العنكبوت . (جبران خليل جبران)

مكتبة العربي



مختارات

الكتاب/ التغيير الحضاري في مجتمع إفريقي
المؤلف/ د. محيى الدين صابر
الناشر/ المكتبة العصرية ـ بيروت
عدد الصفحات/ ٦٣٦ من القطع الكبير
سنة النشر/ ١٩٨٧

بهذا الكتاب يعود د. محيى الدين صابر الأمين العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم إلى ميدان تخصصه الأصيل ، وهو علم الاجتماع ، فيقدم أول دراسة باللغة العربية عن قبائل نيام نيام ومشروعات توطينها .

الكتاب عبارة عن دراسة أنثربولوجية ، تمت وفق المنهج الأنثربولوجى ذلك الذي يقوم على دراسة المجتمعات المحلية بأسلوب الاتصال المباشر ، والمعايشة المشاركة ، والملاحظة الداخلية للمجتمع ، وكما يقول المؤلف فإنه اعتمد بشكل أعمق على الملاحظة المشاركة ، فشارك القبائل معيشتهم وتزوج منهم وعمل بينهم ، واقام اقامة كاملة كأحد أبناء القبيلة ، لم تفته مناسبة ولم يترك فرصة إلا وانتهزها لجمع المعلومات ومعايشة الواقع في محاولة لرصده وفهمه .

ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام ، خصص الكاتب القسم الأول منه الى طرح الاطار النظرى للبحث ، وفي القسم الثانى يتناول أصول الحضارة الزاندية « نيام نيام » ، فيناقش البناء الاجتماعي والسياسى عند الازاندى ، والبناء الفكرى والدينى والنظام السحرى عند الازاندى ، وشئون الحياة والموت ، والنظام الجمالى ثم البناء الاقتصادى وأخيرا المناشط الاقتصادية ، وفي القسم الثالث من الكتاب يتعرض الكاتب لمشروع التطوير الحضارى في مجتمع القبائل ، فيعرض لقطاعات المشروع زراعيا وصناعيا وخدمات ، ثم يقوم خلال فصل كامل بتقويم المشروع وبعد ذلك يعرض عوامل التغير الحضارى في ذلك المجتمع ، وأخيرا يناقش الكاتب مشروعات التوطين والتنمية كعوامل للتغيير الحضارى .

■■

الكتاب/ في العربية السعيدة
المؤلف/ د. محمد عبدالقادر بافقيه
الناشر/ مركز الدراسات والبحوث اليمني ـ صنعاء
عدد الصفحات/ ١٨١ قطع متوسط
سنة النشر/ ١٩٨٧

يتناول المؤرخ اليمني المعروف في كتابه هذا من خلال ثماني دراسات قصيرة ، بعض القضايا التاريخية ، ويلقى الضوء على بعض الزوايا الغامضة في تاريخ اليمن السعيد ، فيتناول في بحثه الأول علاقة عرب الشمال (العدنانيون) بعرب الجنوب (القحطانيون) ، وهي العلاقة التي لم تدرس بعمق كاف من قبل المهتمين بالتاريخ العربي عامة ، وتاريخ اليمن خاصة ، وفي البحث الثانى يتناول من خلال محاولات تفسير لقب ملوك حمير (بنى تبع) تاريخ تطور مملكتهم بدءاً من مملكة سبأ إلى ما انتهت إليه في

النهـايـة ، وأصبحت تضم سبـأ وذى ريـدان وحضرموت ويمنة ّوأعرابهم طود وتهامة ّ ، ومن مملكة حمير ينتقل الكـاتب في بحث آخر لمحاولة قراءة النقوش الخاصة ببنوجرة وبنو ذرانح ، ثم يناقش الكاتب في دراسة أخرى خلفية الأحداث التي أدت إلى سقوط حكم الأحباش في اليمن قبيل الإسلام ، وهكذا يخصص المؤلف دراسته التي تضمنها الكتاب إلى قضايا تكثر فيها الكتابات ، فيتناول بعد ذلـك مملكة نزار واقليم البحرين ، ثم دراسة عن الهمدانى والمثامنة ، ودراسة عن هموم عدى بن وداع قراءة لقصيدة جاهلية ، وأخيرا الحنفاء العرب قبل الاسلام في مشروع إطار تاريخي .

■■

الكتاب/ المشروعات العربية المشتركة ، الواقـع والافاق

المؤلف/ د. سميح مسعود برقاوى

الناشر/ مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت

عدد الصفحات/ ١٧٩ ، قطع صغير

سنة النشر/ ١٩٨٨

يـأتي هذا الكتـاب ضمن السلسلة التي ينشرهـا مركز دراسات الوحدة العربيـة تحت عنوان سلسلة الثقافة القومية ، وهو الكتاب رقم ١٧ في السلسلة التي تهدف إلى تناول القضايا الشائعة والمثارة اليوم في حياتنا الفكرية ، حول موضـوع القوميـة العربيـة والوحدة العربية .

وعند تناول المؤلف لقضية المشروعـات العربيـة المشتركة ، فإنه بدأ في الفصل الأول بتقـديم المعنى المقصود بالمشروعات العربية المشتركة ، ومبـرراتها وأهميتها ، ثم تطرق إلى واقع المشروعات العربيـة المشتركة من حيث عددها ، ورؤس الأموال المدفوعة فيهـا ، ثم التوزيـع الهيكلي لهـذه المشـروعـات ، والأطراف المساهمة في انشائها .

وبعد أن يلم القارىء بواقع الحال العربي في هذا المجال ، ينتقل به المؤلف في فصل كامل الى الحديث عن دور المشروعات العربية المشتـركة وأهميتهـا في العمل الاقتصادي العربي ، ثم يناقش الكاتب بعد ذلك معوقات المشروعات العربية المشتركة ، ويختم دراستـه بفصل عن مستقبل المشروعـات العـربيـة المشتركة والحلول الممكنة لمعوقاتها . وتضمن الكتاب ملحقـا احصائيـا فيه بيـانـات عن عينـة مختـارة من المشروعات العربية المشتركة ، والمشروعات العربية الـدولية المشتـركة من حيث اسم المشروع ومقره ، وتاريخ التأسيس ، ورأس المال المدفوع .

■◘

الكتاب/ أزمة القصيدة العربية ـ مشروع تساؤ ل

المؤلف/ د. عبدالعزيز المقالح

الناشر/ دار الآداب ـ بيروت

عدد الصفحات/ ٢٠٨ قطع متوسط

سنة النشر/ ١٩٨٥

يناقش هذا الكتـاب قضية الخـلاف بين الشعـر التقليـدي والشعـر الحـديث ، ومن خـلال عـرض منـطقى يطرح الكـاتب أفكارا وتسـاؤلات شديـدة الثراء ، فيقول في معرض رصد القضية وجذورها إن الأزمة بالنسبة للشعر ليست سوى أزمة مـوقف من الجديد ، وأزمـة خوف من التغيـير الحقيقى في بنية الكلمة ، وقد جاء ذلك الموقف مستندا الى المعـايير السلفية الضيقة والعاجزة عن تكوين مفهوم علمى للشعر ولبقية فنون التعبير ، وليس أدل على ذلك من أن النقاد التقليديين يتهمون شعراء القصيدة المعاصرة بالتهالك على الشكلية ، وينسون أن دفاعهم المبالغ فيه عن الشعر التقليدى هو اسراف في الدفـاع عن الشكلية . ثم يتعرض الكاتب بعد ذلـك الى طرح اشكـالية الجـديد والأجـد في القصيـدة العـربيـة ، والخلاف بينهما ، ويختم الكاتب كتابه بفصل كـامل يخصصـه لمناقشـة منطق الأزمـة في القصيدة البيئيـة العربية . □



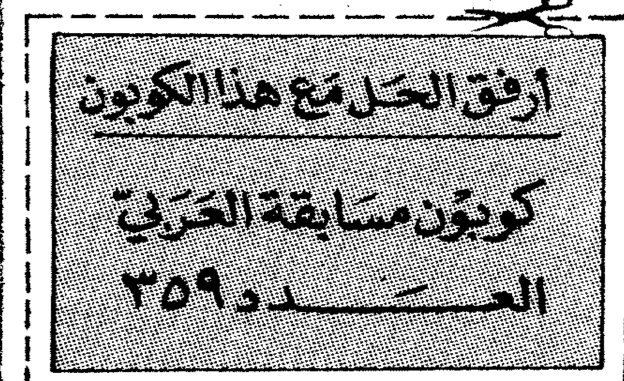
جوائز المسابقة :

الجائزة الأولى ٥٠ دينارًا
الجائزة الثانية ٣٠ دينارًا
الجائزة الثالثة ٢٠ دينارًا
٨ جوائز تشجيعية
قيمة كل منها ١٠ دنانير

الشروط :

الاجابة عن عشرة أسئلة من الأسئلة المنشورة ، ترسل الاجابات على العنوان التالي :

مجلة العربي صندوق بريد ٧٤٨ - الرمز البريدي 13008 الكويت « مسابقة العربي العدد ٣٥٩ » ، وآخر موعد لوصول الاجابات الينا هو ١٥ نوفمبر ١٩٨٨



١ ما يخفض المرءَ عُدْمُه ويُتْمُه اذا رفعه دينه وعمله ، ولا يرفعه ماله وأهله اذا خفضه فجوره وجهله .
حكمة مقتطفة من كتاب أطواق الذهب في المواعظ والخطب .. ترى من هو مؤلف هذا الكتاب ؟

٢ ضرب أخماس لأسداس ..
مثل شائع .. ترى ما الذي قصد اليه العرب من ضرب هذا المثل ؟
* وصف الخبيث الماكر .
* وصف الأمين الحريص .

٣ بزاقة مضت في تسلق جدار طوله ٣٠ قدما وراحت تتقدم ٣ اقدام نهارا وتتأخر قدمين ليلا . ترى كم يوما احتاجت البزاقة لبلوغ أعلى الجدار ؟

٤ قالت له احدى المعجبات « تصور أية ثمرة طيبة مدهشة نجنيها فيها لو اقترنت عبقريتك بجمالي » فرد عليها الأديب الساخر « ولكن ماذا لو اجتمع قبحي وغباؤك ! »
فمن هو هذا الأديب الساخر ؟

٥ بستان مثلث الشكل ، زرعوه شجرا ست شجرات لكل ضلع من أضلاعه

الثلاثة وشجرة واحدة في كل زاوية من زواياه الثلاث . .

ترى ما هو مجموع الشجر المزروع في هذا البستان ؟

٦ « مستر واطسون تعال الي أنا أريدك »

عبارة لا حكمة فيها ولا عبرة . . ولكنها ذات خطورة بالغة ، فهي اول عبارة انتقلت من قائلها الى سامعها بالهاتف . . فمن هو قائل هذه العبارة ؟

٧ يردد الهولنديون ذكر الرجل الهولندى الطائر فهم يطلقون الاسم على كثير من منشآتهم العمرانية والاقتصادية وكثيرا ما يستعملونه مجازا لوصف رحال أو بحار ضل السبيل . . ترى من هو الرجل الهولندي الطائر هذا ؟؟

٨ ترى في أي المدن تتوقع ركوب الجندول ؟

٩ يذكر التاريخ حادثة غريبة وقعت لاحدى السفن سنة ١٨٧٢ وذلك في عرض المحيط الاطلسي غير بعيدة عن ساحل البرتغال ، فقد عثر على السفينة فجأة وقد فقدت ملاحيها وقارب نجاتها وبعض معداتها ولم يتمكن أحد من حل لغز هذه السفينة حتى الان . . فأي سفينة تلك .

* * التيتانيك * ماري سلست
* كوين ماري

١٠ لعبت النار دورا مهما جدا في تاريخ الحضارة . . ترى من اكتشف النار وأين ومتى ؟

١١ خاطب الشاب المرأة قائلا : « اعتقد اننا أقرباء ، ولكنني لا أستطيع تحديد صلة القرابة بيننا نظرا لغيابي الطويل في امريكا » .

فابتسمت المرأة وقالت : « المسألة بسيطة وحسبك أن تعرف أن أمك كانت ابنة أمي الوحيدة » .

ترى ما وجه القرابة بين الاثنين ؟

١٢ وما شيء حشاه فيه داء
وأوله وآخره سواء
اذا مازال آخره فجمع
يكون الحد فيه والمضاء
وان أهملت أوله ففعل
له بالرفع والنصب اعتناء

أبيات تلغز بالخمرة . . فمن هو قائلها ؟ □



١

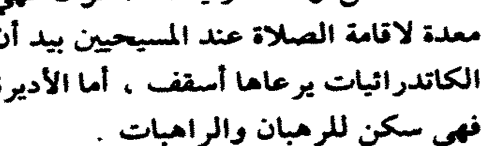
توجد أقدم كنيسة في العالم في سوريا ، في قلعة الصالحية الواقعة الى الشرق ، والكنيسة هي أقدم الكنائس القائمة حاليا في العالم كله ، وقد مضى على انشائها أكثر من ١٧٥٠ عاما اذ بنيت سنة ٢٣٢ م ، على انها لم تبن لتكون كنيسة بل بيتا للسكن ثم حولت الى كنيسة .



الكنائس والكاتدرئيات صنوان فهي معدة لاقامة الصلاة عند المسيحيين بيد أن الكاتدرائيات يرعاها أسقف ، أما الأديرة فهي سكن للرهبان والراهبات .



برج بيزا المائل ليس الا برج الأجراس الخاص بكاتدرائية بيزا وان فاقت شهرته شهرتها وذلك بسبب ظاهرة ميلانه وهي ظاهرة عجيبة لا ريب .



وتجدر الاشارة الى أن الكاتدرائية وملحقاتها قد بنيت فيا بين سنة ١٠٥٣ - ١٢٧٢ وتعد آية من آيات فن الرومانسك وهو فن معروف في اوروبا .



أضخم كنيس قائم في الولايات المتحدة الامريكية ، يعرف باسم معبد عمانويل ويقع على التقاطع بين الشارع الخامس وشارع رقم ٦٥ ويبلغ بعداه ٤٥,٧٢ مترا × ٧٧,١١ مترا ، وقد اكتمل بناؤه سنة ١٩٢٩ .

٥

أضخم الكاتدرئيات في العالم هي كاتدرائية القديس يوحنا في نيويورك أو الكاتدرائية غير المكتملة كما يسميها أهل نيويورك اذ تبلغ مساحتها ١١٢٤٠ مترا مربعا فهي إذن أكبر من كاتدرائية سانتا ماريا التى تبلغ مساحتها ١٠٥٤١ مترا مربعا

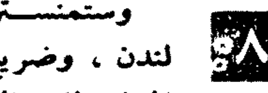
٦

كاتدرائية نوتردام في باريس هي بلا ريب أشهر الكاتدرائيات الأوربية التى بنيت بالطراز القوطى ، وهي أيضا من أقدمها ويعود بناؤها الى سنة ١١٦٣ - ١٢٤٠م وهى كذلك أكبر مساحة (تبلغ مساحتها ٤٢٧×١٥٧ فدانا) ، وزادها شهرة اهتمام فيكتور هوجو وأمثاله من مشاهير الكتاب بها وغني عن البيان ان للكاتب الفرنسي الشهير هذا قصة بعنوان (نوتردام) .



السير الكسندر رن (wren) (١٦٣٢ - ١٧٢٣) هو بلا ريب في طليعة المهندسين المعماريين الانكليز في العصور الحديثة وكاتدرائية القديس بولس (سنت بول) هى بلا ريب أهم آثاره المعمارية كلها .





وستمنستر آبي ، كنيسة مهمة في لندن ، وضريح قومي ، تعتبر من أجل المباني ذات الطراز القوطي في انكلترا انشئت بين ١٢٤٥ - ١٥٢٨ على أنقاض كنائس أخرى قديمة إنها الكنيسة التى توج فيها ملوك انجلترا كلهم اعتبارا من وليم

الأول وهي الكنيسة التي دفن فيها الكثيرون منهم .

٩ كنيسة سيستين في الفاتيكان هي التي تزين سقفها لوحات مايكل أنجلو الجصية الرائعة بناها البابا سكسوتوس الرابع سنة ١٤٧٣ - ١٤٨١ والجدير بالذكر أن هذه الكنيسة هي المكان الذي تجتمع فيه جميع الكردينالات المقدسة .

١٠ تعزى القداسة الفائقة التي تتميز بها كنيسة القيامة الى الاعتقاد بأن بناءها يجمع بين مكانين مقدسين المكان الذي صلب فيه المسيح حسب المعتقدات المسيحية والمكان المجاور الذي دفن فيه حسب المعتقدات المسيحية أيضا .

١١ اتباع الديانة الشنطوية في اليابان هم الذين يقدسون المرآة الموجودة في أيز (ise) فهم يعتقدون أن آلهة الشمس نفسها اميتاراسو **Ametarasa** قد نظرت في هذه المرآة عقب خلق الكون مباشرة . لا عجب اذن إن أقبل الملايين من أهل اليابان وغيرهم على زيارة هذه المرآة سنويا .

١٢ الاسم هو « هاجيا صوفيا » وهو يوناني ومعناه الحكمة المقدسة .

وتجدر الاشارة الى ان كنيسة هاجيا صوفيا هذه كنيسة أرثوذكسية بناها يوشينان سنة ٥٣٢ - ٥٣٧ وقد حولت الى مسجد بعد الفتح العثماني سنة ١٤٥٣ اما الآن فهي متحف للفنون وبخاصة البيزنطية ويعتبر المبنى نموذجا رائعا للفن المعماري البيزنطي .

الفائزون في مسابقة العدد ٣٥٦ يوليو ١٩٨٨

الجائزة الاولى : محمد مصطفى السمرى/ الاسكندرية - جمهورية مصر العربية .

الجائزة الثانية : النور محمد الحسن/ جامعة الخرطوم - جمهورية السودان .

الجائزة الثالثة : ابراهيم جمال ابراهيم احمد الجزار/ كلية الهندسة - دولة الكويت .

الفائزون بالجوائز التشجيعية

١ - نزار سليم كيخيا/ المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية .
٢ - احمد عارف الفاني/ بيروت - لبنان .
٣ - وريقي محمد/ حي البريك - خريبكة - المملكة المغربية .
٤ - نهلة صلاح/ ولاية البويرة - الجمهورية الجزائرية .
٥ - سعود عزيز محمد/ البصرة - المعقل - الجمهورية العراقية .
٦ - طه محمود عمرين/ دوما - ص . ب (١٨٥) الجمهورية العربية السورية .
٧ - محمد فال بن محمد الطالب النافع/ نواكشوط - موريتانيا .
٨ - حنا التون قيناق / راوريبرو - السويد



معركة بلا سلاح

يتمتع جورج كولتا نوسكي الرئيس السابق للاتحاد الأمريكي للشطرنج بموهبة نادرة في اللعب بالاستدبار، وهو ضرب من اللعب، يجلس فيه اللاعب وظهره إلى الرقعة معلناً نقلاته لخصومه عن طريق الرموز. وقد برع أجدادنا العرب في هذا الضرب من اللعب، وتركوا لنا فيه مآثر خالدة (انظر عدد اكتوبر ٨٤). واللعب بالاستدبار (العمياني) يسبب لممارسيه إرهاقاً ذهنيا بالغا مما حدا بالسلطات الشطرنجية السوفييتية إلى منع كبار اللاعبين السوفييت من ممارسته حرصا على صحتهم العقلية، غير أن بعض اللاعبين يتخذون من نجاح كولتا نوسكي في اللعب بالاستدبار حجة لتفنيد هذه المزاعم، فها هو كولتا نوسكي في الثانية والثمانين من عمره ومازال لاعباً وكاتباً ومديراً شطرنجيا ممتازا.

وقد حمل هذا اللاعب الفذ بطولة العالم للعب بالاستدبار لعام ١٩٣٧، حيث لعب ٣٤ دوراً فاز في ٢٤ منها وتعادل في الباقي. ومن المهارات العجيبة التي يتميز بها كولتا نوسكي ما يعرف بجولة الفرس، وهي أحجية يقوم اللاعب فيها بنقل الفرس بحيث يلمس كل مربع من مربعات الرقعة مرة واحدة فقط، ويعود في نهاية الجولة عادة إلى المربع الذي انطلق منه في النقلة ٦٤. وتبلغ دقة كولتا نوسكي ومهارته في تنفيذ هذه الجولة حداً يجعله يقيم عروضاً عامة يحضرها مئات المشاهدين، يملأ مربعات الرقعة فيها بأسماء وأماكن وأرقام يختارها الحاضرون، يقضي بعدها من ثلاث إلى أربع دقائق في حفظ الرقعة واختزان الأماكن والأرقام والأسماء في ذاكرته المدهشة، ثم يقوم بتنفيذ الرحلة الغريبة بالقفز بالحصان من مكان إلى آخر ومن رقم إلى آخر الى أن يختتم الجولة وسط حيرة المشاهدين واستغرابهم.

وقد بلغت ثقته بنفسه مرة أن قام بهذه الجوله المدهشة أمام جمهور غفير على رقعة تمتلىء بالأرقام العشوائية لم يرها منذ عام مضى. أما كيف استطاع كولتا نوسكي اكتساب هذه المهارة العجيبة فهو يقول بأنه كان يرسم الرقعة فوق رأسه في غرفة نومه، ويقضي وقت فراغه في استذكارها وتنمية قوى الاستبصار لديه.

ويفضل كولتا نوسكي في لعبه بالاستدبار الافتتاحيات التقليدية كافتتاحية الأفراس الأربعة وافتتاحية «روي لوبيز» ولكنه يميل إلى افتتاحية بيدق الوزير المعروفة بافتتاحية كول colle التي تنسب إلى اكبر لاعبي موطنه الأصلي بلجيكا كما في الدور التالي (كزويك ١٩٣٧).

	□ كولتا نوسكي	■ السير هيو ولبول
١	د ٤	ح - و ٦
٢	ح - و ٣	هـ ٦
٣	هـ ٣	د ٥
٤	ف - د ٣	ح ١ - د ٧
٥	ح ١ - د ٢	ف - د ٦

النقلات التقليدية لافتتاحية كوتز

٦ . هـ ٤	د × هـ ٤
٧ . ح × هـ ٤	ح × هـ ٤
٨ . ف × هـ ٤	ح ـ و ٦
٩ . ف ـ د ٣	ت (نقلة متسرعة)
١٠ . ت	حـ ٦
١١ . و ـ هـ ٢	ف ـ د ٧
١٢ . ح ـ هـ ٥	جـ ٥
١٣ . د حـ ٥	ف × جـ ٥

١٤ . ر ـ د ١ لتسمير الفيل واقتناصه بعد ف ـ ب ٥

١٤	و ـ هـ ٧ (تفاديا للفخ)
١٥ . ف ـ و ٤	رو ـ د ٨
١٦ . و ـ و ٣	ف ـ جـ ٨
١٧ . جـ ٣	ز ٤ ؟ (رديئة)
١٨ . ف ـ ز ٣	م ـ ز ٧

١٩ . حـ ٤ (تمهيدا للهجوم) ر ـ حـ ٨

٢٠ . ف ـ جـ ٢	ب ٦

٢١ . ح ـ جـ ٦ ! (بديعة) ف ـ ب ٧

٢٢ . ب ٤	ر × د ١ +
٢٣ . ر × د ١	و ـ هـ ٨

لمضاعفة التهديد على الحصان ومن ثم اقتناصه

٢٤ . و × و ٦ ! تضحية يعتبرها المبصرون من كبار اللاعبين فتحا فما بالك بمن يلعب مستدبرا وأمامه ثلاثون لاعبا !

٢٤	م × و ٦

٢٥ . ف ـ هـ ٥ (مات) الشكل أعلاه

مسألة العدد (٣٥٩)

مات ٤

من اهداء القارئ
عماد دحدوح (دمشق)

حل مسألة العدد ٣٥٧
اغسطس ١٩٨٨

الحل :

١ . م ـ أ ٢ يلعب ما شاء
ثم مات

الفائزون بحل مسابقة الشطرنج العدد ٣٥٦ (يوليو ١٩٨٨)

الفائزون باشتراك سنة كاملة :

١ ـ عبدالمجيد المويليلي/ خريبكة/ المغرب
٢ ـ ناصر عبدالرحمن حمودة/ بورسعيد/ مصر
٣ ـ محمد عمر معاشر/ عدن/ اليمن الديمقراطية
٤ ـ مقداد محمود الزعاترة/ عمان/ الاردن
٥ ـ هنادي سعيد عثمان الرحي/ الوكرة / قطر

الفائزون باشتراك ستة أشهر :

١ ـ أحمد كمال الكرم/ حماة/ سوريا .
٢ ـ ابن ايوب محمد بن حمو/ غرداية/ الجزائر
٣ ـ عثمان أحمد محمد الحوري/ مناقذا/ السودان
٤ ـ يونس التليلي/ القصرين/ تونس .
٥ ـ ساهر مهدي الراشد/ البصرة/ العراق

حوار القراء

العربي ـ ص.ب : ٧٤٨ الصفاة ـ الكويت

زعامة الأدب تنتقل الى الكويت

الأستاذ / الدكتور رئيس التحرير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

باديء ذي بدء نهنئكم والعاملين معكم على تقدم مجلتنا المتميزة وتطورها من حسن الى أحسن متمنين لها كل تقدم وازدهار .

لقد ظهرت في الآونة الأخيرة موجة احتجاب بعض المجلات الفكرية الجادة والخلاقة مثل مجلة (الأمة) وكذلك مجلة (الدوحة) القطريتين ، وقد سبق ذلك بأعوام احتجاب مجلة (المسلمون) ثم عادت صحيفة (أسبوعية) نتمنى لها الاستمرار ولغيرها . وإن أسباب التوقف المفاجيء كانت مالية بحتة ، حيث أن وارداتها لا تغطي جزءا يسيرا من تكاليف إصدارها . وغير خاف عليكم أن احتجاب مجلة فكرية جادة يساوي قفل مدرسة علمية ، بل في حقيقة الأمر يمثل مأساة فكرية لجيل تنتصر فيه المجلات الهابطة وتحتجب المجلات التي تعنى بالفكر والمعرفة والقيم .

الأستاذ/ الدكتور رئيس التحرير

إني أجد نفسي في قلق على مجلتنا النيرة (العربي) مجلة كل العرب ، بل كل من نطق العربية في أرجاء المعمورة على الرغم من أنها شهرية وذات معارف متعددة ننتظرها بفارغ الصبر كل شهر ، قلق أن تتعثر في المستقبل القريب بسبب ضآلة العائد المادي وكثرة النفقات ، وارتفاع أسعار الورق على المستوى العالمي على الرغم من محاولتها الجادة الصامدة أمام كل التحديات ورغبتها الأكيدة في الحرص على الاستمرار بهمة الرجال المخلصين في أن تكون في متناول كل أبناء العرب ، ولتكون حلقة اتصال دائم بين أبناء الأمة العربية ، ومن وراء كل ذلك وزارة الاعلام الكويتية ، أعانها الله .

إني أتصور أن الأمن المالي سيتحقق إذا قامت المجلة برفع سعر البيع والاشتراكات بحيث يكون سعر البيع مساويا للتكلفة بدل من البيع بالسعر الرمزي كما هي عليه الحال الآن .

إن للمجلة حظا وافرا من محبة القراء وثقتهم يجعل الطلب عليها في ازدياد حتى إن رفعت السعر ، والمجلة مستمرة في العطاء منذ فترة طويلة دون أي تغير في سعرها ، وهي غزيرة العطاء منذ صدورها لأول مرة وهي الآن أقوى وأغزر في المادة والاخراج وفي نوعية الورق الذي تصدر به ، وإن قراء المجلة لن يبخلوا على

مجلتكم الرفيعة المستوى بدفع السعر الجديد ، على الرغم من أننا نعلم أن الفكر والأدب لا يقاس بالثمن أو بمبدأ الكسب والخسارة ، لتبقى مجلة العربي حية على مدى الأزمان ولتبقى الكويت رائدة في ذلك حماها الله .

في الأربعينيات أطلق طه حسين عبارته المشهورة « زعامة الأدب تنتقل من القاهرة إلى بيروت » وفي الثمانينيات نردد هذه العبارة مع شيء من التغيير ليصبح منطوقها « زعامة الأدب تنتقل إلى الكويت » . ونرى إن شاء الله في القريب العاجل هذه العبارة وهي أكثر شمولا لتكون « زعامة الفكر والأدب تنتقل إلى دول مجلس التعاون الخليجي » لما لها من الاهتمام والامكانيات والسبل لتهيئة ذلك المناخ المطلوب .

القاريء حسن عبدالرحمن بهيكلي
جدة - المملكة العربية السعودية

العربي

نشكرك على رسالتك الصادقة ونطمئنك بأن الجميع في الكويت يولون مجلة العربي كل اهتمام ويوفرون لها كل الامكانيات ، وان وزارة الاعلام ماضية كالسابق في دعم المجلة والحرص على أن تظهر في أحسن صورة خدمة للأمة العربية بكل أقطارها .

■ ■ ■

حرب أكتوبر ١٩٧٣ وتهيئة الظروف للانتفاضة

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير

تحية طيبة ،

قرأت في العدد ٣٥٤ مايو ١٩٨٨ من المجلة الملف الفلسطيني،وبين هذا الملف وافتتاحية العدد يظهر مدى الجهد الذي بذل لتغطية انتفاضة الشعب العربي في فلسطين المحتلة،**وهو جهد تشكرون عليه**،ولكن في مقالة : « من الاقتلاع إلى الصراع من أجل البقاء » تحدث الكاتب الدكتور شفيق الغبرا عن بدايات الاستعمار الاستيطاني « الاسرائيلي » اليهودي للأرض العربية الفلسطينية ، وتحدث عن الجرائم والمجازر التي ارتكبتها « اسرائيل » تجاه الشعب الفلسطيني ، ثم أتى الدكتور شفيق على ذكر حرب ١٩٦٧ التي سيطرت فيها « اسرائيل » على الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس . ثم انتقل فجأة بالحديث عن هذه النكسة إلى

حوار القراء

غزو الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢ ، ولكن المدهش هو لماذا لم يأت الدكتور الغبرا على ذكر حرب تشرين التحريرية (أكتوبر ١٩٧٣) التي استرجع فيها العرب بعض الأرض العربية المغتصبة مثل أجزاء من الجولان والقنيطرة وسيناء ، فلقد كانت أبرز الأحداث التاريخية التي تمت في تاريخ العرب الحديث نظرا لمنعكساتها ونتائجها على كل الأصعدة والمجالات . وكان من أهم نتائج هذه الحرب على الصعيد العسكري تأكيد قدرة الانسان العربي وجدارته القتالية وإمكاناته في استخدام أعقد وسائل الصراع المسلح ، وكذلك تحقيق المفاجأة التامة للعدو « الاسرائيلي » من الناحية الاستراتيجية على الجبهتين السورية والمصرية باتخاذ قرار الحرب وتوجيه ضربتين متزامنتين في الجولان وسيناء .

أما على الصعيد الداخلي فقد استعاد الشعب ثقته بنفسه وبإمكاناته وقدراته ، وتعززت ثقته بقواته المسلحة ، وتعزز الشعور بأن الأمة العربية قادرة ليس على المواجهة فحسب وإنما على تحرير كل التراب العربي .

وعلى الصعيد « الاسرائيلي » الداخلي اهتزت الصورة التي خلقتها « اسرائيل » في نفوس سكانها بأن الجيش « الاسرائيلي » لا يقهر .

أما على الصعيد الفلسطيني فلوحظ ازدياد نشاط العمل الفدائي داخل الأرض الفلسطينية المحتلة واتسامه بطابع جديد وهو المواجهة المباشرة ، وكذلك اكتساب القضية الفلسطينية اعترافا عالميا واسعا .

وعلى الصعيد العربي أبرزت الحرب أهمية الوحدة العربية في الصراع مع العدو الصهيوني ، وأكدت أهمية التضامن العربي . وأبرزت الحرب أهمية النفط العربي في المعركة .

القاريء محمد بحري
رابطة التربية ـ حماة ـ سوريا

■■■

«تشجيع النشء»

الأستاذ الدكتور رئيس التحرير
تحية طيبة ،

لماذا لا تأخذ المجلة على عاتقها مسؤولية تشجيع الشباب من الناشئة في رحاب الأدب ، سواء في الشعر أو القصة أو الدراسة الأدبية ، فنحن نلاحظ أن كل الذين ينشرون هم من كبار الكتاب والباحثين .

القارئة
آمال السيد عيسى السيد أحمد
توبلين ـ البحرين

نشكرك على رسالتك . ونود أن نوضح أن المجلة كانت دائما سباقة إلى تشجيع المواهب الشابة ،وتنشر لهم ، وقد برز عدد منهم من خلال النشر في « العربي » . وهذا فخر للمجلة أن ترى كثيرا ممن بدءوا الكتابة فيها قد أصبحوا من المشاهير في الوطن العربي . والقضية تعتمد فقط على مدى صلاحية الموضوع المرسل للنشر وأصالته ، ومدى ملاءمته مع سياسة المجلة وأهدافها .

* * *

"شحنات الصوديوم والبوتاسيوم"

السيد الدكتور رئيس التحرير

بعد التحية ،

في العدد ٣٥٤ - مايو - ١٩٨٨ وفي مقال « كهربائية الجسم والأمراض النفسية » ، وبالتحديد في صفحة ١٤٧ كانت هناك معلومة ليست دقيقة ، أردت أن ألفت نظركم ونظر القراء إليها . فالكاتب يقول : « يحيط بالخلية العصبية غشاء يتكون من مواد كيماوية مختلفة في نوعها ونسبها ويحتوي الجزء الخارجي من الغشاء على كمية عالية من البوتاسيوم وكمية منخفضة من الصوديوم وتكون الشحنات موجبة في الحالتين وتكون المواد من داخل الخلية على العكس من ذلك ، أي أن يكون تركيز البوتاسيوم منخفضا ، وتركيز الصوديوم عاليا ، كما أنهما يحملان شحنات سالبة » .

والملاحظ أن الكاتب أتى بمعلومة غير دقيقة وهي أن البوتاسيوم والصوديوم لهما شحنات موجبة في خارج الخلية وشحنات سالبة في داخل الخلية ، وهذا خطأ ، لأن شحنات البوتاسيوم والصوديوم موجبة سواء كانت داخل الخلية أوخارجها ، أما فرق الجهد بين داخل الخلية وخارجها فإنه ينشأ نتيجة الاختلاف في تركيز أيونات الصوديوم والبوتاسيوم أساسا ، وكذلك اختلاف معامل نفاذية غشاء الخلية لكل منهما ، والمعادلات التي تحسب هذا الفرق من الجهد في استرخاء الخلية وهي ثابتة علميا منذ عام ١٩٤٣ ، بحيث يكون دائما داخل الخلية أقل جهدا من خارجها بحوالي ٨٠ ميللي فولت ($\frac{٨}{١٠٠٠}$ من الفولت) ، ولذلك يبقى دائما داخل الخلية سالبا بالنسبة لخارجها بنفس الكمية ، ولقد أثبتت ذلك التجارب المعملية الكثيرة .

د . محمد ابراهيم العدوي

قسم الاتصالات - كلية الهندسة والتكنولوجيا

جامعة حلوان - حلوان - القاهرة

وردت للمجلة أيضا رسالة من القاريء وليد طه الجعبة - كلية الطب الجامعة الأردنية - المملكة الأردنية الهاشمية تحمل نفس الملاحظات والمعلومات الواردة في الرسالة السابقة . ونحن نشكر كل من كتب في هذا الموضوع . وكما تعلمون أن المساحة المخصصة لا تسمح بنشر جميع الرسائل الواردة ، ونرحب بأي ملاحظات في المستقبل .

حوار القراء

ردود قصيرة

- القاريء مختار عبدالرحيم مختار - بركة الحاج - القاهرة - يود لو أن المجلة أعطت اهتماما بالطفل العربي . ونقول له : إننا نصدر منذ أكثر من سنتين ونصف سنة مجلة متخصصة للطفل العربي تسمى (العربي الصغير) ، وسوف تلاحظ إعلانها ضمن صفحات المجلة ، ويمكنك اقتنائها من أي موزع في القاهرة ، كما أن المجلة تنشر المواضيع المتخصصة التي تعنى بالأطفال على صفحاتها .

- القارئة فاتن البدوي - دمشق - سوريا - أهنئكم على المجهود الكبير الذي تقدمونه في « العربي » ، وعندي اقتراح ، وهو أن تقوموا بعمل استطلاع عن أحياء دمشق القديمة والبيوت العربية القديمة الآخذة بالزوال مع تقدم العمران .

- القاريء بسام دبابعة - جامعة اليرموك - المملكة الأردنية الهاشمية - يقترح أن تقوم المجلة باستطلاع عن جامعة اليرموك وعن مدينتي البتراء وجرش التاريخيتين ، كما يود معرفة كيفية الحصول على أعداد مجلة « العربي » من المكتب الفني بوزارة الاعلام الكويتية . نقول : إن المجلة قامت بعمل الاستطلاعات التي يقترحها في أعداد سابقة ، ولا يوجد ما يمنع أن تقوم المجلة مرة أخرى بعمل مثل هذه الاستطلاعات ، أما بالنسبة للحصول على أعداد « العربي » السابقة فما عليك إلا الكتابة الى المكتب الفني مباشرة بما تريد . □

الكلمات المتقاطعة

يهدف هذا اللغز الى تسليتك وامتاعك بالاضافة إلى إثراء معلوماتك وربطك بتراثك الفكري والحضاري عن طريق البحث الجاد المثمر في المعاجم والموسوعات وغيرها من المراجع الهامة . والمطلوب منك الاجابة على أسئلة هذا اللغز ومقارنتها بالحل الصحيح الذي سينشر في العدد القادم .

كلمات أفقية :

١ ـ بحار ورائد عربي يقال انه أرشد فاسكودي غاما إلى طريق الهند .
٢ ـ بلد عربي خليجي ، وظهر
٣ ـ رائد برتغالي اكتشف مضيقاً عرف باسمه .
٤ ـ ظاهر وواضح ، يأتي بعد الضيق .
٥ ـ يتركه النهر على جوانبه عند الفيضان ، الاسم الثاني لمضيق بين البحر الأحمر وخليج عدن .
٦ ـ كلمة تعجب ، استمع ، يد منونة .
٧ ـ مسقط رأس الرحالة العربي ابن بطوطة ، سَمَر مثناه .
٨ ـ تنتظم شئوننا وتترتّب .
٩ ـ مقاطعة في شمال غربي الهند تتبع ولاية راجستان .
١٠ ـ من مشاهير الرواد الانجليز الذين جابوا أفريقيا الوسطى .

كلمات عمودية :

١ ـ رحالة عربي طاف العالم المعروف في ٢٩ عاماً ، الحرف الثاني في الأبجدية .
٢ ـ حرفان متشابهان ، صادق ومستقيم .
٣ ـ مصنوع من صخر ثمين ، تشابه كلمتين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى .
٤ ـ ملاح برتغالي اكتشف رأس الرجاء الصالح ، ثرت وفقدت أعصابي .
٥ ـ مخدر طبي ، رَشف الشيء رشفاً رقيقاً ، من المحرمات في الاسلام .
٦ ـ رائد بريطاني معروف تجول في افريقيا .
٧ ـ مورد في صيغة الجمع ، مُبلّل .
٨ ـ رحالة عربي أندلسي قام برحلات كبرى وصفها في كتاب يعرف باسمه ، أعني أو أقصد .
٩ ـ اجتهاد ، غامق أو مائل الى السَّواد .
١٠ ـ جمهورية سوفيتية وطد العرب فيها حكمهم في القرن الثامن ، صاحَ متألماً .

حل مسابقة العدد الماضي سبتمبر ١٩٨٨م

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠
١	ز	ن	ب	ق	أ	ص	ف	ر	■	ق
٢	ي	■	ق	ر	ن	■	ق	ا	ر	ص
٣	ز	هـ	د	ن	■	ل	ب	ل	ا	ب
٤	ف	■	و	ب	ي	ل	■	■	ق	ا
٥	و	ث	ن	ي	■	س	ن	ا	ب	ل
٦	ن	ب	س	ط	هـ	■	ط	ق	و	س
٧	■	ا	■	■	ش	م	ا	م	■	ك
٨	ق	ت	ا	د	■	ش	و	ن	د	ر
٩	ن	■	م	ل	ف	و	ف	■	ل	■



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت

أكتوبر ١٩٨٨ م



تأليف

د. زولت هارسنياي و ريتشارد هتون

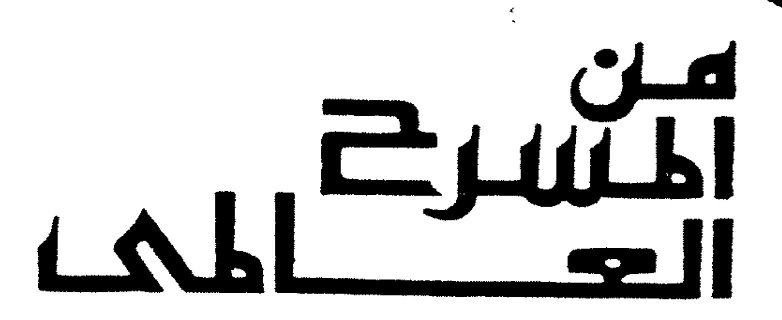
ترجمة : د. مصطفى فهمي

مراجعة : د. مختار الظواهري



الكتاب ١٣٠

المراسلات : باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت



سلسلة ثقافية
تصدرها في مطلع كل شهر

وزارة الإعلام - الكويت

العدد ٢٢٩ أول أكتوبر ١٩٨٨



تأليف: ج. ب. بريستلي
ترجمة وتقديم: د. زينب شيرازي
مراجعة: د. طه محمود طه


العلم في الصغر كالنقش في الحجر